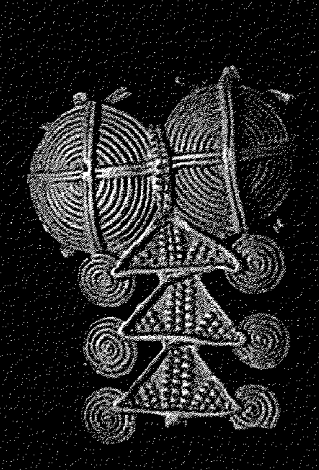
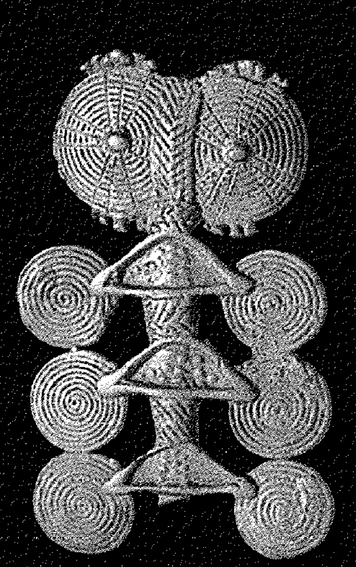
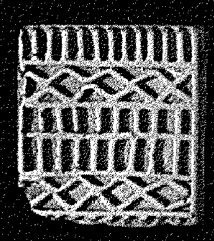
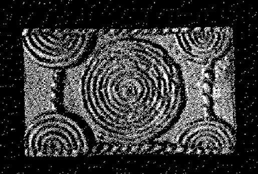
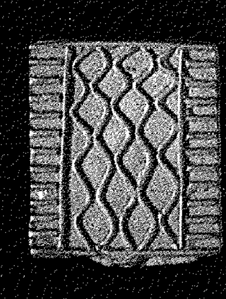
تاريخ العرب والعالم

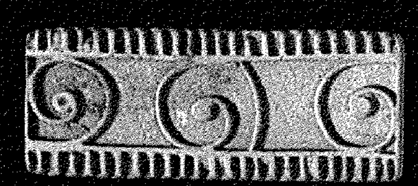
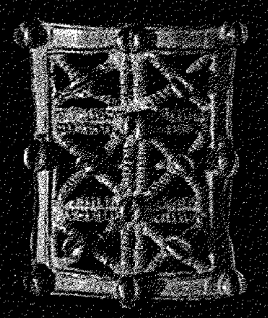
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثامنة • العددان ٨٧ ـ ٨٨ • كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٨٦م ـ الموافق ربيع الثاني ـ جمادي الأولى ١٤٠٦هـ





□ مدرسة السلطان حسن ـ الايوان الرئيسي ٧٥٧ ـ ٧٦٤هـ/ ١٣٥٦ ـ ١٣٦٢م.



□ نماذج من الفن الافريقي.
من كتاب
Africa
Arnold Bamert

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر

تاريخ العرب والعالم

العددان ٨٨/٨٧ • كانون الثاني ــ شباط ١٩٨٦

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	١٢ ل.ل.	سوريا	١٢ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل. ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل. ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ ل. ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 8, No. 87/88 • Jan-Feb 1986

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب، مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■





لمحـات مـن تبادل التأثيرات الثقافية بين الحجاز واليمن ومصر من جهة وبين وسط شمال شرقي أفريقيا (أثيوبيا، أرتيريا، السودان، وادي النيل، يوغندا) من جهة أخرى

البروفسور يوسف فضل حسن

« الحلقة الأولى »

العلاقة بين شعوب شبه جزيرة العرب والساحل الغربي للبحر الأحمر قديمة قدم التاريخ نفسه، بل أن علماء الجيولوجيا يؤكدون أن أفريقيا والشرق العربي كانتا رقعة واحدة حتى انفلقت قشرة الأرض ففصل البحر الأحمر بينهما (وقد عرف البحر الأحمر بأسماء متعددة كالبحر الفرعوني، والبحر الحبشي وبحر القلزم). وما يفصل بين اليمن والقرن الأفريقي لا يعدو أميالاً معدودات. ولم يكن البحر الأحمر رغم وعورة مسالكه يشكل مانعاً للهجرات البشرية أو الصلات التجارية. ومن ثم كانت التحركات البشرية عبر البحر الأحمر أو مضيق باب المندب أو عن طريق سيناء ميسورة للعرب والأفارقة على حد السواء. فمن الساحل الغربي غزا اليمن، ومن الجزيرة العربية كانت هجرات الشعوب الناطقة باللغات السامية كالأحباش والعرب تنساب عبر الحدود من وقت لآخر. وقد ثبت أن جزيرة العرب ذات الامكانات الغذائية والرعوية المحدودة كثيراً ما عانت من ازدياد في عدد سكانها مما دفعهم للهجرة في دورات متباعدة طلباً لمناخ معاشي أفضل.

(*) ألقيت هذه المحاضرة في الندوة التي نظمتها جامعة الدول العربية ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ إدارة الثقافة بعنوان «حول العلاقات بين الثقافة العربية والثقافة الافريقية، من ٢١ ــ ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٨١ ــ الخرطوم.

□ البروفسور يوسف فضل حسن: استاذ في جامعة الخرطوم ــ السودان.

لقد عبر بعض المهاجرين البحر الأحمر إلى الساحل الأفريقي، وكان نصيب بلاد الحبشة من هذه الهجرات كبيراً. وقد أخذت بلاد الحبشة اسمها من قبيلة «حبشت» الوافدة من جنوب الجزيرة العربية. وقد اقترنت اللغة الحبشية القديمة، وتعرف بالجعز، وهي لغة سامية، بتلك المنطقة أيضاً. وقد يسر ذلك كله سهولة الملاحة في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، ووجود الموانيء الطبيعية على ساحله الغربي، وكان ارتياد البحر واحداً من المناشط التي ألفها سكان جنوب الجزيرة. وكان جدب الجزيرة العربية وغلبة الصحارى عليها سبباً في جعلها منطقة طاردة، ومن ثم كثر النازحون منها إلى السواحل الأفريقية. وربما فسر هذا العامل الجغرافي لماذا كانت المؤثرات الوافدة من الجزيرة العربية على السواحل الأفريقية أكثر وضوحاً من المؤثرات الافريقية الوافدة على الجزيرة العربية. وكان يدعم هذه الصلات نشاط تجاري واسع يعتمد على تصدير المنتجات الأفريقية التقليدية، كالعاج والذهب والعطور، ويبدو أن من وفد إلى الجزيرة العربية في ذلك العهد من الأفارقة قد جاء عن طريق تجارة الرقيق.

وما أن استقر التجار العرب على الساحل الأفريقي، حتى توغلوا في الداخل بغية توسيع دائرة مناشطهم التجارية. ثم تبعتهم فيما يبدو هجرات عربية أخرى. ومما يؤكد ذلك وجود آثار سبئية في منطقة مصوع ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وبلغ بعض الوافدين الجزء الجنوبي من بلاد البجة، الناطقين باللغة الحامية، واختلطوا بالسكان الوطنيين حتى ذابوا فيهم، إلا أن لسانهم السامي ما زال غالباً على بعض لغات أرتريا خاصة بين التقرى (Tigrè).

وقد تعرضت مصر لبعض الهجرات العربية عن طريق صحراء سيناء من منطقة النفوذ أو الصحراء السورية، ومن إقليم الحجاز بعد القرن الأول الميلادي. وقد وصلت هجرة بعض القبائل العربية إلى الصحراء الشرقية والجزء الشمالي من بلاد البجة. ولكثرة تجوال العرب في الصحراء الشرقية سماها بعض الكتاب الأغاريق بصحراء العرب[1]. وذكر الرحالة اليوناني استرابو (٦٦ ق.م. ــ ٢٤م) أن الصحراء الشرقية تسكنها قبائل عربية وكان بعضها يعمل في نقل البضائع على ظهور الابل بين صعيد مصر وموانيء البحر الأحمر. وشهدت نفس المنطقة نشاطاً تجارياً مكثفاً على يد الأنباط. والأنباط

جماعة من العرب كانت تتخذ اللغة النبطية لساناً لها. وقد امتد هذا النشاط حتى صحراء عتباي، التي تسكنها قبائل البشاريين في يومنا هذا(٢)، والتي ازدهرت فيها ميناء عيذاب في العهد الفاطمي. وقد اكتشفت بعض الآثار النبطية في تلك المنطقة، كما عثر على آثار حميرية في منطقة حلايب(٣).

وتتحدث بعض الأساطير عن غزوات، عبر البحر الأحمر: فيروى أن ابرهة ذا المنار ملك حمير، غزا بلاد السودان في نحو سنة ٣٤ قبل الميلاد، وأن غزواته تلك قد بلغت بلاد المغرب. ويقال أن ابنه ابن افريقيش أو ابن افريقي قد غزا شمال افريقيا. ويذكر المقريزي أن ملوك دولة المقرة المسيحية، والتي كانت تحكم الجزء الشمالي من سودان وادي النيل من القرن السابع الميلادي، كانوا من أصل حميري. ومهما كانت درجة ترددنا في قبول صحة أنباء هذه الغزوات فإنها تعكس صدى هجرة حميرية مكثفة من جنوب الجزيرة العربية إلى أفريقيا على أقل تقدير(٤).

وتزعم الروايات المحلية في شرق السودان أن الحداربة، وهم خليط من البجة والعرب، قد وفدوا من حضرموت إلى بلاد البجة الواقعة شمال سواكن قبل ظهور الإسلام، وقد حرف اسم الحضارمة إلى الحداربة. وقد لعب الحداربة دوراً هاماً في تاريخ بلاد البجة مستفيدين من مقدراتهم الحضارية المتطورة في مجال التجارة والزراعة، واستطاعوا اعتماداً على إبلهم وخيلهم من بسط نفوذهم على بعض قبائل البجة. وقد أسهموا بدور رائد في المناشط التجارية في ميناء عيذاب، ثم سواكن. وفي القرون الأخيرة صارت كلمة حدربي (أي حضرمي) تطلق على التجار الذين يعملون بين النيل والبحر الأحمر(٥).

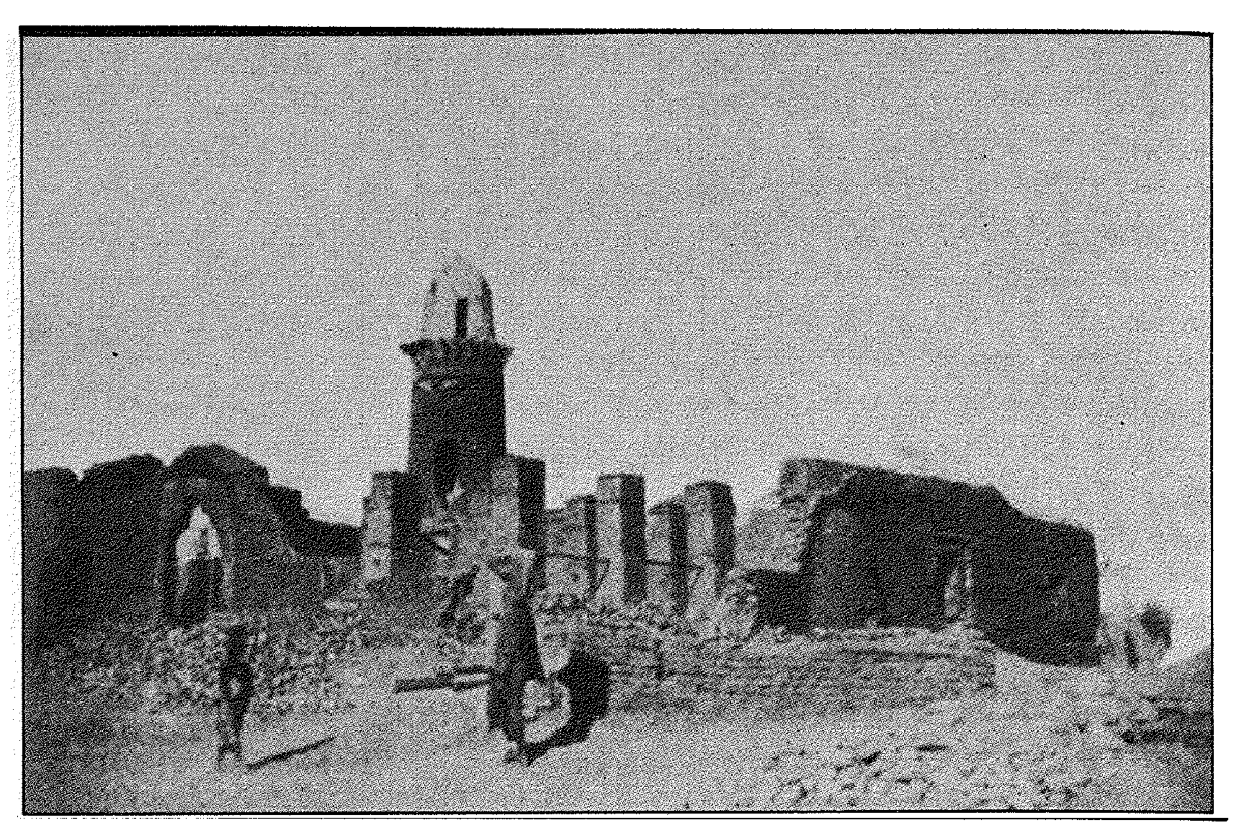
ويبدو أنه لتوغل قبيلة بليّ العربية في بلاد البجة الشمالية قبل ظهور الإسلام أن البجة صاروا ينادون كل عربي «بلويه» وعرفت اللغة العربية في لغتهم بـ «بلويت». والكلمتان مشتقتان من كلمة بليّ(٦).

ويتضح من هذه الإشارات المقتضبة أن بعض سكان الجزيرة العربية، خاصة في منطقتي اليمن وحضرموت، قد شقوا طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر الغربي قبل ظهور الإسلام، ونتيجة لرحلاتهم التجارية واستقرار بعضهم في الساحل الأفريقي خلقوا نواة للصلات بين جزيرة العرب وأفريقيا. وقد ازدادت هذه الصلة نمواً واتسعت دائرتها وقويت فعاليتها بعد ظهور الإسلام الذي أعطاها دعماً روحياً وسنداً سياسياً.

والصلة بين سكان الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر ربما كانت أقدم وأعرق مما نوهنا به. ولعل شدة التشابه العرقي واللغوي بين الشعوب الأفريقية الناطقة باللغات الحامية أو الكوشية والشعوب الناطقة باللغات السامية كالعرب والأحباش جعلت بعض الباحثين يرجحون أن هاتين المجموعتين قد عاشتا في موضع واحد ردحاً من الزمن وربما تنتميان في أصولهما القديمة إلى شعب واحد. ويزعم بعض الباحثين أن موطن «الساميين» الأصلي هو شرق أفريقيا وليس جزيرة العرب كما هو معروف. وتنتشر المجموعة الناطقة باللغة الحامية على السواحل الشرقية والشمالية لأفريقيا. وتتمثل في الصومال والقالا والعفار و «الأرتريين» والبجة والنوبيين وقدماء المصريين والبربر. وتشمل لغات هذه الشعوب قدراً طيباً من الكلمات العربية. وتؤكد هذه الصلات العرقية واللغوية، أنى كانت درجتها، بين سكان جزيرة العرب وسكان سواحل أفريقيا الشرقية أن تبادل التأثير الثقافي بين المجموعتين ذو جذور عميقة.

وأرجو ألا يفهم مما ذهبت إليه في الأسطر السالفة أن جزيرة العرب كانت خلواً من المؤثرات الأفريقية. فبالاضافة للغزو الحبشي لليمن، الذي سنتعرض له في شيء من التفصيل فيما بعد، كان المجتمع الجاهلي يزخر ببعض المجموعات الأفريقية التي استقرت بين العرب ولكنها انصهرت في بوتقة القبائل العربية عن طريق الولاء أو الانتماء الكامل، وتمثلت الثقافة العربية تمثلاً كاملاً ولم يعد هناك ما يدل على أصولها الأولى سوى سواد بشرتها. وربما لم يكن عددها من الكثرة حتى تحدث تغييراً جذرياً في المجتمعات التي استقرت بها.

وفوق هذا نلاحظ اهتمام الباحثين بدراسة آثار الثقافة العربية على القارة الأفريقية لم يقابله جهد مماثل يعنى بتقصي آثار المجموعات



□ خراب احد الجوامع في سنار ــ السودان، دليل على مدى انتشار الاسلام في افريقية.

الأفريقية التي اتخذت جزيرة العرب موطناً لها[٧].

وقبل أن نمضي قدماً لا بد من تعريف لما نعني بكلمتي أفريقي وعربي. فمن المؤكد أن كلمة أفريقيا لم تطلق للدلالة على القارة السوداء كلها إلا في العصر الحديث وكانت وقفاً على افريقية (أي تونس) إبان الاحتلال الروماني. ولعل أكثر الكلمات استعمالاً للدلالة على من وفد من الساحل الشرقي لأفريقيا، سواء كان ذلك عن طريق الرق أو الهجرة الاختيارية هي الحبش، والزنج، والنوبة، والبجة، والسودان. والسودان تطلق على كل السود: وقد ذكر الجاحظ أن السودان يشملون الزنج والحبشة وفزان والبربر والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والصين وغيرها[٨]. وقد استعمل الجغرافيون العرب هذا اللفظ للدلالة على الشعوب السود التي تسكن بلاد السودان، وهي المنطقة شبه الصحراوية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وشمال الغابات الاستوائية وتمتد بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي. وهي كلمة ذات مدلول جغرافي، ولم يحاول هذا التعريف أن يفصل في أصول من يسكن بلاد السودان من شعوب، إلا أن هذا التعريف يشمل الزغاوة والفور، والتكرور والفلاتة وغيرهم من شعوب غرب أفريقيا، ويضم هذا التعريف أحياناً النوبيون والبجة والأحباش. وفي آخر الأمر صار هذا التعبير أكثر دلالة على سكان أواسط بلاد السودان وغربها. كما أطلق على سكان سودان وادي النيل منذ القرن التاسع عشر[٩].

وكان الأحباش أكثر من وفد إلى جزيرة العرب قبل الإسلام، لقرب موطنهم منها، وهو استقرار ينبع من كثرة تردد ذكرهم في ما بلغنا من أخبار عن العصر الجاهلي. ويشمل الأحباش معظم سكان القرن الأفريقي (الصومال) وبلاد الحبشة وأرتريا وبلاد البجة. وربما كان السبب في جمعهم في إطار هذا التعبير وجلهم من الشعوب الناطقة باللغة الحامية ما يربط بين هذه الشعوب من تشابه عرقي ولغوي. وإلى الجنوب من الحبش يوجد الزنج، الذين ينتمون إلى شعوب البانتو. وقد عرفهم العرب وسموا البحر الواقع

جنوب عدن ببحر الزنج[10]. ونجد في بعض الإشارات ما يدل على أن العرب قد فرقوا بين الزنج والحبشة والنوبة كقول ذي الرمة:

قفرا كأن أراعيل النعام به
قبائل الزنج والحبشان والنوب[11]

ويفهم من قول الجاحظ[12]: «ومن فخر السودان والزنج والحبش» أن هناك ثمّ فرقا بين هذه المجموعات.

أما العربي فهو ساكن الجزيرة العربية، كان هذا العربي من العرب العاربة أو العرب المستعربة. وكانت السمتان العرقية واللغوية من أهم مميزات هذا العربي قبل ظهور الإسلام. وبالرغم من أن شبه الجزيرة العربية كانت منطقة طاردة «فإن بعضاً ممن وفدوا إليها اختلطوا بالعرب اختلاطاً تاماً واكتسبوا صفة «العروبة» بالمولد، أو بتمثل الثقافة العربية». وهذا المفهوم الذي لا ينهض على أسس عرقية، بل يعتمد على أسس ثقافية، هو الذي وسع معنى العروبة. وقد تأكد هذا المفهوم الجديد بعد ظهور الإسلام وخروج العرب من حدود بلادهم التقليدية، واختلاطهم بالشعوب التي خضعت للنفوذ الإسلامي، فاستعربت تلك الشعوب وتمثلت الثقافة العربية والإسلامية. فهؤلاء المستعربون الجدد لم يكونوا عرباً بالمفهوم العرقي البحت، إنما هم عرب بالمولد وعرب بالثقافة وعرب باللغة وعرب بالانتماء الوجداني ويستوي في ذلك من استعرب من النبط، والفينيقيين، وقدماء المصريين، والبربر، والنوبيين.

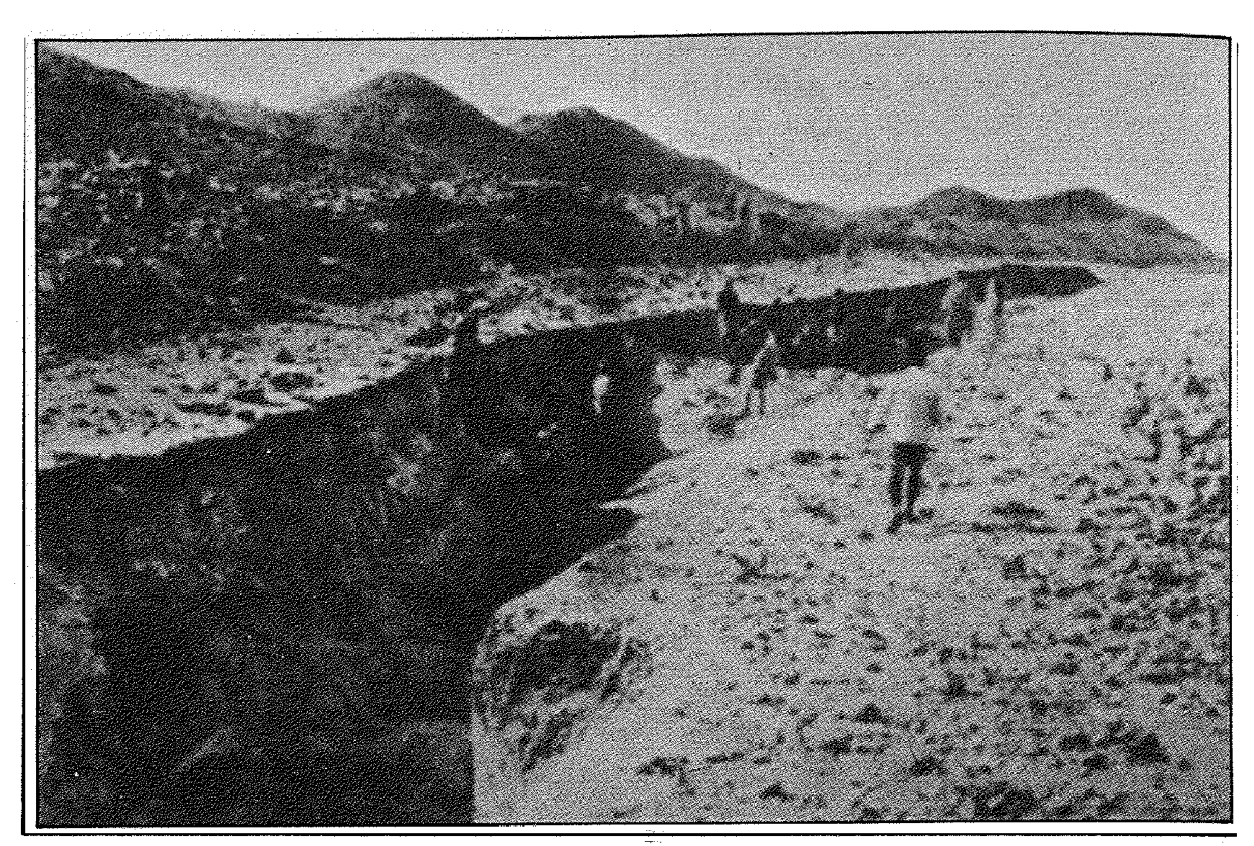
ولعل الفارق بين هذه المجموعات التي استعربت في المواطن التي غلب عليها الإسلام وانتشرت فيها الثقافة العربية وبين مجموعة الأفارقة الذين اختلطوا بالعرب قبل الإسلام (وبعده) اختلاطاً تاماً، هو اللون، الذي ظل يمثل الشاهد الأساسي على أفريقيتهم كما هو الحال عند السودانيين المستعربين في سودان وادي النيل وأمثالهم. وكان عامل اللون يقف حائلاً ولو إلى حين، دون اندماج الفرد في مجتمعه الجديد كما حدث في تجربة عنترة الشاعر العربي الأسود[13].

والمهم في الأمر أن المفهوم الثقافي للعروبة يتفق مع نظرة الإسلام الذي ساوى بين الجميع. وخير ما يؤكد هذا ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه ابن عساكر بسنده إلى مالك بن أنس عن الزهري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال:

«جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي[14] فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) فما بال هؤلاء؟ فقام إليه معاذ فأخذ بتلابيبه حتى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته. فقام مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي الصلاة جامعة. فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب أب واحد وإن الدين دين واحد ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي. فقال معاذ وهو آخذ بتلابيبه: ما تقول في هذا المنافق فقال: دعه إلى النار. قال: فكان ممن ارتد فضل في الردة»[15].

التبادل الثقافي قبل ظهور الإسلام:

هيأ موقع بلاد اليمن الاستراتيجي على مدخل البحر الأحمر الجنوبي، وما تتمتع به من منتوجات زراعية قيمة كالعطور أن توسع دائرة مناشطها التجارية حتى شملت شرق أفريقيا والهند ومصر والشام، وتم لبلاد اليمن في عهد دولة سبأ (٧٥٠ق.م. ــ ١١٥ق.م.) أن تبسط نفوذها على جنوب البحر الأحمر والساحل الأفريقي المواجه لها، وتحقق لها احتكار تجارة التوابل والعطور التي عرفت باسم التجارة الشرقية. وفي عهد دولة حمير (١١٥ق.م. ــ ٣٠٠م) ظلت اليمن تمثل محوراً هاماً في التجارة الشرقية. وحاول البطالمة الذين حكموا مصر، والرومان من بعدهم، أن يبسطوا نفوذهم على البحر الأحمر حتى ينالوا نصيبهم من تلك التجارة. ومع أن الرومان قد نجحوا نسبياً في فك الاحتكار اليمني للتجارة الشرقية إلا أنهم سعوا أيضاً للتحالف مع دولة اكسوم الحبشية، والتي انتشرت المسيحية بين سكانها، لتحقيق مأربهم. وتوطدت العلائق بين مملكة الحبشة المسيحية والدولة البيزنطية وصارت أكسوم تنوب عن



□ الحفريات الأولى لسكة حديد بربر ــ سواكين في السودان.

الدولة بيزنطة في نقل تجارتها وتدافع عن سياستها في تلك المنطقة.

ولم يقف الصراع حول اليمن على احتكار التجارة الشرقية، بل أخذ بعداً عقائدياً: فبعد أن انتشرت المسيحية واليهودية بين اليمنيين، دخل اتباعهما في صراع ديني استغلته امبراطوريتا الفرس والرومان لمصالحهما خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين. ولما اعتنق ذو نواس، آخر ملوك حمير، الديانة اليهودية وحاول القضاء على المسيحية في نجران، استنجد المسيحيون بالامبراطور جستنيان الثاني، حامي الكنيسة. فأشارت بيزنطة على حليفها نجاشي الحبشة بغزو بلاد اليمن، ففعل ذلك في عام ٥٢٥ ميلادية. ولم تكن دوافع هذا الغزو دينية بحتة، بل كانت تخفي وراءها مطامع بيزنطة لبسط نفوذها على القبائل العربية حتى تحارب بهم النفوذ الفارسي المتزايد في الشرق الأوسط. وظل الأحباش يحكمون اليمن قرابة الخمسين سنة. وفي ذلك الوقت شيد أبرهة، القائد الحبشي، كنيسة في صنعاء ليصرف حجاج العرب من الكعبة ويحول تجارة قريش إلى اليمن. وفي هذا الإطار يمكننا تفسير بعض دوافع أبرهة لغزو الكعبة سنة ٥٧٠[١٦]. كان أبرهة قد سار في جيش كبير نحو مكة ولكنه باء بالفشل. وفي ذلك العام، عام الفيل، ولد رسول الإسلام محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام. وبظهور الإسلام انتقل مركز الثقل السياسي إلى الحجاز ثم الشام[١٧]

وكان الحبش الذين وفدوا إلى جزيرة العرب، احراراً وأرقاء، وكذلك العرب الذين ذهبوا للحبشة للمتاجرة أو المهاجرة قد أسهموا في حمل كثير من سمات الثقافة الحبشية إلى بلاد العرب. وقد انتشرت هذه الآثار في بلاد اليمن أولاً وفي الحجاز بصورة أقل ثانياً، ومنها عمت باقي بلاد العرب. ونتيجة للغزو الحبشي لبلاد اليمن وجدت الديانة المسيحية دعماً من الأحباش خاصة في منطقة نجران. وفي صنعاء شيد أبرهة كنيسة عظيمة اتسمت بالفخامة وروعة البناء، وعن طريقها سعى الأحباش لتنصير حمير.

ونتيجة هذه الاتصالات أيضاً وجدت بعض

الألفاظ والاصطلاحات الحبشية طريقها للغة العربية. ومع أن معظم هذه الألفاظ ذات جذور سامية إلا أن علماء اللغات يؤكدون أنها قد دخلت العربية عن طريق اللغة الحبشية. ومن هذه الألفاظ ما يعود إلى مسائل دينية كالحواريين ومنافق، ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان، ومنها ما يدل على الأبنية والطرق، مثل الخوخة (الفتحة في الحائط أو النافذة الصغيرة) والصرح (أي القصر) والسكة، ومنها ما يدل على الزينة والملابس كالجلباب والوقف، والزريبة والحنبل والدملج، ومنها ما يدل على التوقيت كالتاريخ والساعة والزمن ومنها ما يدل على الأواني كالشواحين والصواع، وما يدل على الحيوان مثل الحريش والزرافة والبغل والهرماس، ومنها المائدة والمشكاة. ويرجح الدكتور عبدالمجيد عابدين أن صيغة أفعول الدالة على الجمع في اللغة العربية دخلت من الحبشية (مباشرة أو عن طريق اليمن). ومن أمثلة هذا الجمع أخدود (جمع خد، أي الشق في الأرض) وأمعور (بمعنى القطيع من الظباء) وأحبوش (أي جيل من الحبش) وأركوب (وهم الجماعة من الركاب)[١٨].

وكان أثر الحبش وغيرهم من الشعوب السوداء كبيراً في صناعة الغناء في جزيرة العرب، وهذه نقطة سنوفيها حقها في ما بعد[١٩].

ولم يكن اتخاذ «العبيد» وقفاً على العرب، بل سائداً عند سائر أمم العالم القديم، كماكان منتشراً بين الأفارقة أنفسهم. وكان معظم الرقيق الموجود في بلاد العرب من الشعوب السوداء، كانت قلتهم من البيض، كما أن من أسر من العرب كان يعامل معاملة الرقيق. واعتاد العرب أن يحصلوا على رقيقهم، في معظم الأحيان بالشراء. وكانت أسواق النخاسة معروفة في الحبشة منذ عهد بعيد، ويجلب الرقيق الحبشي من ميناء عدول ومنها يحمل على السفن إلى بلاد العرب وغيرها. وكان للرقيق الحبشي وللجواري منهم بخاصة سوق رائجة، وكانت لهن حظوة عند سادتهن من العرب. ومن عادة العرب إذا ولد للرجل منهم ولداً من أمة استعبدوه، فإذا أنجب (أي صار نجيباً) اعترفوا به وألحقوه بنسبهم[٢٠]. وكان العبيد يكونون طبقة مستضعفة في الجاهلية فلما جاء الإسلام رفع من شأنهم وساوى بينهم وبين سائر الناس، وجعل معيار التمييز هو تقوى الله، قال الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

وبهذه الروح السمحة سعى الإسلام لتخفيف غلواء الرق، وشجع على عتق الرقيق وجعله من المكارم. كما أمر بالرفق في معاملة الموالي وجاء الأثر الشريف «شر الناس من باع الناس».

وتورد كتب الأدب العربي شذرات عن من نبغ في قول الشعر من الأفارقة الذين استقروا في جزيرة العرب، أو من لم ينصهروا في خضم الحياة القبلية أو من سادوا في قومهم. وعرف هؤلاء النفر «بأغربة العرب» وسموا كذلك لسواد بشرتهم. ومنهم من اشتهر بقول الشعر كعنترة بن شداد، وخفاف بن ندبة والسليك بن السلكة. وكانوا جميعاً من أصل حبشي أو تجري في عروقهم دماء حبشية، واشتهروا بالشجاعة والصبر في القتال.

وتعطي حياة الشاعر عنترة مثلاً طيباً للمعاناة التي يجدها الموالي قبل أن ينصهروا في المجتمع العربي ويصيروا جزءاً منه. عاش عنترة في القرن السادس الميلادي، ولكنه لم يشهد ظهور الإسلام. وولد عنترة من أب عربي، هو شداد بن قرادة من قبيلة عبس، وأمه زبيبة، وهي جارية حبشية[٢١] سوداء جلبت من أفريقيا. وقد وصفها عنترة بقوله:

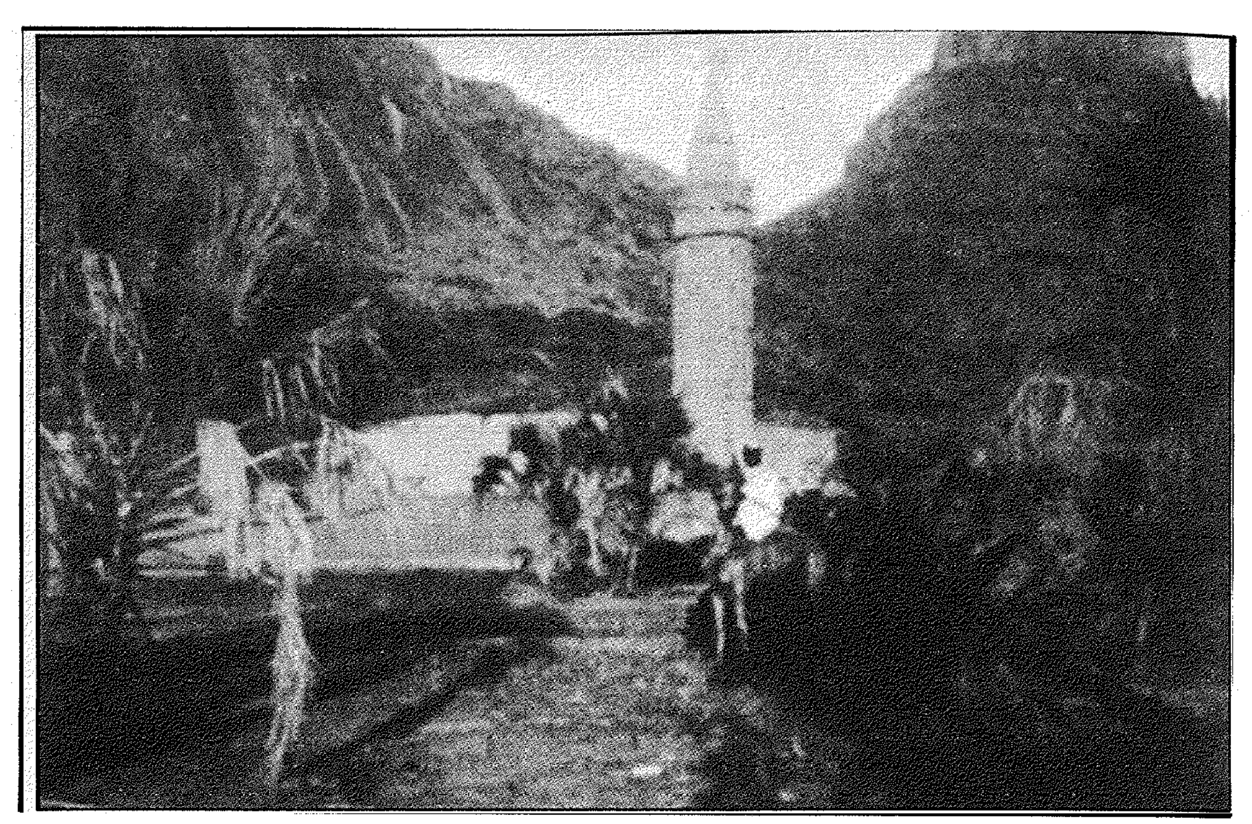
وأنا ابن سوداء الجبين كأنها
ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة
والشعر منها مثل حب الفلفل

ولا يذكر عنترة أصل أمه في شعره صراحة بل يكتفي بنسبها إلى جد السود حام بن نوح، عندما يقول:

يقدمه فتى من خير عبس
أبوه، وأمه من آل حام

ويقول:

منهم أبي شداد أكرم والد
والأم من حام فهم أخوالي



□ مزار ضريح الشيخ مورغاني في كسالة السودان، دليل على مدى انتشار الاسلام في تلك البلاد.

وقضى عنترة شبابه في الرق، يرعى إبل سيده. وكان يعاني من عقدة اللون إذ كثيراً ما عيره قومه بسواد لونه وسواد أمه وإخوته. ووجد عنترة في سواد لونه متنفساً للفخر على شائنيه:

يعيبون لوني بالسواد جهالة
ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

أو

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب
يوم الفخار إذا ما فاتني النسب

وكان عنترة يرى نفسه بما حباه الله من الشجاعة والإقدام وما وهبه من البلاغة والتغني بمآثر القبيلة، أهلاً لأن يسود قومه. ولم يطل عهد عنترة في الرق إذ ألحقه أبوه بنسبه، ووهبه حريته مكافأة له على حسن بلائه في درء غارات ألمّت بعبس.

وترنم عنترة بتجاربه هذه في شعر رصين رفعه إلى مصاف كبار شعراء الجاهلية، وكان واحداً من أصحاب المعلقات السبع الذين علقت قصائدهم على أستار الكعبة الشريفة. وتبدأ معلقته:

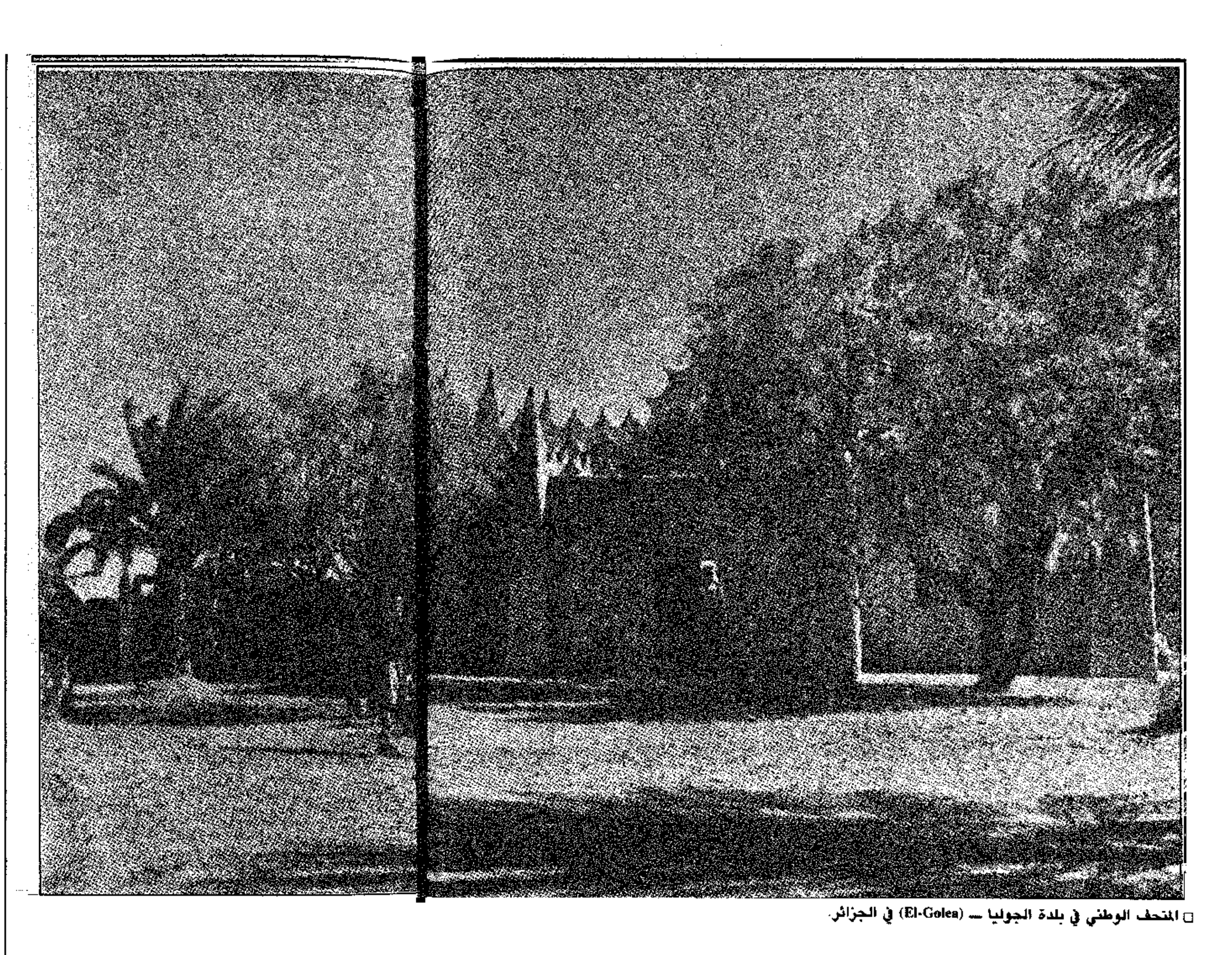
هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

وكان شعر عنترة يدور في محورين رئيسيين هما الحرب والحب. وعن الحب والفروسية خلف عنترة أصدق وصف وأسمى عاطفة. ولا غرو أن ضربت بشجاعته الأمثال. وكان لحبه عبلة ابنة عمه صورة حية لسمو العاطفة، والتفرد في الحب وما من قصيدة في شعره، فيما يروى، إلا وفيها ذكر لعبلة. وكان حب عبلة يسيطر عليه في سلمه وحربه. وقد قال عنها في معلقته(٢٢):

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وكان من أجود شعره قصيدته التي يقول فيها:

لا يحمد الحقد من تعلو به الرتب
ولا ينال العلى من طبعه الغضب
لله در بني عبس لقد نسلوا
من الأكارم ما قد تنسل العرب



□ المتحف الوطني في بلدة الجوليا — (El-Golea) في الجزائر.

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم
والیوم احمي حماهم كلما نكبوا
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب
يوم النزال إذا ما فاتني النسب

إلى أن يقول:

لي النفوس وللطير اللحوم
وللوحوش العظام وللخيالة السلب

وتعكس هذه القصيدة تلاؤم عنترة مع مجتمعه العربي وكيف نجح في أن يروض نفسه في بيئته القبلية ويصير من حماتها. وصار يعرف بعنترة بن شداد العبسي لا بابن زبيبة:

اما رصفاؤه من كبار الشعراء كالسليك بن السلكة وتأبط شراً والشنفري، فكانوا يعيشون خارج نطاق القبيلة ولم يتحدثوا عن سواد بشرتهم وعرفوا بشعراء الصعاليك.

أما خفاف بن ندبة فكان من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، وامه ندبة حبشية سوداء وكان خفاف شديد الأدمة. وكان ممن أسلموا وشهدوا فتح مكة، وكان يحمل لواء بني سليم بن منصور. وكان السواد غالباً على بني سليم هؤلاء. وقيل ان ذلك من تأثير الحرة ــ وهي الأرض ذات الحجارة البركانية السوداء[٢٣]. ولكن الواقع يؤكد أن كثيراً من أمهات بني سليم من الحبش والسود. وحقيقة الأمر ان السواد يغلب على كثير من العرب، وهو غير السمرة العادية. وقد عبر عنه العرب بالأدمة أو الخضرة. وكانوا يقولون «فلان اخضر القفا» يعنون انه ابن أمة سوداء[٢٤]. ومما يدل على كثرة التزاوج بين العرب والسود ما ذكره الجاحظ أن الزنج قالت للعرب: من جهلكم انكم رأيتمونا أكفاء في الجاهلية في نسائكم، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسداً، و (ما) بنا الرغبة عنكم. مع أن البادية منا ملأى، ممن تزوج ورأس وساد ومنع الذمار وكنفكم من العدو[٢٥].

ومن المجموعات التي اشتهرت بالسواد خضر حارب، وخضر غسان بنو جفنة، الملوك، وخضر بني عكيم وخضر بني مخزوم ــ وهم بنو المغيرة آل الشاعر عمر بن أبي ربيعة زعيم مدرسة الشعر الغنائي الخفيف التي ازدهرت في العصر الأموي. ومعظم مجموعات الخضر هؤلاء كانت تسكن الحجاز[٢٦].

ولاحظ العرب منذ فترة طويلة أن السود يميلون إلى الغناء والرقص. ووصف الجاحظ الزنج بأنهم «أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون والضرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم».

ولعل حب السود الفطري للغناء والرقص كان واحداً من معالم الثقافة الأفريقية القليلة التي ظلت آثارها باقية في إقليمي الحجاز واليمن «رغم ذوبان حامليها في خضم الحياة العربية».

ويروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في العهد الأموي سأل أزادان فروخ عن العرب والأمصار فحدثه عن البصرة والكوفة والشام وسأله الحجاج عن الحجاز قال: «نزلوا بحضرة السودان فأخذوا من حمقة عقولهم



□ عرب من كردفان ورئيسهم.

وطربهم[٢٧]. والرواية هذه كغيرها من الأخبار التي تصدر حكماً على الشعوب والأقاليم غير مقبولة، إلا أن دلالتها على أثر سكان الساحل الغربي للبحر الأحمر على سكان شرقيه فيها شيء من الحقيقة. وقد بينا في شيء من التفصيل مدى انتشار الأثر الأفريقي في كل من اليمن والحجاز منذ أمد بعيد. وقد لاحظ الأقدمون استجابة أهل الحجاز الطبيعية لدواعي الطرب. «وقال أبو نافع الأسود وكان آخر من بقي من غلمان بن سريج (المغني الشهير) إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك ترقصه»[٢٨].

ويقرر الدكتور عون الشريف قاسم: «إن العلاقة بين هذا المزاج وبين وجود السود بأعداد كبيرة في الحجاز أمر يسهل التدليل عليه»[٢٩].

وقد ارتبط الغناء والرقص عند العرب بالسود حتى قال الجاحظ «إن من تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء»[٣٠].

وكان معظم المغنيين والقيان في الحجاز قبل ظهور الاسلام من العبيد وكان جلهم من الحبش والسودان. وفي العصر الجاهلي وصدر الاسلام كان بعض الحبش يقومون بالرقص واللعب بالحراب في الأعياد والاحتفالات وعنهم أخذ المسلمون بعض أنواع الرقص وهو الحجل.

ومن الواضح أن العرب الصحراء كانوا يأنفون من الاشتغال بصناعة الغناء وكانوا يرون أن مهنة الرقص لا تليق بهم، (وما زال الحال هكذا عند كثير من الأمم العربية والاسلامية). وكان الحبشي إذا صلحت حاله وعلا شأنه يأنف مثل هذه الصنعة[٣١]. وكان معظم من تصدوا

للغناء في الحجاز من السود ومن أشهرهم ابن مسجع وكان ،عبدا خلاسيا.

ويرى الدكتور عون الشريف قاسم أنه تحت تأثير حركة الغناء وما تبعها من رقص ومجون، «نشأت مدرسة الحجاز الشعرية التي تفردت بموسيقى لتلائم الغناء وزخرت بألوان من الغزل الحسي والمجون»[٣٢] وربما أثرت هذه الحركة على مدرسة الغزل العذري. فلما جاء الاسلام وعظم شأن السود، اتسعت دائرة مشاركتهم في الأدب واللغة والحديث والفقه والعمل العام. وكان بلال الحبشي الصحابي الجليل، أول مؤذن في الاسلام ومنهم عطاء بن أبي رباح فقيه مكة ومحدثها. وقد بلغ بعضهم شأواً بعيداً في تمثل ثقافة العرب ولغتهم كأبي نعامة مولى بن سعد والحيقطان، وكان شاعراً فحلاً وخطيباً لا يبارى، وعكيم الحبشي وكان أفصح من العجاج، وكان علماء الشام يأخذون عنه. ومن أبناء الزنجيات عرار بن شاس القائد الشهير ومنهم سعيد بن جبير أعظم أصحاب عبدالله بن عباس في الحديث. ومن علماء الطبقة الخامسة، مسلم بن خالد الزنجي الذي أخذ عنه الامام الشافعي، ومنهم يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد، وكان أبوه من سبي النوبة، وقد تقلد يزيد منصب الافتاء في مصر وعنه أخذ العالم الجليل الليث بن سعد[٣٣].

التبادل الثقافي بعد ظهور الاسلام

كان لظهور الاسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة على جزيرة العرب. فقد أمدت العقيدة الاسلامية العرب بسياج ديني وفكري ساعدهم على خلق وحدة داخلية. وتحت راية الاسلام خرج العرب صوب الشرق والغرب والشمال. وكانت الطرق التي تبعها العرب إلى القارة الافريقية هي نفس الطرق التي سلكها أجدادهم من قبل.

وكان ظهور الاسلام، كدين عالمي وثورة فكرية كبرى استهلالاً لصفحة جديدة في تاريخ العلائق الثقافية بين العرب وجيرانهم الأفارقة. وفي هذا الاطار قام العرب المسلمون بالدور الايجابي في نشر العقيدة الاسلامية وبسط نفوذها السياسي والثقافي في المرحلة الأولى ومنذ البدء صار الاسلام الركيزة الأولى للثقافة العربية كما وأن اللغة العربية لغة القرآن الكريم صارت مفتاح الثقافة الاسلامية. وقد مهد انتشاره انتشار كثير من مظاهر الثقافة العربية، كاللغة وظاهرة تمثل النسب العربي.

ومع أن العرب لم يعرفوا بأنهم دعاة تبشير «ملتزمون»، فإن نشرهم للثقافة العربية كان يلازمه عادة نشر للاسلام. وكان للتجار العرب والبدو دور رائد في بذر نواة التعاليم الاسلامية في المجتمعات الافريقية، وما أن رسخت أسس العقيدة الاسلامية وكتب لها النصر على المعتقدات الوثنية والمسيحية السائدة في تلك المجتمعات، حتى أخذ مواطنون افريقيون بزمام المبادرة، في مناخ يغلب عليه السلم.

وكانت مصر أولى الأقطار الافريقية تأثراً بالعقيدة الاسلامية، وفي زمن وجيز تأصلت جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية. حتى صارت مصر جزءاً لا يتجزأ من كيان الأمة العربية الاسلامية. بل تبوأت الزعامة الثقافية على العالم العربي الاسلامي في كثير من الأحيان. ومنها تسربت كثير من المؤثرات الثقافية مثل ما خرجت من جزيرة العرب ذاتها للبلاد المجاورة. وجعلها موقعها الجغرافي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالكيان الافريقي تؤثر فيه وتتأثر به حضارياً واقتصادياً. وكان دور مصر في دعم التبادل الثقافي بين الاقليمين قيد البحث عظيماً●

الهوامش

(١) Yusuf Fadl Hasan, *The Arabs and the Sudan*, Edenburgh, 1967, 12-13.

(٢) Strabo, *The Geo graphy of Strabo*, translated by H.J. Jones, London 1959, VII, 71, 85, 135.

(٣) E. Littmann «Nabatalan inscriptions from Egypt» *Bulletin of School Oriental and African Studies*, XV (1953, 3-18, and volume XIV (1954, 215-32); Also F. Grew «Notes on some inscriptions on the Etabi District of the Red Sea», *Proceedings of the Society of Biblical Archaeology*, London 1909, 319-323.

(٤) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت، ١٩٥٦، ١/٩٤ ــ ٩٥، المقريزي، أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. تحقيق قاشتون فييت، القاهرة ١٩٢٢، ٣، ٢٥٨.

(٥) Yusuf Fadl Hasan, *The Arabs and the Sudan*, 10-11, 14.

(٦) *Ibid.*, 14-15.

(٧) من القدماء الذين اهتموا بهذا الموضوع أبو عثمان عمرو بن الجاحظ في رسالته: كتاب فخر السودان على البيضان، رسائل الجاحظ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٤، ١٧٥ ــ ٢٢٦، والذي ضمنه كثيراً من الأخبار عن حياة السود في الجزيرة العربية، وكذلك ما أورده الطبيب المسيحي، المختاربن الحسن بن بطلان في رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، القاهرة ١٩٥٤، عن خصائص الرقيق المتداول في المجتمعات الإسلامية ومزايا كل جنس، كما نجد بعض الإشارات في كثير من كتب الأدب مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. ومن المهتمين من المحدثين بهذا الموضوع الدكتور عون الشريف قاسم، في مقاله: السودان في حياة العرب وأدبهم، مجلة الدراسات السودانية، العدد ١، ١٩٦٨، و ٧٦ ــ ٩٢، عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، (د.ت.).

(٨) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، ٢١٧. ويوضح هذا التعريف أن كلمة السودان تعبير فضفاض شمل السود، وربما الشعوب الملونة إذا جاز التعبير.

(٩) يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**، الخرطوم، ١٩٧٥.

(١٠) الجاحظ، أبو عثمان عمر، الحيوان، القاهرة، ١٩٠٥، ٤/٣٦.

(١١) ديوان ذي الرمة، كمبردج، ص ٢٦، نقلاً عن عون الشريف قاسم، نفس المصدر، مجلة الدراسات السودانية، ١، ٧٧.

(١٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ١٠٩.

(١٣) يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**، ج ١، ١٩.

(١٤) هم ثلاثة من الموالي كانوا من أول من اعتنق الدين الإسلامي.

(١٥) ابن عساكر، **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، لعبدالقادر أحمد الرومي الدمشقي الحنبلي، دمشق ١٣٤٩، ج ٦ ص ٤٥٠.

(١٦) اختلف الباحثون في تحديد تاريخ هذه الغزوة، ويعتقد العرب أنها حدثت في سنة ٥٧٠ ويسمونه عام الفيل، إشارة إلى الفيلة التي كانت قد اشتركت في تلك الغزوة، ويرى بعضهم أن عام الفيل كان قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة، أو قبل ثلاثة وعشرين عاماً. عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، ٦٥ ــ ٦٧.

(١٧) Hitti, Phillip, *History of the Arabs*, London, 1958, 52;

يوسف فضل حسن، «الصراع حول البحر الأحمر منذ فجر التاريخ حتى القرن الثامن عشر»، جريدة الشرق الأوسط، فبراير ١٩٨١م.

(١٨) عبدالمجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، ٩٨ ــ ١٠٥.

(١٩) ويذكر الدكتور عبدالمجيد عابدين «أن الزار» وهو رقص تصاحبه طقوس شبه دينية بقصد العلاج النفسي قد وفد من الحبشة إلى جزيرة العرب في وقت متأخر. والزار معناه في الأمهرية الروح الشريرة. انظر المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢٠) للتوسع في هذه النقطة، راجع: R. Brunshvig, «Abd» Encyclopedia of Islam, I, 24-26.

(٢١) يرى الأستاذ ضرار صالح ضرار أنه ابن أمة «سودانية»، وعلى هذا الرأي تقوم فكرة كتابه، هل كان عنترة سودانياً، الخرطوم، ١٩٧٦، ص ٦.

(٢٢) ضرار صالح ضرار، نفس المصدر، ٢٤.

(٢٣) عبدالمجيد عابدين، نفس المصدر، ١٣٠، الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، ٢١٩.

(٢٤) الجاحظ، الحيوان، ٢/٧٦؛ عون الشريف قاسم، نفس المصدر، مجلة الدراسات السودانية ١، ٨٣.

(٢٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، ١٩٧.

(٢٦) عون الشريف قاسم، نفس المصدر، مجلة الدراسات السودانية، ١، ٨٤.

ويقول الجاحظ: (رسائل الجاحظ، ج ١، ٢٠٩) «وكان ولد عبدالمطلب العشرة السادة دلما (أي شديدو السواد) ضخماً... وكان عبدالله بن عباس ادلم ضخماً. وآل أبي طالب أشرف الخلق وهم سود وأدم ودلم».

(٢٧) ابن الفقيه، كتاب البلدان، الطبقة الأروبة، ص ١١٤، نقلاً عن عون الشريف قاسم، مجلة الدراسات السودانية ١، ٨٢.

(٢٨) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، القاهرة، دار الكتب، ١٩٦٣، ١/٢٨٤.

(٢٩) عون الشريف قاسم، نفس المصدر، مجلة الدراسات السودانية، ١، ٨٦.

(٣٠) الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، ١٩٦٠، ج ١، ٩٣.

(٣١) عبدالمجيد عابدين، نفس المصدر، ١١٨ ــ ١١٩، ويبدو لي أن في الغناء في كثير من دول جزيرة العرب المعاصرة، ينطبق عليه ما كان شائعاً عن ظهور الإسلام فما زال هذا الفن كما توضح أجهزة الإعلام، في يد جماعة من الخلاسيين.

(٣٢) عون الشريف، نفس المصدر، ٨٨.

(٣٣) المصدر السابق، ٨٩ ــ ٩٢.

عند ملك الصين (*)

اوغل قتيب[1] بن مسلم حتى قرب من الصين، فكتب إليه ملك الصين، أن ابعث الينا رجلا من اشرف من معكم يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم.

فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلا، لهم جمال وأجسام والسن وشعور وبأس، فكلمهم قتيبة وفاطنهم[2]، فرأى عقولا وجمالا؛ فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الوشي والرقيق والنعال والعطر، وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها.

وكان هبيرة[3] بن المشمرج الكلابي مفوها، فقال له: يا هبيرة؛ ماذا أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير! قل ما شئت اقله وآخذ به؛ قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت الا انصرف حتى أطأ بلادهم واجبي خراجهم.

فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج، فلما قدموا أرسل اليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية[4]، ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه، وعنده عظماء أهل مملكته، فلم يكلمهم هو ولا أحد ن جلسائه، فنهضوا.

فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوما ما هم إلا نساء، ما بقي منا أحد حين رآهم إلا وجد رائحتهم.

فلما كان الغد أرسل اليهم، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف[5]، وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة اشبه بهيئة الرجال.

فلما كان اليوم الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم، ولبسوا البيض والمغافر[6]، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وتنكبوا[7] القسي، وركبوا خيولهم وغدوا! فنظر اليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم اقبلوا مشمرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لما دخل قلوبهم من خوفهم.

فانصرفوا فركبوا خيولهم وحملوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما راينا مثل هؤلاء قط!

فلما أرسل اليهم الملك أن ابعثوا الي زعيمكم وأفضلكم، بعثوا اليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي، وانه ليس أحد يمكنكم مني وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن امر فإن لم تصدقني قتلتكم. قال: سل، قال: لم صنعتم ما صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال: أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا امراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا. قال: ما احسن ما دبرتم دهركم! فانصرفوا الى صاحبكم، فقولوا له ينصرف؛ فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه.

قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه.

قال: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال: انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويعطى الجزية. قال: فإنا نخرجه من يمينه ونبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث اليه بجزية يرضاها؛ ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب، ثم جزاهم فأحسن جوائزهم؛ فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية ووطىء التراب.

(*) تاريخ الطبري: ٨ — ١٠٠.

(١) امير فاتح من رجال العرب، اتصل بالوليد بن عبد الملك فولاه خراسان، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٩٦ هـ.

(٢) فاطنه في الكلام: راجعه.

(٣) كان مع قتيبة حين غزا الصين وتوفي بفارس سنة ٩٦هـ.

(٤) الغالية: الطيب.

(٥) المطرف: رداء من خز مربع ذو اعلام، وجمعه مطارف.

(٦) البيضة: الخوذة، وجمعه بيض، والمغافر: جمع مغفر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٧) تنكب قوسه: ألقاه على منكبه.

دورُ المرأةِ في المُجتمعِ الفاطِميّ

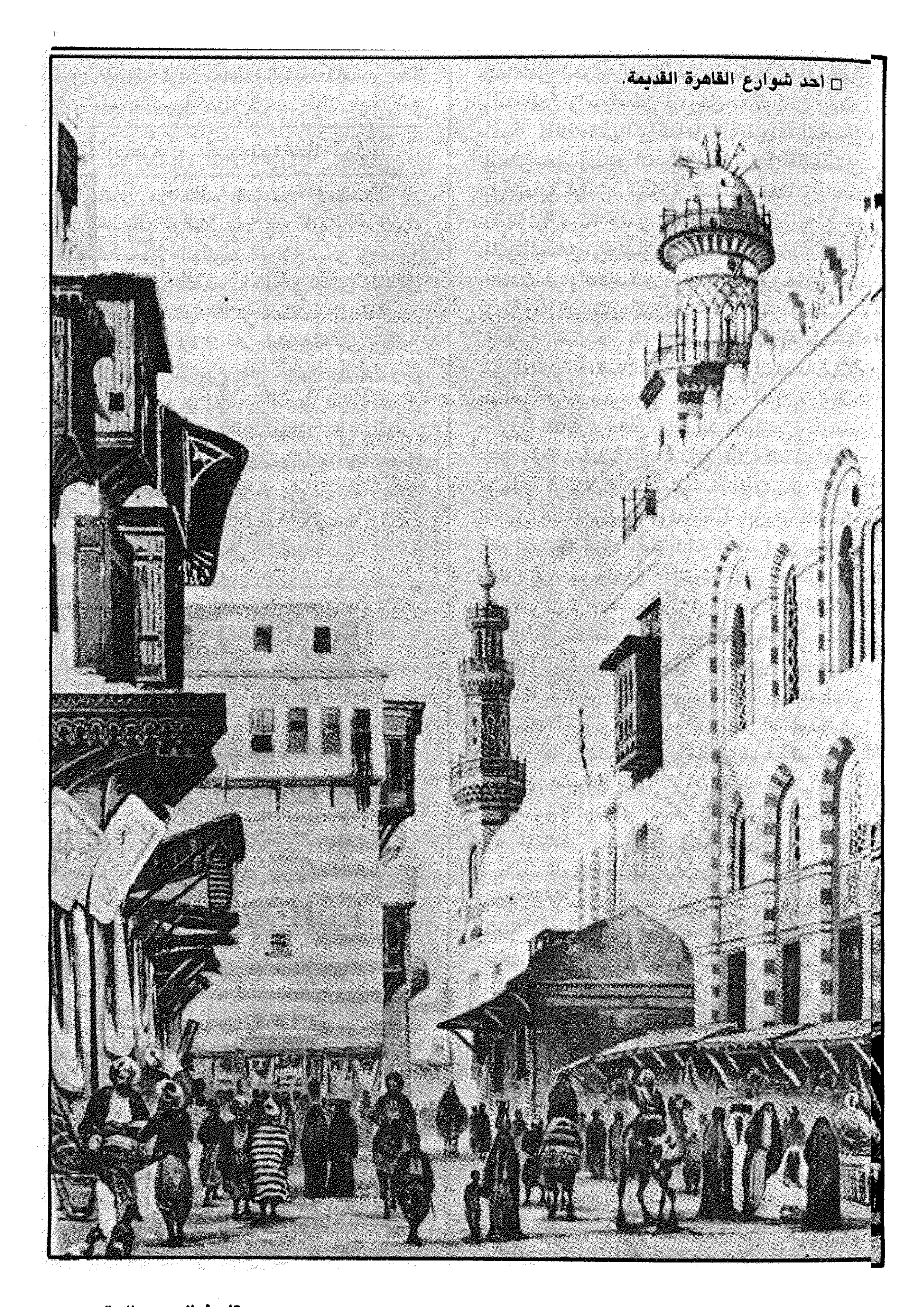
د. ابراهيم رزق الله أيّوب

نجح الفاطميون في نقل مركز خلافتهم إلى مصر ـ القاهرة فامتدت سيادتهم عليها زهاء قرنين وأكثر. وانقسم العهد الفاطمي في حكم مصر إلى دورين تاريخيين اختلفا اختلافاً كلياً في مَنْ كان صاحب السلطة السياسية. هذه السياسة التي نجحت في دورها الأول نجاحاً كبيراً لبقاء السلطة بيد الخلفاء، بينما حاول بعض خلفاء الدور الثاني استعادة سلطتهم، وانتزاعها من أيدي الوزراء الذين تلقبوا بألقاب مختلفة، ولكن عبثاً. فزالت السيادة الفاطمية عن أجزاء كثيرة من أراضيها، وضعفت سيطرتها حتى على مصر نفسها. فكان أفضل وصف لحالة الخلفاء في الدور السياسي الثاني ما قاله السيوطي: «لم يكن للمستنصر بالله ومَنْ بعده من الخلافة سوى الاسم فقط، لاستيلاء وزرائهم على السلطة، وكافة الأمور، وحجرهم على الخلفاء، وتلقبهم بألقاب الملوك، فكانوا معهم كخلفاء بغداد مع بني بويه وأشباههم».

كانت المرأة في المجتمع الفاطمي منسية تقريباً، وحريتها مفقودة، لا سيما بعد تلك القرارات التي أصدرها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. وأحست بأن عواطف زوجها وغيرته عليها قلّت بعدما توزعت بين عدة نساء، إزاء تكاثر الجواري وشيوع التسري، وألوان التهتك، والاكثار من حفلات الغناء والسمر والخمر في السر والعلن، حتى من قبل بعض الخلفاء أنفسهم كالظاهر لاعزاز دين الله، والآمر بأحكام الله!

لهذا كانت المرأة، أيام الفاطميين، محتقرة، ضيّق الخناق عليها، واتهمت بكل موبقة، حتى أن الحاكم بأمر الله إتهم شقيقته «ست الملك» بأنها تدخل الرجال إلى مخدعها وتمكنهم من نفسها. وقيل بأنه: أرسل القوابل[1] (جمع قابلة) للتأكد من براءتها. ولما سمع يوماً ضجيجاً للنساء بحمام الذهب، أمر أن يُسد باب الحمام بالحجر على مَنْ بداخله حتى متنّ جميعاً. كما غرّق خلقاً منهنّ في النيل بعد الاطلاع على فسقهن[2]. لذا يُعد الحاكم بأمر الله من أكثر الخلفاء الفاطميين

□ د. إبراهيم رزق الله ايوب: استاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الرابع.



□ احد شوارع القاهرة القديمة.

الذين عاملوا المرأة معاملة قاسية، فأصدر عدة اوامر منع بموجبها المرأة من:

١ ــ الخروج من بيتها ليلاً نهاراً:

واستثنى من ذلك، النساء المتظلمات إلى مجلس الحكم، والخارجات إلى الحجّ، والاماء (جمع أمة وهي الجارية) اللواتي يبعن في سوق الرقيق، والعجائز الضعاف اللواتي ينقلن الماء من المصانع[٣]، والنسوة اللاتي يجتمعن إلى اقاربهنّ دون الغرباء في زفاف على شريطة أن يبقين متسترات ليلاً والرجوع على حالهن وآلتهنّ ومن وقتهن، ومثل ذلك في المآتم. والنسوة الواردات إلى مصر في البر والبحر، والعجائز الغسّالات، والأرامل اللاتي يبعنَ الغَزْل والاكسية، والضعفاء من أهل المسكنة والمسألة، والاماء المزينات، والقابلات، بعد معرفة الحاجة التي من أجلها تطلبن الإذن بالتجول حتى يسمح إليهنّ[٤].

٢ ــ الجلوس أمام البيت أو البصبصة من الطاقات:

منعت أوامر الحاكم بأمر الله المرأة من الجلوس أمام بيتها على الشوارع أو الطرقات، وحتى التطلع من الطاقات والنوافذ، أو الصعود إلى السطوح[٥].

٣ ــ الدخول إلى الحمامات:

وحظرت أوامر الحاكم بأمر الله على المرأة دخول الحمامات العامة ــ حتى المخصصة للنساء ــ وقد أمر بقتل خلق كبير من النساء لمخالفتهنّ ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهنّ[٦].

٤ ــ السفور:

وحظّر عليهنّ كشف وجوههن وراء الجنائز وحتى البكاء والعويل، وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت، وزيارة المقابر في الأعياد والمناسبات[٧].

وحتى تطبق أوامره القاسية بحق النساء، فقد امر الأساكفة بعدم صنع الأخفاف[٨] المتخذة لهنّ. فأقمن على ذلك سبع سنين وسبعة أشهر تقريباً[٩]. كما بثّ في مصر ــ القاهرة العجائز يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن، أو يعشقهنّ بأسمائهنّ وأسماء من يتعرض لهنّ. فمن وُجدت منهنّ كذلك قتلها واخفاها. وساورته الظنون ببعض جاسوساته العجائز، وزيادة في الاطمئنان إلى تطبيق أوامره، لجأ إلى التأكد بنفسه من عدم مخالفتها بإكثاره من التجول ليلاً ونهاراً في المدينة[١٠] حتى ضاق الحال، وشدّد على النساء الفاسقات والفاسقين ايضاً. فلم يتمكن أحد منهنّ من الوصول إلى أحد إلا نادراً.

ومن استطعن إلى ذلك سبيلاً سلكنّ ضروباً من الاحتيال. فمثلاً إدّعت إحدى الفاسقات بأن أخاها الوحيد ينازع سكرات الموت، ووقفت بطريق القاضي، مالك بن سعيد الفارقي، تناشده بالله، أن يوصلها إليه. فرقّ قلب القاضي وأمر برجلين أوصلاها إليه. فوصلت إلى دار الرجل الذي يهواها وتهواه! ولما طالب الزوج المخدوع بامرأته، وقد عرف قصتها مع القاضي من جارتها، وقال: أن ليس لزوجته إخوة، أُلقي القبض على المرأة والرجل وهما نائمين في إزار واحد وقد ثملا من السكر. فصدرت بحقهما العقوبة التي قضت بحرق المرأة وقتل الرجل[١١]. فإن دلت هذه الحادثة على شيء إنما تدل على الفسق والفساد في المجتمع المصري عهد الحاكم بأمر الله، وعلى أن الاكثار من التشدد عند بعض النساء قد يذهب بهنّ إلى اختراع الحيل.

ووصل التهتك في العصر الفاطمي، بالنساء إلى حد اقتنائهنّ الجواري في القصور والتفنن في أساليب الفحشاء، إذ اتخذت الجارية خصياً لها كالزوج، كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر[١٢]. ووصل الأمر بالنساء الشريفات إلى الامتناع عن الزواج لعدم اقتناعهنّ بوجود الزوج الكفوء، أو لأسباب أخرى. فأكثرن من اقتناء الجواري والخصيان في قصورهن، وتكاثر في هذه الحالة الفساد حتى اتهم الحاكم بأمر الله كما ذكرنا شقيقته «ست الملك» ــ التي كانت تملك آلاف الجواري ــ بارتكاب الفحشاء.

وقد أدى الامتناع عن الزواج بالاضافة إلى حرمان النساء الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً، أن شكت بعض النسوة، مِمَّنْ ليس لهنّ معيل أو قيّم يقوم بأمرهنّ، لابتياع ما يحتجن إليه في منازلهنّ من المواد الغذائية والألبسة وخلافه.

فأمر الخليفة حينذاك الناس بأن يحملوا كل ما يباع في الأسواق إلى الدروب، ويبيعوه إلى النساء في بيوتهن، من خلال فتحة في الباب او الحائط، فيعرض البائع على المرأة بضاعته في مغرفة (شبه الملعقة) بساعد طويل يمده إليها وفيه ما تريد شراءه، وهي واقفة وراء الباب او الحائط. فإذا رضيت وأعجبها، وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها فلا يراها البائع[١٣].

وسار الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله على خطة والده الحاكم بأمر الله في بعض الأمور التي تخص المرأة، ومن ذلك أنه جمع عدداً من الجواري يعد بالآلاف وسدّ عليهنّ الأبواب حتى متن، ثم أضرم النار فيهنّ[١٤].

كانت هذه نظرة الحاكم بأمر الله إلى المرأة، وكذلك خليفته وابنه الظاهر لاعزاز دين الله. بينما اختلفت نظرة الخلفاء الآخرين اختلافاً كلياً، إذ اعتبروها أم الأولاد التي حبتها الطبيعة هذه الخاصة، فطلبوا إلى رعاياهم تكريمها والوقوف بجانبها والأخذ بيدها. فهذا المعز لدين الله — أول الخلفاء الفاطميين في مصر — قد خاطب جماعة من شيوخ كتامة داعياً إياهم إلى الاكتفاء بزوجة واحدة قائلاً لهم: «واقبلوا بعض الأعمال على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهنّ، والرغبة فيهنّ، فينغص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا ابدانكم، وتذهب قوتكم، وتضعف نحائركم، فحسب الرجل الواحد الواحدة..»[١٥].

ولما توفيت زوجة العزيز بالله، حزن عليها حزناً شديداً، وأجاز للغاسلة بما قيمته ستة آلاف دينار ودفع للفقراء ألفي دينار، وللقراء على قبرها ثلاثة آلاف دينار، وللشعراء الذين رثوها ألفي دينار[١٦].

واستطاعت بعض نساء الخلفاء الفاطميين وبناتهم جمع ثروة كبيرة بالرغم من الحجر عليهنّ، إذ أنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله، اموالاً كثيرة على بناء مسجد لها بالقرافة جاء آية في الزخارف والنقوش والسقوف الملونة، كما بنت قصراً لها في القرافة أيضاً[١٧]. ولو لم تكن «ست الملك» شقيقة الحاكم بأمر الله تملك ثروة كبيرة، لما أهدت شقيقها الحاكم بأمر الله هدايا ثمينة جداً، من جملتها: ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً، ومن ضمنها مركب واحد مرصع، ومركب من حجر البلور، وتاج مرصع بنفيس الجوهر، وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر[١٨].

وتكسب المرأة، أحياناً، زوجها عند الزواج منها قوة فوق قوته، وهذا ما حصل لناصر الدولة ابن حمدان، عندما لجأ إلى الاسكندرية، فمضى إلى حي من العرب، وتزوج منهم وقوي بهم لمناصرتهم له، فعاد وحاصر القاهرة إلى أن رضي المستنصر بالله بتسليمه مقاليد الأمور، والانفراد بها[١٩]. كما سعى بعض الوزراء من أرباب السيوف، كبدر الجمالي إلى تزويج ابنته «ست الملك» إلى المستعلي بالله ابن الخليفة المستنصر بالله، والذي أصبح الخليفة بعد وفاة والده. وتشبه الوزير طلائع بن رزيك بما فعله بدر الجمالي فزوج ابنته إلى الخليفة العاضد لدين الله — آخر الخلفاء الفاطميين — طمعاً في الاستئثار بالسلطة.

ولم تتم المصاهرة بين الخلفاء والوزراء بل تعدتهم إلى القواد والقضاة، في سبيل الاستقواء وتثبيت دعام الوظيفة التي يشغلون. فعقد القاضي محمد بن النعمان نكاح ولده أبي القاسم عبدالعزيز على ابنة القائد أبي الحسن جوهر الصقلي، فكان العقد في مجلس العزيز بالله — ثاني خلفائهم في مصر — ولم يحضره إلا خواصه. وبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار والكتاب ثوباً مصمتاً[٢٠].

رُبَّ سائل قد يسأل، هل اقتصر دور المرأة في المجتمع الفاطمي على كونها مُنجبة أولاد ومسؤولة عن الأعمال البيتية؟ أو جارية؟ او خليلة؟ أو مغنية..؟ أوَلم يكن لها دور ريادي في مجتمعها؟ أو تراها سكتت على وضعها ورضيت بقدرها؟

وجاء رد المرأة على حكم الرجل عليها، أيام الفاطميين من نساء أهل الحكم، لأن المرأة في الطبقات الأخرى العامة، لم يكن لها أي دور طليعي في المجتمع المصري آنذاك سوى ما اعتادت عليه من العمل البيتي، ومساعدة زوجها في بعض الأعمال الزراعية. وإن كان لبعض نساء الطبقة العامة شأن، فهذا بحكم عملهنّ كمغنيات، أو راقصات أو حظايا وما شابه ذلك. وهذا الشأن آني، سرعان ما يزول بزوال

الظروف التي أوجدته. وتمثل دور المرأة الفاطمية الريادي في:

١ ــ تدخلها في شؤون الحكم:

إعترضت أخت الحاكم بأمر الله على بعض أوامره التي لم تعجبها، فحرضت أخاها ضد ابن النجوى ــ والي دمشق ــ الذي كان قد أساء السيرة ووصل إليها الخبر، فكتب الحاكم بأمر الله إلى وحيد ــ والي الرملة ــ يقول:

«ساعة وقوفك على هذا الكتاب، أقبض على محمود بن محمد (ابن النجوى)، لاحمد الله أمره، وسيّره مع مَنْ يوصله من ثقاتك إلى الباب العزيز إن شاء الله».

ولكن أخت الحاكم بأمر الله اعترضت على هذا الأمر قائلة: «إن بطن الأرض خير من إحضاره» فزاد الخليفة في الكتاب المرسل إلى والي الرملة: «بل أضرب عنقه، وتنفذ رأسه»[٢١].

٢ ــ أخذت البيعة لمن أحبت، وأبعدت عن الخلافة من غضبت عليه:

واستطاعت «ست الملك» شقيقة الحاكم بأمر الله إبعاد ابن عمها «عبدالرحيم بن الياس» الذي كان قد اختاره الخليفة شقيقها ليخلفه. وأخذت البيعة للظاهر لاعزاز دين الله ابن الخليفة نفسه، وألبسته تاج جده العزيز بالله، بعدما إطمأن لها الناس، فبايعوه جميعاً باستثناء غلام تركي كان يعمل ليلاً بين يدي الحاكم، فإنه قال: «لا أبايع حتى أعرف خبر مولاي» فقتل للحال[٢٢]. ثم أرسلت في طلب عبدالرحيم بن الياس من دمشق حيث كان قد عينه الحاكم بأمر الله والياً عليها، وأخذت منه البيعة، والسيف مسلطاً فوق رأسه[٢٣].

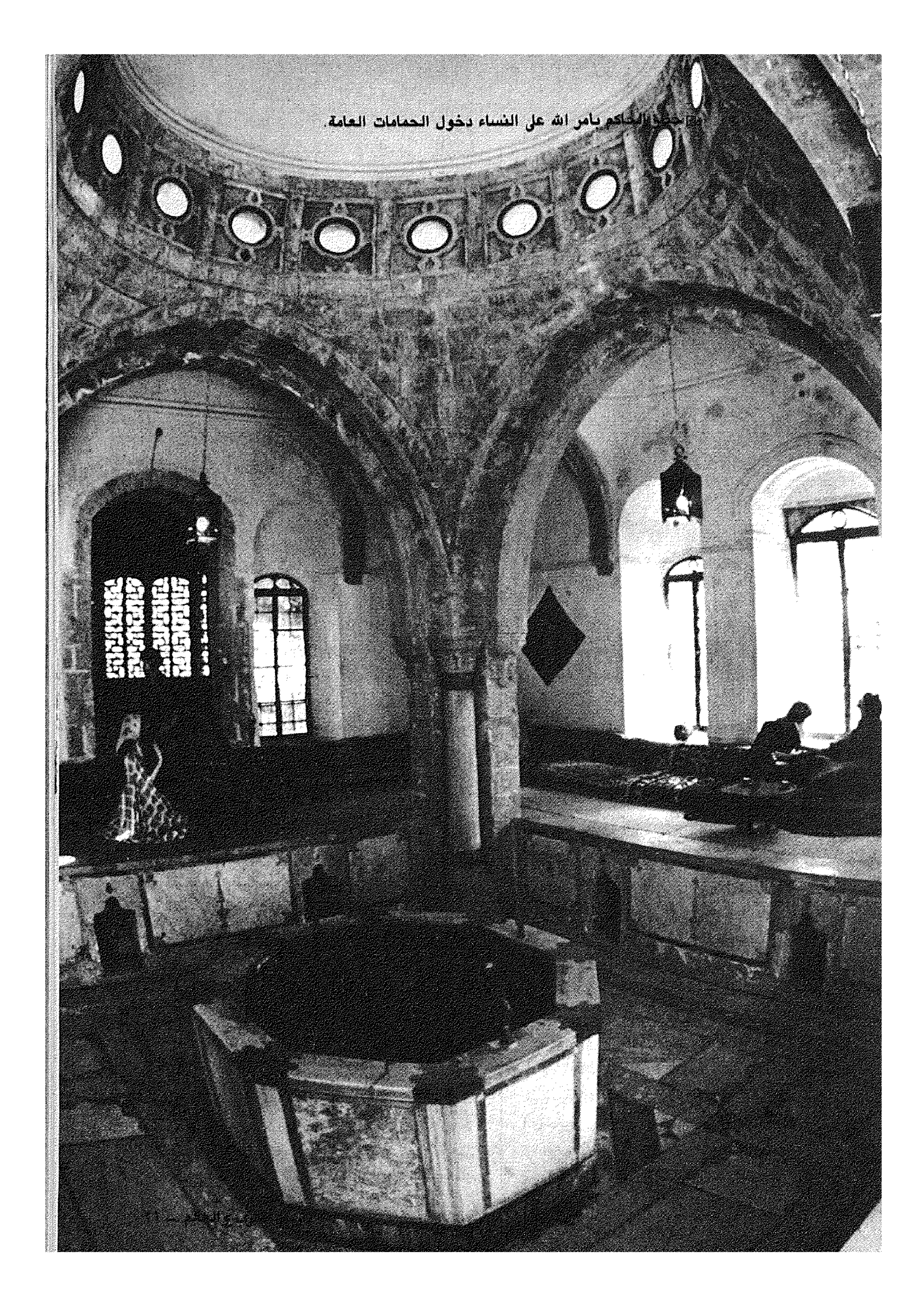
ولعبت والدة المستنصر بالله ــ خامس الخلفاء الفاطميين في مصر ــ دوراً كبيراً في تعيين الوزراء وإقالتهم بعد مصادرة أموالهم وقتلهم[٢٤]، فاستوزرت أولاً: أبا الفتح الفلاحي، ثم استوحشت منه، فقبض عليه الخليفة بايعاز منها وقتله، ووزّر بعده أبا البركات حسن بن محمد، وعزله بعد مدة، وولى الوزارة أبا محمد اليازوري، فقام هذا بالوزارة إلى أن قتل فوزر الخليفة بعده أبا عبدالله الحسين بن البابلي[٢٥].

واستجاب الصالح طلائع بن رزيك لاستغاثة نساء القصر، عندما قطعن شعورهنّ وضمنوها الكتب التي أرسلت اليه في ولايته بـ «منية خصيب» ــ في صعيد مصر ــ سائلينه الانتصار لمولاه والخروج على عباس ــ وزير الخليفة ــ. فجاء على رأس قوة من أجناده وجمع من العرب، وساروا قاصدين القاهرة، وقد لبسوا السواد. فلما قاربوها، انضم إليهم جميع من فيها من الأمراء والأجناد والسودان (العبيد السود)، وتركوا عباساً وحده. فهرب مع ولده نصر قاتل الخليفة الظافر بأمر الله ــ تاسع الخلفاء الفاطميين في مصر ــ وأسامة بن منقذ ــ المؤرخ صاحب كتاب الاعتبار ــ، والقليل من اتباعهم، قاصدين بلاد الشام. أما طلائع بن رزيك، فقد دخل القاهرة بأعلامه وثيابه السوداء حزناً على الخليفة الظافر بأمر الله والشعور التي أرسلت إليه على رؤوس الرماح، فخلعت عليه الوزارة، واستقامت له الأمور[٢٦].

٣ ــ تتآمر للاطاحة بالخلفاء والوزراء:

لم ترض تصرفات الحاكم بأمر الله، شقيقته «ست الملك» وشعرت بالخوف منه، بعدما اتهمها بارتكاب الفاحشة كما ذكرنا سابقاً. لذلك سعت للتخلص منه، قبل أن يقضي عليها. فكتبت إلى ابن دواس، كبير الأمراء والقواد لدى شقيقها، رسالة تقول له فيها: «إني أريد أن ألقاك. إما أن تأتي إليَّ متنكراً، وإما أن أجيء أنا إليك»[٢٧]. واتفقا على قتل أخيها الخليفة، وتعاهدا على إتمام عملية القتل معاً، بعدما أغرته، مع كاتبه، بشتى الوعود، وليس أقلها الوعد بتسلم الوساطة (الوزارة) ومضاعفة جاريه (العطاء) من مال ولباس ومواد غذائية، والإنعام عليه بالاقطاع وخلافه[٢٨].

وتنفيذاً للعملية أحضرت ست الملك (وأحياناً ست الكل في إتعاظ الحنفا للمقريزي) عبدين وحلفتهما على كتمان الأمر، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلا الحاكم بأمر الله[٢٩]. وسواء أقتله العبدان، أم قتله شخص آخر، فالمهم أن «ست



حظر الحاكم بأمر الله على النساء دخول الحمامات العامة.

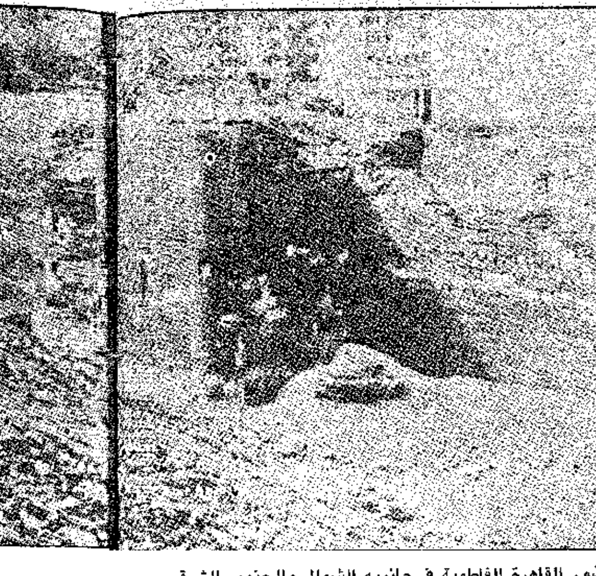
الملك، شقيقة الخليفة الحاكم بأمر الله، دبرت المؤامرة، وحبكت خيوطها في حين راقبها ابن دواس أحد قواده الكبار.

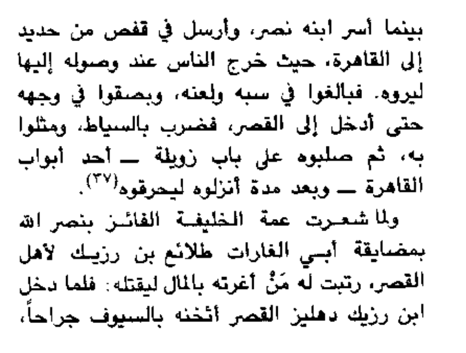
وحتى تستقيم لها الأمور، وتنفرد بالحكم، وخوفاً من إشاعة خبر المؤامرة بينها وبين ابن دواس، فقد عملت على التخلص من كل مَنْ إطلع على سرها واحداً بعد آخر، بادئة بابن دواس نفسه، وبالطريقة نفسها التي اتبعتها مع شقيقها لتبقى بعيدة عن الشبهة، فقد كلفت الخادم «نسيم» صاحب الستر، الوقوف بين يدي ابن دواس ويقول للعبيد: «يا عبيد: مولاتنا تقول لكم، هذا قاتل مولانا الحاكم بأمر الله، فاقتلوه». فما أن سمعوا ذلك من نسيم الخادم، حتى قطعوا بسيوفهم رؤوس ابن دواس، والعبدين اللذين نفذا قتل الحاكم بأمر الله[٣٠].

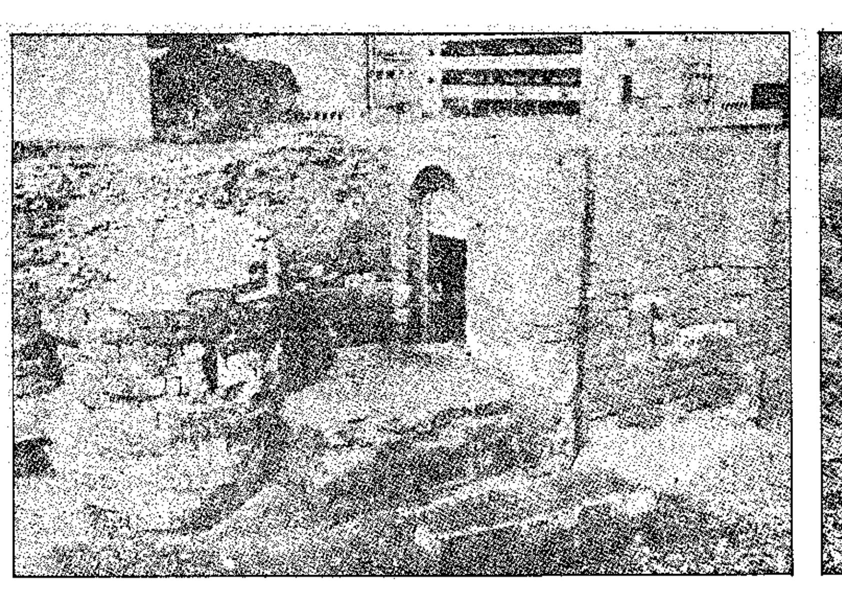
ثم تخلصت من خطير الملك عمار بن محمد، الذي كان يتولى ديوان الإنشاء، وحلقة الاتصال بين الخلافة والمشارقة والأتراك. وتخلصت بعده من بدر الدولة أبي الفتوح موسى بن الحسن بعدما تولى رئاسة المشارقة عن خطير الملك، وذلك بسجنه ثم قتله[٣١]. ولم تزل تحوك الحيلة بعد الأخرى، حتى تمكنت من قتل أمير الأمراء، عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الوحيدي، والي حلب بتحريض خادمه «بدر» عليه، لعصيانه وضرب السكة باسمه[٣٢].

فتوطدت لها الأمور، وأخذت البيعة للظاهر لاعزاز دين الله ابن شقيقها الحاكم بأمر الله. ثم جمعت عامة أهل مصر، وخطبت فيهم: واعدة بالمعاملة الحسنة، طالبة إليهم التقدم منها بكل ما يحتاجون إليه في أي وقت، وعدم التأخر في مراجعتها إذا نالهم أذى، أو لحق بهم ضرر من عامل أو ناظر ليتم رفعه بما تقتضيه السياسة العادلة. كما سمحت للنساء بالخروج من منازلهنّ والتصرف في أمورهن بعدما منعن من ذلك منذ سبع سنين وسبعة أشهر. واسترجعت إقطاعات كان شقيقها قد اقطعها، واستعادت جواهر كان قد وهبها[٣٣].

ولما مرضت ويئست من نفسها، أحضرت ابن أخيها الظاهر لاعزاز دين الله، وقالت له: «قد علمت ما عاملتك به، واقله حراسة نفسك من أبيك، فإنه لو تمكن منك لقتلك، وما تركت لك







□ سور القاهرة الفاطمية في جانبيه الشمالي والجنوب الشرقي.

أحداً تخافه..» فبكى بين يديها هو ووالدته، وسلمت إليهما مفاتيح الخزائن، وأوصتهما بما أرادت. ثم توفيت بعد ثلاثة أيام[٣٤]. وكانت قد أمضت بتدبير شؤون الدولة أربع سنين[٣٥].

ولم تنحصر تدخلات النساء في شؤون الخلافة على «ست الملك» شقيقة الحاكم بأمر الله، والأمة السوداء والدة المستنصر بالله، بل شمل هذا التدخل عمتين للخليفة الفائز بنصر الله ــ عاشر الخلفاء الفاطميين في مصر ــ إذ انتقلت كفالة هذا الخليفة، بحكم توليه الخلافة صغيراً (تولى الخلافة في سنة ٥٤٩هـ ــ ١١٥٤م وله من العمر خمس سنين) من عمته الكبرى بعد مقتلها على يد الوزير طلائع بن رزيك[٣٦] إلى عمته الصغرى، التي كانت شقيقة الخليفة الظافر بأمر الله وقد أستنجدت به مع نساء القصر بعد القيام بقتل الخليفة على يد نصر بن عباس وإقامة ابنه الفائز بنصر الله مكانه. فبذلت الأموال الكثيرة لفرنج عسقلان بعد مكاتبة، إذا هم أمسكوا بعباس وولده نصر، تاركة لهم جميع ما معهما على أن يبعثوا بهما إلى القاهرة.

إلا أن عباساً قاتل الفرنج لما ادركوه وقتل، بينما أسر ابنه نصر، وأرسل في قفص من حديد إلى القاهرة، حيث خرج الناس عند وصوله إليها ليروه. فبالغوا في سبه ولعنه، وبصقوا في وجهه حتى أدخل إلى القصر، فضرب بالسياط، ومثلوا به، ثم صلبوه على باب زويلة ــ أحد أبواب القاهرة ــ وبعد مدة أنزلوه ليحرقوه[٣٧].

ولما شعرت عمة الخليفة الفائز بنصر الله بمضايقة أبي الغارات طلائع بن رزيك لأهل القصر، رتبت له مَنْ أغرته بالمال ليقتله: فلما دخل ابن رزيك دهليز القصر أثخنه بالسيوف جراحاً، لكنه علم قبل وفاته بأن هذا من تدبيرها فعمل على قتلها، وانتقلت الكفالة إلى العمة الصغرى.

بعد هذا، نستطيع القول ان من الأمور التي أضعفت السيادة الفاطمية، تدخل النساء في أمور الخلافة وتعيين الوزراء وإقالتهم، مع طغيان هؤلاء على شؤون الحكم، فعانى المجتمع المصري من الشقاء والفساد الشيء الكثير، في ظل تلك السيادة المتأرجحة بين القوة والضعف. وهو يرزح تحت وطأة قرارات أصدرها بعض الخلفاء.

المصادر والمراجع

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧ ص ٣٠٥، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.
والمقريزي: إتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، ج ٢ ص ١١٥، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٣٩٠ ــ ١٣٩٣هـ.
وابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤ ص ٦١، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧١.
وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٤ ص ١٨٥، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ٢٧٦ وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٥٢، منشورات مكتبة المعارف ببيروت، ومكتبة النصر بالرياض. الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

(٣) المصانع: مفردها مصنعة، وهي الحوض الذي يجمع فيه ماء المطر.

(٤) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب والمشرب في حلى المشرق ــ القسم الثاني من الجزء الخاص بمصر، ص ٦٤، تحقيق حسين نصار، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ٢٧٦. وابن سعيد: القسم الخاص بمصر، ج ٢ ص ٦٤. والمقريزي: إتعاظ...، ج ٢ ص ١١٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ٢٧٦. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٥٢.

والسيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ١ ص ٦٠٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحيا ء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨م.

(٧) متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢ ص ٢٣٣ نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو زيد، بيروت ١٩٦٧م.

(٨) الأخفاف أو الخفاف ومفردها: الخف وهو الحذاء الذي يلبس.

(٩) ابن سعيد المغربي: القسم الخاص بمصر، ج ٢ ص ٥٢. والمقريزي: إتعاظ...، ج ٢ ص ١١٠. والسيوطي: حسن المحاضرة، ج ١ ص ٦٠٢. ومتز: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ١٧٦.

(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٥٢.

(١١) مشرفة، عطية مصطفى: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص ٣٤، دار الفكر العربي بمصر، الطبعة الثانية.

(١٢) ابن الأثير: الكامل...، ج ٧ ص ١٨٨.

(١٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٠٥. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٧٧.

(١٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢ ص ١٥٣. و
O'Leary, Delacy: A short history of the Fatimid Khalifate, p. 173, London 1923.

(١٥) المقريزي: إتعاظ...، ج ١ ص ٩٥ ــ ٩٦. والخطط: ج ١ ص ٣٥٢، نسخة مصورة عن طبعة بولاق. منشورات دار صادر، دار بيروت. (لا.ت). ومتز: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ١٧٩.

(١٦) المقريزي: إتعاظ، ج ١ ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩.

(١٧) المقريزي: الخطط، ج ١ ص ٤١٥ و ٤٨٦.

(١٨) المقريزي: إتعاظ، ج ٢ ص ١٥. وزيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥ ص ١٣٢.

(١٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٣.

(٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥ ص ٤٢٠، تحقيق: إحسان عباس.

(٢١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٦٠ تحقيق امد روز (مطبعة الآباء اليسوعيين) بيروت ١٩٠٨.

(٢٢) ابن الأثير: الكامل...، ج ٧ ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ١٠ ــ ١١. والمقريزي: إتعاظ، ج ٢ ص ١١٦ ــ ١١٧.

(٢٣) المقريزي: إتعاظ، ج ٢ ص ١٨٢ ــ ١٨٣. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٩٤.

(٢٤) ابن سعيد المغربي: القسم الخاص بمصر، ج ٢ ص ٣٦٠. وابن خلدون: العبر...، ج ٤ ص ٦٣. والمقريزي: الخطط...، ج ١ ص ٣٥٥ واتعاظ، ج ٢ ص ١٩٥ ــ ٢٠٣.

(٢٥) ابن سعيد المغربي: القسم الخاص بمصر، ج ٢ ص ٣٦٠.

(٢٦) ابن الأثير: الكامل...، ج ٩ ص ٤٤. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣.

(٢٧) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٧ ص ٢٩٨.

وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٣ ص ١٩٣. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لا.ت).

(٢٨) المقريزي: اتعاظ...، ج ٢ ص ١٢٧.

(٢٩) ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ٣٠٥. وابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٦١.

والمقريزي: إتعاظ...، ج ٢ ص ١١٥ ــ ١١٧، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٣٠) ابن الأثير: الكامل...، ج ٧ ص ٣٠٧. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ ص ١٠ ــ ١١.

والمقريزي: اتعاظ...، ج ٢ ص ١٢٧ ــ ١٢٨. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٩١ ــ ١٩٢.

(٣١) المقريزي: اتعاظ...، ج ٢ ص ١٢٨ ــ ١٢٩.

(٣٢) المقريزي: اتعاظ...، ج ٢ ص ١٢٩ ــ ١٣٠. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٩٤ ــ ١٩٥.

(٣٣) المقريزي: إتعاظ...، ج ٢ ص ١٢٦.

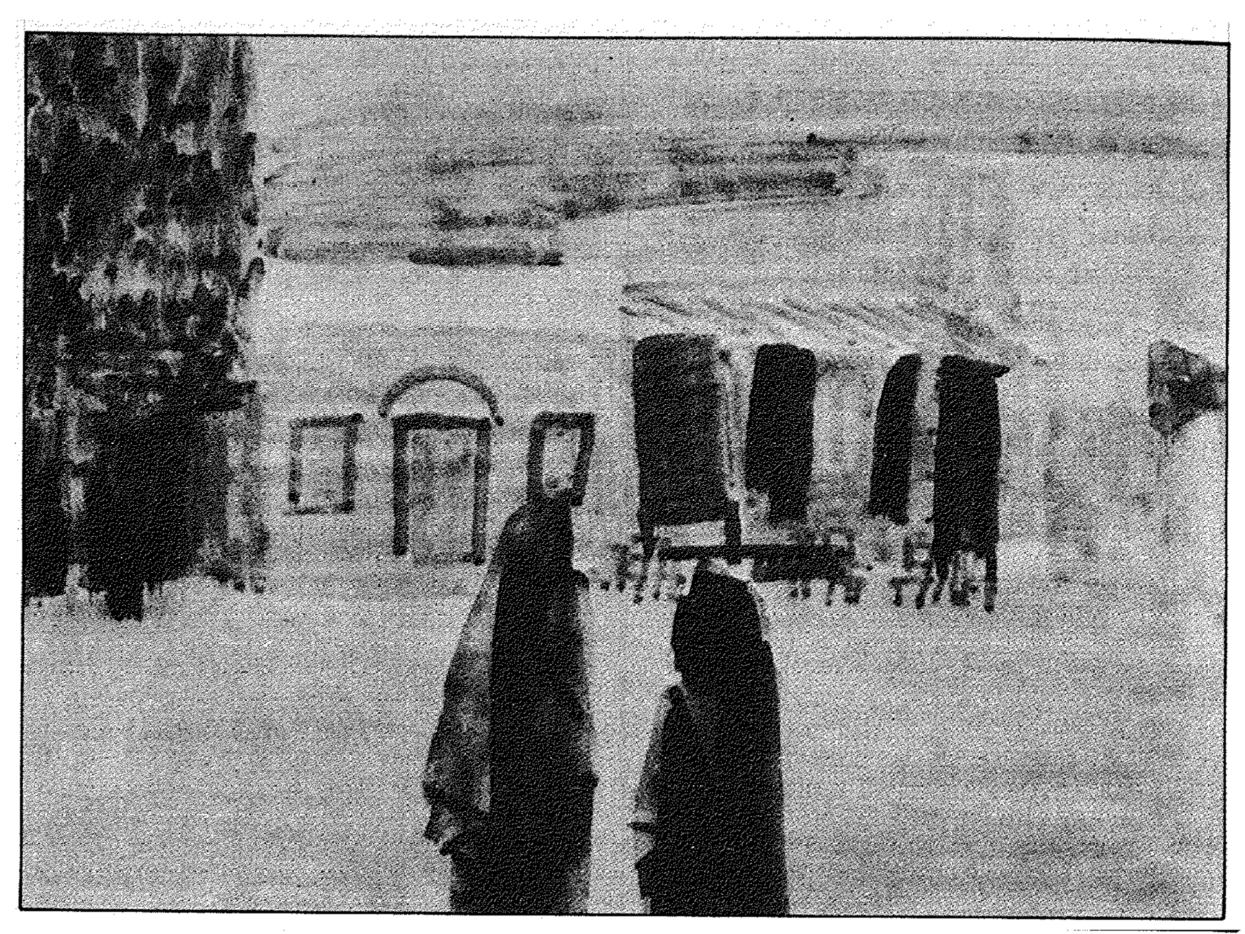
(٣٤) المصدر السابق نفسه، ج ٢ ص ١١٦ ــ ١١٧. وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤ ص ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٣٥) ابن خلدون: العبر...، ج ٤ ص ٦١.

(٣٦) ابن الأثير: الكامل...، ج ٩ ص ٧٥.

(٣٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ٤٩٣. والمقريزي: إتعاظ...، ج ٣ ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.





□ لويس موييه، مقهى في قيروان، لوحة مائية، عام ١٩٢٨، محفوظة في مجموعة ياكوب تسيسلين في بال.

زان كريستوف آمان

لويس موييه وأصدقاءه

ترجمة ناجي نجيب

تشكل اللوح المائية للفنان لويس موييه بناءاً مركباً، صممت معالمه في وقت مبكر. فبرغم التقسيم المرحلي لهذه اللوح (١٩٢٠ ـ ١٩٢٣؛ ١٩٢٦ ـ ١٩٢٩؛ ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢؛ ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤)، فلا يمكن القول بتدرج هذا الفنان وتطوره، من مرحلة إلى أخرى (أكثر تجريداً أو ما شابه). وإنما يعني هذا التقسيم اجتماع لوح مرحلة من المراحل حول سمات فنية مميزة. فلوح كل مرحلة لا تكون في إطار أعماله الكاملة وحدة عضوية منفصلة،

(*) مشكلة الفن التعبيري والفن التجريدي هي أحياناً صعوبة نقل الضوء الطبيعي إلى لون مقابل، ومشكلة الناقد في هذه الحالة هي مشكلة مضاعفة، إذ عليه أن يترجم هذه اللوح إلى وسيلة تعبير أخرى، هي اللغة. أما المترجم، الذي يريد ترجمة النقد من لغة إلى لغة أخرى، فهو يواجه صعوبات تكاد تقعده عن عمله. على أن هذه الكلمة للتنبيه فقط لا للاعتذار. (المترجم)

وإنما تحمل ملامح مشتركة فحسب، تميزها عن غيرها. هذا بالاضافة إلى عودة الفنان إلى معالجة بعض لوحه من جديد، في فترات تالية، واحتفاظه، بل وتأكيده في نفس الوقت لأسلوبها الأصلي. وهكذا تنتمي بعض اللوح زمنياً إلى أكثر من مرحلة. بمعنى آخر أن إعادة معالجة لوحة من اللوح المائية، لا يعني تصحيح هذه اللوحة، وإنما استكمالها. (فطبقات اللوحة تخلق مناطق تلامس أو تلاحم شديدة التركيز، خصوصاً بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢).

وليس غريباً أن نتساءل عن سبب انعدام التطور في لوح موييه المائية، فانعدام التطور هو إحدى معالمها الأساسية. السبب الأول يكمن في مشكلة اللون، في صعوبة نقل الضوء الطبيعي بطريقة عفوية إلى لون مقابل، وهذا يؤدي إلى انعكاس الانطباع الأول المباشر لمناظر الطبيعة إلى الداخل، فتصير الطبيعة مجرد وسيلة للتعبير عن رؤيا داخلية، يتحد فيها المنظور والمشاهد والمعاش. في مثل هذا الطريقة، حيث يحدد اللون المساحة والسطح، يصعب حدوث تطور ما، ذلك لأن العالم المحيط، وبالتالي الطبيعة المشاهدة، لا تستطيع إلا بقدر ضئيل أن تتدخل في عملية الخلق.

ولا ننسى أن موييه قد أتم أولى مجموعاته المائية الكبرى بعد أن جاوز الأربعين، كذلك رسم لوحته الأولى الكبرى «السرك»، وهو في الرابع والثلاثين من العمر. فبالمقارنة بالفنان أوجست ماكه (Macke)، لم يصل موييه إلى قمة الابداع الفني إلا في مرحلة متأخرة. وتتفاوت لوحاته تماماً بين عامي ١٩١٣ و ١٩٣٣، عنها في الفترة الواقعة بين ١٩٠٢ و ١٩١٢.

أما رسوم الزجاج، فقد خلق موييه بها عملاً فنياً جديداً. فرسوم الزجاج الأخيرة (في كنيسة تسفينجلي Zwingli-kirche وفي مصلى مستشفى البورج Burgerspitalkapelle) تقابل من حيث نوعيتها أفضل اللوح المائية التي أكملها بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٤.

وهكذا نتبين انقطاع الاتصال بين مراحل هذا الفنان الناضجة، المبكرة منها والمتأخرة. ولعل هذا النقص يكمن في النهاية في طبيعة موييه ذاته، كما تبدو لنا من ترجمته، فقصة حياته غنية بالنوادر والقصص، وتضم قدراً كبيراً من المتناقضات. هذا بينما لا نعرف الكثير من الأحداث المتصلة مباشرة بأعماله الفنية. فالتعدد في أعماله الفنية يقابله صعوبة الالمام بشخصيته. فموييه لا يبيح لنا إلا بالقليل عن أعماله، كما لو كان يريد لها أكبر تنوع في التفسير.

وموييه من الفنانين، الذين لا يرمون إلى خلق أعمال فنية مترابطة متكاملة. من الفنانيين الذين لا يراجعون أنفسهم ويراجعون تطورهم، ولعله كان يفضل أن يخفي نشاطه الفني. فالفن كان في اعتباره مسألة شخصية لم ير ضرورة للتعريف به... فكفنان تجنب موييه تماماً الأضواء، وحجب أعماله ودخائله عن الفضلاء، وفعل ذلك عن وعي وبدون وعي على حد سواء. فقد فرضت عليه طبيعته هذا الاحتجاب، وسعى إليه عن وعي وإدراك.

هذه المسافة التي تفصل موييه عن العالم الخارجي تقابلها نظرة الفنان التأملية النقدية إلى أعماله. وهذا يعني احتفاظ الفنان بحريته أمام نفسه، أي أن يصبح الفنان قادراً على الخلق، قادراً في نفس الوقت على النظر إلى نفسه وتأمل إنتاجه كما لو كان إنتاج فرد آخر. وبهذه الوسيلة أبقى موييه على نفسه في حالة توتر دائم. وإلى ذلك يرجع تداخل مراحل هذا الفنان، فالانتقال من فترة إلى أخرى لم يكن مرجعه استهلاك الامكانيات الشكلية لمنحى من المناحي، فصفة هذا الانتقال هي المرونة والقدرة. وحين أنهى موييه في منتصف الثلاثينيات أعماله المائية (باستثناء إعادة معالجة بعض اللوح)، فقد فعل ذلك لادراكه، أنه قد قال ما يريد قوله بواسطة هذه الأداة الفنية، وببديهة تامة اتجه إلى التصوير على الزجاج.

أثر كليه وماكه

العاملان التنظيميان في أعمال موييه المائية هما المساحة واللون، وبالتالي الطبيعة والضوء. ففي لوح أعوام ١٩١٦ ــ ١٩٢١ و ١٩٣٠ ــ ١٩٣٢ نرى الهدف هو نقل الطبيعة إلى تربيعات لونية، وكلما ازدادت درجة التجريد، ازدادت كثافة الألوان المحددة بواسطة التربيعات. هذه المفاهيم تصادفها أيضاً في أعمال بول كليه

واوجست ماكه التي رسماها عام ١٩١٤ أثناء رحلة تونس.

فلوح كليه وماكه، التي تمت في صيف ١٩١٤، تمثل اللوح الوحيدة المشابهة لأعمال موييه المائية للسنوات الواقعة بين ١٩١٦ و ١٩٢١، و ١٩٣٠ و ١٩٣٢. على أنه من العسير القول بتأثر موييه بأعمال كليه. فالعنصر المشترك بينهما هو درجة التجريد وما يصاحب هذا التجريد من سمات خاصة. أما فيما يختص بماكه، ففي لوحة تحتفظ الطبيعة بحقها الطبيعي، وتملي شكل المساحة، ولا يكمن التشابه مع ماكه في طريقة الرسم، وإنما في التفاوت والتوتر بين السطح والمساحة من خلال التركيب التربيعي.

ويبدو لنا ضرورياً، أن نتأمل اللوح المائية لموييه وماكه، على أننا قبل ذلك نريد أن ندخل اللوح الهامة لبول كليه في هذه المراجعة.

حين بدأ موييه في أبريل عام ١٩١٤ باللوح المائية اتسمت لوحه بملامح الرسم التخطيطي، كما يبدو من مساحات اللون المتشابكة مع اقواس الأبواب وعناصر الشخوص المبهمة، كما في لوحتيه «مسودة تونس» (Tunesische Skizze) و «مقهى الشارع» (Stra-Benkaffee). أما كليه فقد قام في تونس — كما يبدو جلياً — بتنفيذ برنامجه المدون في يومياته بتاريخ ٨ أبريل بعنوان: «التركيب المتكامل، هندسة تكوين المدينة، هندسة الصورة». ونشاهد انعكاس هذا البرنامج في لوحته «أمام مسجد في تونس»، حيث لا تلعب العناصر الشكلية التخطيطية دوراً بنائياً في الصورة وإنما تأتي الأولوية لمساحة اللون، وتساهم العناصر الشكلية التخطيطية في التلوين الايقاعي للوحة.

أما في سان جرمان (St. Germain) فإن كليه يوجه عدسته إلى الطبيعة لا إلى صورة المدينة. في اللوحة الأولى من هذه المجموعة «منظر من سان جرمان» (Ansicht von St. Germain) يصور كليه الطبيعة كمساحة عميقة من عناصر لونية في ضوء طبيعي ساطع. واللوحة المائية التالية لهذه هي على الأرجح «حديقة في مستعمرة الأوروبيين بسان جرمان بتونس».
Carten in der tunesischen Europäer-kolonie St. Germain.

وفيها ينعكس مضمون اللوحة تماماً على السطح. فنشاهد مربعات متناثرة تنقل إلينا من المشاهد المرئية ملامحها التقريبية فحسب. والتجريد هنا ينعكس في كثافة الألوان، خصوصاً الأحمر والأزرق. ويبدو أن لوحة «حديقة جنوبية» (Südlicher Garten)، تعود كذلك إلى سان جرمان. وإذا تأملنا لوحة «منظر من سان جرمان»، لوجدنا تشابهاً في الأشياء المصورة. على أن طريقة الرسم لا تتقيد بوضع الأشياء الطبيعي، وإنما نرى الانطباع وقد انفصل تماماً عن الأشياء، بل وأنه يرفع أو يلغي هذه الأشياء. فاللوحة هي مقابل لوني وإيقاعي مكثف لعملية التجريد الاحساسية للانطباع الذي خلفته الطبيعة. وآخر مجموعة سان جرمان هي اللوحة المائية «في منازل سان جرمان بتونس» (in den Häusern von .St. Germain-Tunis)

هنا نجد إيقاعات اللون، الزرقاء والخضراء والوردية والبرتقالية، الموضوعة في المساحات التربيعية توحي بجو المساء. والمساء من فترات اليوم التي انجذب إليها كليه. فنراه يكتب في مدينة قيروان بتاريخ ١٦ أبريل «مساء حالم، الوانه زاهية محددة. ساعات سعيدة لويس يرى روائعاً لونية، وعلى أن أسجل هذه الألوان، فأنا — كما يقول لويس — قادر على ذلك».

بعد سان جرمان حط بهم المقام بالحمامات. في لوحة «حمامات وجامع» (Hammamet mit der Moschee)، نرى الطبيعة، كما في بداية كل مرحلة من مراحل الرحلة، ملموسة مقربة. في هذه اللوحة برجان تحيط بهما مساحات من النقط، تبرز عن طريق التضاد (الكونتراست) الوقع النغمي لمنطقة لونية، تصور العناصر النباتية، التي تتكون من خطوط قصيرة مائلة أو منحرفة. أما لوحة «موتيف من الحمامات» (Motiv aus Hammamet) فإنها تستخدم نفس المشهد، ولكنها تعكسه بطريقة تجريدية تامة. أما وأن هذه الصورة تعالج على الأرجح نفس العناصر، فيبدو هذا واضحاً من «فتحات الحائط» في منتصف أعلى الركن الأيمن من اللوحة، فهذه الفتحات تطابق من حيث التكوين فتحات البرج الأيمن في اللوحة المائية السابقة، وتبدو هكذا

كبقايا طفيفة لعملية التجريد الشاملة. كذلك نكتشف بعض المربعات الصغيرة في الجانب الأيسر والأيمن، ويمكن تفسيرها باعتبارها أصلاً حدود حائط. وهذا وتتسم الألوان في التكوينات التربيعية الرئيسية بكثافتها ولمعانها. بينما تضفي المساحات المنقطة على التقسيمات الراسية حركة تنساب من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل.

وتنتهي الرحلة في مدينة قيروان، وبها تبلغ هذه السياحة ذروتها العاطفية. في هذه المدينة يبلغ بول كليه حد تشكيل اللون كمادة، مادة ينصهر فيها عنصر المكان وعنصر الزمان، مادة هي ذاتها مضمون ومجال خيالي للفنان. في يوم الوصول إلى هذه المدينة الصغيرة، في ١٦ أبريل، يكتب كليه: «مارست الرسم في مطلع النهار أمام المدينة أضواء متفرقة بعض الشيء، وخافتة شفافة. لا ضباب على الاطلاق» في لوحة «أمام أبواب قيروان» (Vor den Toren von Kairuan) نرى الألوان لها طابع الأزرق الطبيعي الذي يشوبه الصفار، ونرى الطبيعة واضحة في تكوين اللوحة، مما يستدل منه على انها من أولى لوحات هذه المرحلة الأخيرة من الرحلة، وتبدو بذلك صلة هذه اللوحة بتعليق بول كليه السابق في يومياته. فالفنان يوجه عنايته إلى تصوير طبقات اللون المرئية بحرية ويكتب كليه في نفس اليوم: «الآن أترك العمل جانباً، فهناك شيء يتغلغل في رفق إلى أعماقي، وأنا أشعر بذلك وأشعر بالأمان دون جهد. فاللون قد ملك علي نفسي، ولا حاجة بي إلى البحث عن اللون، فقد ملك علي زمام نفسي إلى الأبد، وأنا أعرف ذلك، هذا هو المغزى السعيد لهذه الساعة: فأنا واللون قد صرنا شيئاً واحداً. فأنا رسام».

وتبدو لوحة «قيروان أمام الباب» (Kairuan vor dem Thor) كبرهان على هذه الخبرة الجديدة. فأقسام اللوحة تتداخل في حرية على سطح اللوحة، ولا يربط بينها غير قطع مكافىء او شلجمي مفتوح إلى أعلى، بباطنه سلسلة هضبية وفي أعلاه دهليز او ممشى به شذرات من مصور الأشخاص والأشكال: هي في الواقع ما علق بذهن الفنان من عناصر المشهد الأصلي. أما اللوحة التي تحمل عنوان «قباب حمراء وبيضاء» (Rote und weiBe Kuppeln)، فتجسم الاتزان الابداعي بين إنجازات الشكل (التركيب المتكامل Synthese لمعمارية المدينة ومعمارية الصورة) وبين إنجازات اللون («أنا واللون الواحد»).

فكل مربع من المربعات، في إطار الخطوط الراسية والأفقية المتقاطعة دون أحكام، يكون منطقة لونية شفافة ذات طبقات متعددة، ويمثل قطاعاً خاصاً من خبرات الفنان، ويشكل بهذا عنصراً بنائياً هاماً من عناصر الصورة. ويتضح هنا المعنى الكامل لكلمة الفنان: «أنا والصورة واحد»، إذ نتبين التطابق بين هذه الكلمة وبين تصريح الفنان في بداية الرحلة: «مادة وحلم في نفس الوقت، وأنا كعنصر ثالث يندمج فيهما».

ونجد المادة المصورة هنا بالمقارنة بلوحة «قيروان أمام الباب» وقد ازدادت ثراءاً، إذ تضفي على اللوحة طابعاً اسطورياً حلمياً (Märchenhaft) وفي نفس الوقت هي مادة بالمعنى الذي يقصده الفيلسوف برجسون، وبالتالي بمفهوم بول كليه، فالمادة هنا تعتبر حالة كيفية كنتيجة للعديد من الصور التي شاهدها وعاشها الفنان. فسطوح القباب الموزعة في المربعات تشبه منظر الأفق، ونرى فتحات النوافذ مكبرة تنساب إلى أسفل كعناصر مستقلة في اللوحة. أما الاقتصاد في خطوط القباب، وما تتصف به هذه الخطوط من طابع شعري، وكذلك معمارية تكوين هذه القباب، فلها جميعاً مسحة واقعية.

والاقتصاد في تخطيط القباب يرجع إلى ثراء اللون. هذا الثراء الذي لا يسمح بالتضاد (الكونتراست). فقط في تقسيم المساحات في الجزء الأسفل من اللوحة بواسطة الخطوط المائلة المتقاطعة نرى نوعاً طفيفاً من الثقل المضاد (أو التوازن) لأقواس القباب. على أن الألوان لا تتقيد بالأبعاد الواقعية لمشهد القباب، إذ تتخطى هذا النطاق وتخلق مجالاً خيالياً.

يلفت النظر في طريقة رسم بول كليه خلال هذه الفترة، التي استغرقت أقل من أسبوعين، هو الالتزام بملامح المكان وعناصره المميزة. وكل مرحلة من المراحل تزيد من معرفته للمادة التي يعالجها، بمعنى أنه يزداد إدراكاً ووعياً بهذه



□ لويس موييه، قيروان ١٩١٤، لوحة مائية؛ محفوظة في متحف (Wallraf-Richartz-Museum) كولونيا.

المادة التي يصورها. وهكذا نجد أن اللوح المائية الأولى في كل مرحلة من مراحل الرحلة تتميز بماديتها أي بميلها إلى تصوير المناظر المرئية بطريقة ملموسة (كما في «تونس» و «منظر من سان جرمان» و «الحمامات والجامع» و «قيروان امام الباب») أما الأعمال التالية لها، فنراها تتحرر باطراد من عناصر الطبيعة المشاهدة، ونصل في النهاية إلى مرحلة يصبح فيها الموتيف أو العنصر هو مجرد موتيف أو عنصر من عناصر اللوحة.

أما اللوح المائية، الثلاثة والثلاثون، التي رسمها أوجست ماكه في هذه الفترة، التي لم تستغرق أكثر من أسبوعين، فيصعب جمعها تحت مفهوم واحد، بخلاف الأمر في لوح بول كليه. ومرد ذلك طريقة ماكه الخاصة في الرسم. ولذا نقتصر هنا على مراجعة بعض لوحه التي نرى فيها نوعاً من التشابه أو التوازي مع لوح لويس موييه. في سان جرمان رسم ماكه لوحته «منزل يكسوه الضوء» (Helles Haus). سطح هذه اللوحة مقسم إلى مربعات، ويتوسطها البناء، وتحد البناء من الجانبين أشجار النخيل. ويتكون الثلث الأعلى والثلث الأسفل من اللوحة من مناطق لونية واضحة، تشكل نوعاً من الكونتراست بالنسبة لمربعات اللون المتداخلة في الوسط، هذه الهندسة الشكلية تتناسب مع الألوان، التي لا تتقيد بألوان الطبيعة فالاتجاه البنائي أو التركيبي هنا يؤدي إلى ترجمة المضمون الانطباعي إلى عناصر، تستهدف قبل كل شيء توزيع الثقل على جوانب اللوحة. لهذا الديالكتية بين المكان والسطح طابع دينامي. فالبناء أو المنزل مكون من تكعيبات ذات أبعاد ثلاثة، متداخلة ومترابطة بإبداع، ثم عن طريق التدرج اللوني، عن طريق المربعات داخل المبنى، يكسب البناء ابعاده ويكتسب عمقه المكاني، هذا

بينما مساحات الأشجار التي تنساب وتتداخل تكون مجالاً مضاداً (كونتراست) لمساحات اللون المتناسقة المحددة في دقة، وتضفي بذلك نوعاً من اللامعقولية أو الخيال على اللوحة.

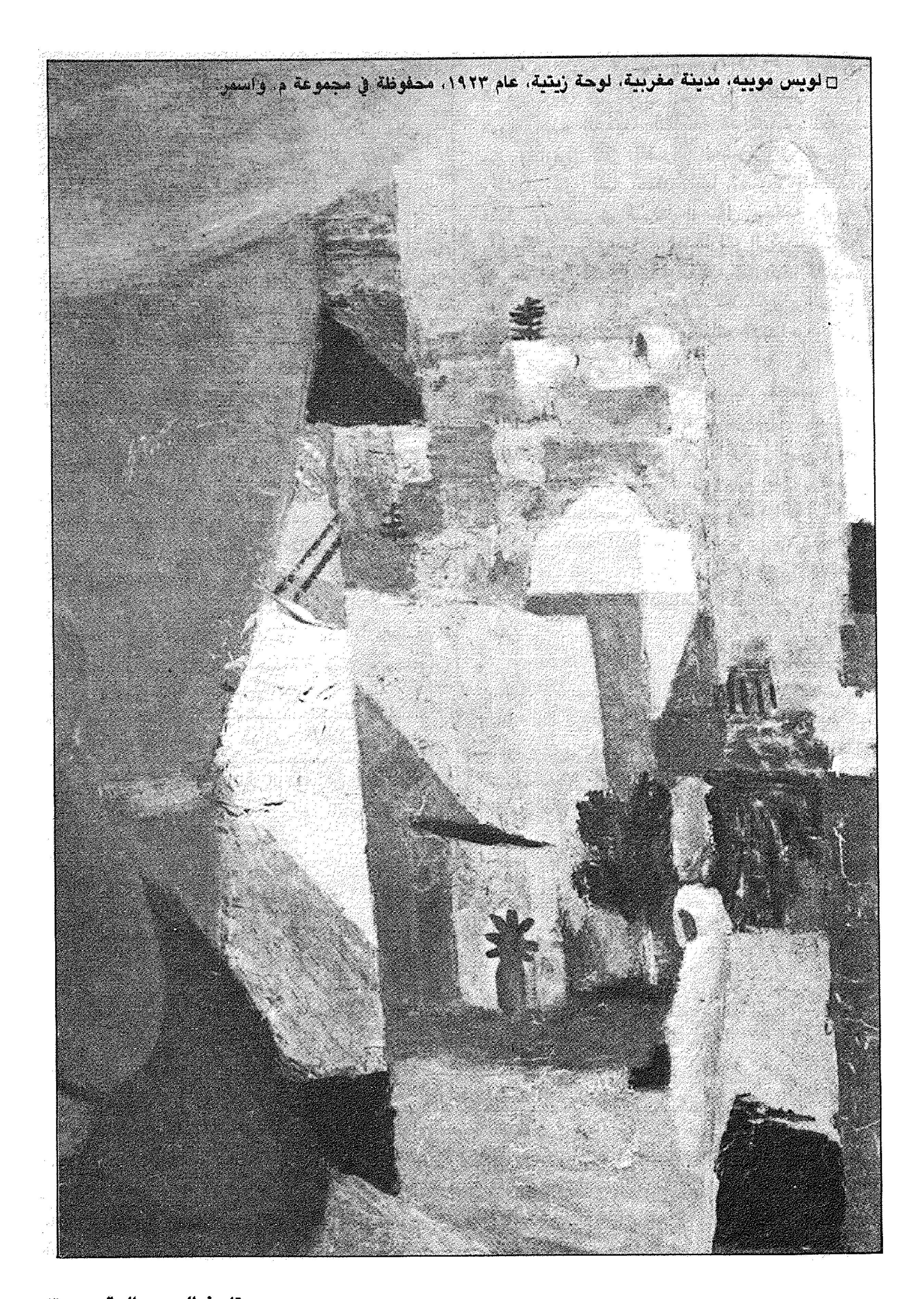
وقيروان رقم ٣ (Kairouan) هي أيضاً لوحة مائية تشبه من حيث نوعيتها اللوحة السابقة «منزل يكسوه الضوء» (Helles Haus)، فنرى هنا عناصر المباني، والنباتات، وعناصر أخرى من ذكريات الفنان تتحد في وقع نغمي مع الخطوط الرأسية المتوازية. ونرى خطين مائلين في الجزء الأسفل من اللوحة، ينتهيان بتصوير لشخص في طرف اللوحة (ويفكر المشاهد في منظر ناظر أو مشاهد يعقد يديه خلف ظهره). ويقتصر المكان على بعد واحد، على تصوير السطح، هذا إذا استثنينا إشارة طفيفة ذات أبعاد ثلاثة، على أن تقاطع الخطوط يوحي باستمرار بهذه الأبعاد.

هذه اللوحة تذكرنا بلوحة كليه «قيروان أمام الباب» (Kairuan vor dem Thor). حيث نرى موضوع اللوحة الخارجي أي مادتها وقد مر بوعي الفنان وسقطت عنه ملامحه المباشرة، ومع ذلك تحمل اللوحة في طياتها شذرات أو بقايا ما علق بالذهن منه، ولولاها لانعدمت الصلة تماماً بين اللوحة وبين مشاهد الطبيعة الافريقية. ولكن الأمر يختلف في لوحة ماكه المذكورة. فالشخوص ــ على سبيل المثال ــ في المربع غير المنتظم في الجانب الأيمن للوحة قد رسمت بطريقة تلقائية، بطريقة يتحد فيها الشعور (أو الذكرى) والوعي. بل وتكوين الصورة إجمالاً يبدو كانعكاس مكثف للملامح والصفات المميزة لمدينة قيروان (مثل قمم الحوائط الدائرية ونهايات الأبراج...) على أن إضافة مثل هذه العناصر الغريبة على المشهد ظاهرة متكررة عند موييه. فنراه يضيف شجيرة من شجيرات الصنوبر وسط تكوين تكعيبي في اللوحة الزيتية «مدينة في مراكش» (Stadt in Marokko) وفي اللوحة المائية «منظر من قيروان» (Ansicht von Kairouan)، ولكن ليس لهذه الاضافات المغزى الروائي الذي نصادفه عند ماكه ففي لوح موييه هي دائماً عناصر لابراز تكوين المكان أو تأكيد الايقاع، وتختلف بهذا أيضاً عن العناصر الشكلية في لوحات كليه المائية، التي لها دائماً طابع الاشارة أو الرمز (Zeichen-charakter).

أما اللوحة الأخيرة لماكه، التي نريد تأملها في نهاية هذه المراجعة، فتعود إلى صيف عام ١٩١٤، وتحمل عنوان (Kondarn I). ومثلها في ذلك مثل لوحة «أشجار الكروم على بحر المورتن» (Weinberge am Murtensee) (أيضاً من أعمال صيف ١٩١٤)، فهي تبرز بوضوح مدى تأثير ماكه على لوح موييه المائية التي تعود إلى عامي ١٩١٦ و ١٩١٧. وكالأمر في لوحة «مصنع في بولى» (Fabrik in Pully)، نرى في خلفية الصورة شارعاً يتجه من اليمين إلى اليسار. ونرى الخطوط اللونية تؤكد الاتجاه وتؤكد العمق. ونرى زانة في وضع عمودي في وسط اللوحة، لها ــ كما هو الحال عند موييه ــ وظيفة مكانية أي توسيع رقعة المكان وخلق أبعاد المكان. أما أوجه التشابه والتوازي الهامة بين ماكه وموييه فتكمن في استخدام الألوان، وفي التوتر الذي يتسم به تركيب السطح، حيث نرى مكعبات المنازل والطبيعة المحيطة بجانب منحنى الطريق وقد غطت بمجموعات تربيعية مستقلة. فهذا التبادل بين العناصر المسطحة والعناصر المكانية المجسمة في مساحة واحدة نصادفه كثيراً في لوح موييه.

ما هي الفروق الأساسية بين أعمال بول كليه وأوجست ماكه؟ لعلها تبدو في المقام الأول في التفاوت في عمليات التجريد، وهذه الفروق تعود أخيراً إلى الاختلاف بين شخصيتي هذين الفنانين.

ماكه يمارس فنه بعفوية وتلقائية، وتحتفظ الطبيعة ــ لهذا ــ بسيماها وملامحها الظاهرية. واللون عنده يرتبط بالمشهد أو الشيء المصور، ويخضع لتنوع كبير. وهذا بخلاف كليه: فالطبيعة تفقد في لوحاته وجهها، وتصير تركيباً يرتبط بموضوع معين، فتبدو قطاعاً من حقول تربيعية، تتضمن الطبيعة المشاهدة في داخلها. واللون يحدد ذاته عملية التشكيل ونوعيته، فلا نجد هنا تفاوتاً وتقابل، وإنما نرى تناسقاً، فالصورة تتكون وتنضج من الداخل. بهذا المعنى يكتب فالتر هولزهاوزن (W. Holz-hausen): «في عدة لوح مائية استخدم كليه نظام «المربعات الصغيرة» لكي يصور الطبيعة. في هذا النظام



□ لويس موييه، مدينة مغربية، لوحة زيتية، عام ١٩٢٣، محفوظة في مجموعة م. واسمر.

يكمن ــ سواء أراد الفنان أم لم يرد ــ نوعاً من الاكتفاء. وهذا بدوره يمكن كليه من رؤية الطبيعة رؤية داخلية، يعبر من خلالها عن فكره ونفسه». فإذا كان الشكل يقود إلى اللون في لوح ماكه، فإن اللون يخلق للاشارة أو الرمز إطارها في لوح كليه.

وما هو موقف موييه؟ ولو انه من العسير أن نقارن أعماله الكاملة بعدد قليل من اللوح التي رسمت في فترة وجيزة محددة، إلا أنه من المستطاع أن نقول اننا نصادف في أعماله ــ كما هو الحال عند بول كليه ــ ظاهرة تطهير المادة وتحويلها إلى شيء فكري ونفسي عن طريق عملية التجريد، نصادفها مركزة ومكثفة عن طريق التكرار والمعالجة المستمرة. كذلك التوتر الذي يلازم تركيب التربيعات عند ماكه، هو أيضاً من خاصيات موييه، على أنه بخلاف ماكه لا يرمي على الاطلاق إلى ترجمة العناصر المشاهدة (الموتيفات) ترجمة روائية تلقائية، وإنما يرمى دائماً إلى تفسير الطبيعة تفسيرا مركبا، ويهدف إلى خلق مساحة لونية يتخللها ضوءاً ذهنياً، وتتضمن في نفس الوقت الطبيعة في صورة حلمية أو رؤية (Visionary visionär).

مكانة لويس موييه الفنية

«هو واحد من كبار الرسامين المائيين المعاصرين ومن رسامي الزجاج السويسريين الهامين». بهذه الكلمات يقدم «قاموس الفنانين السويسريين في القرن العشرين» الفنان لويس موييه. هذه الصيغة القاطعة قد تدهش العديد من العارفين بفن القرن العشرين في فرنسا والمانيا. على أننا نعتقد انها تصيب الحقيقة. فتاريخ الفن في قرننا الحالي يحكمه الرواد ولم يكن موييه رائداً... فإنجازاته الرئيسية تكمن في خلق مجموعة أعماله المائية الفريدة. فاللوحة المائية ليست جزءاً جانبياً مكملاً للروح الزيتية، وإنما هي غايته الأولى ووسيلته الإبداعية، التي تعبر عن برنامجه الفني.

في تقريره عن معرض لموييه بمتحف الفن بمدينة بازل عام ١٩٦١ عبر بول نيتسون (Paul Nizon) بتوفيق عن المركز الذي تحتله اعمال لويس موييه، فقال: «في إطار واضح وبواسطة المقاييس المألوفة يقدم هذا العمل الفني نفسه... وعلينا أن نتأمله ونتمعنه ونقيس أبعاده، بعيداً عن ثقل اسم فنان شهير وعن فكرة العمل الريادي وعن فكرة المساهمة الابداعية في تطوير الفن...».

وواضح أننا أمام فنان، قد ألم بمؤثرات عصره وارتفع بها من الاطار القومي المحلي إلى إطار ارحب واسع. وإذا طرحنا فكرة المساهمة في تطوير الفن جانباً، سنكتشف نوعية فنية، تفوق ــ في بعض الحالات الفردية ــ أعمال مشاهير الفنانين...



● «لا نريد تنمية قومية، ولكن نريد تنمية روحية. لا نريد قوى عقلية، ولكن نريد روحية اكثر. لا نريد معرفة اكثر، ولكن نريد أخلاقاً اكثر. لا نريد قوانين اكثر، ولكن نريد عقيدة اكثر، لا نريد كثيراً من الأشياء التي ترى، ولكن نريد الكثير من الأشياء التي لا ترى».

(كالفن كولدج)

● «قد تكون الفلسفة طاقة. فقد تجد لها هدفها وتأثيرها في تحسين الجنس البشري».

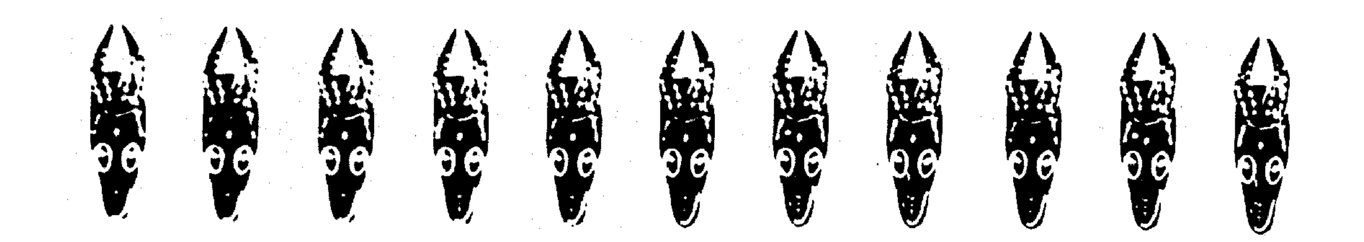
(فيكتور هيجو)

● «قبل أن تحاول إقناع الآخرين تأكد أنك مقتنع، وإذا لم تستطع إقناع نفسك فاترك هذا الموضوع».

(جون هـ. باترسون)

● «في الحياة العملية كل مشروع عظيم يبدأ ويأخذ خطواته الأولى للأمام بالايمان».

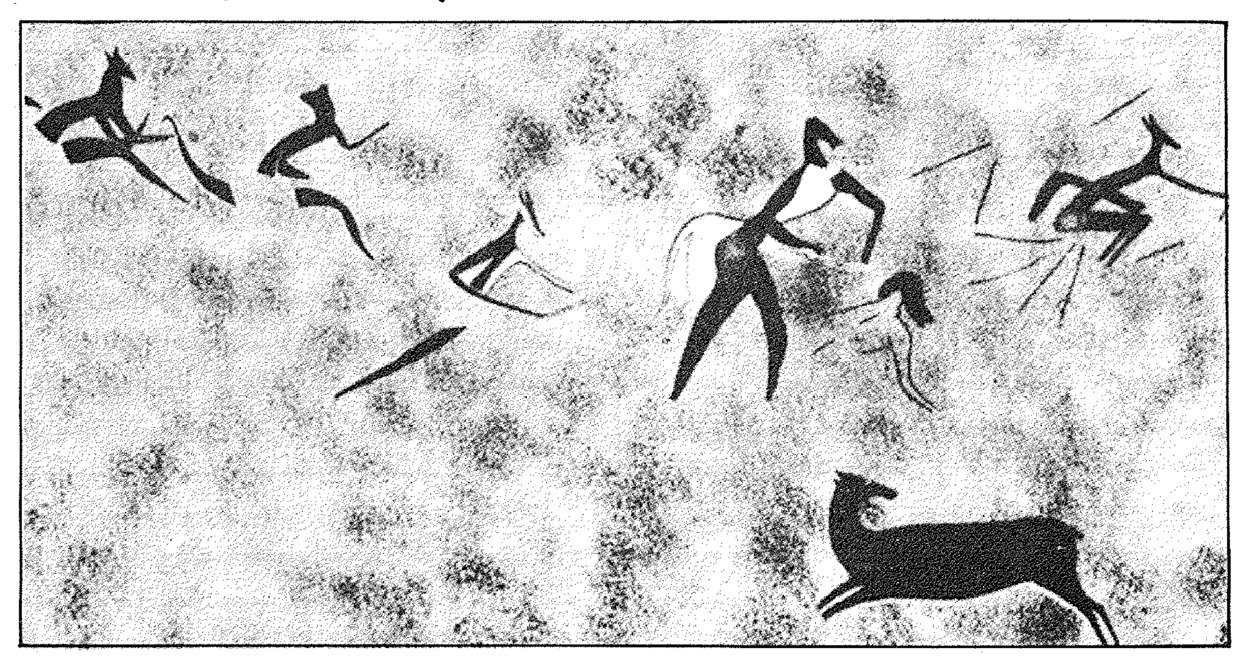
(شلجل)



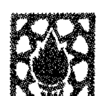
الفن البدائي في افريقيا

فن رجال الأدغال

عبد الرازق عبد الغفار



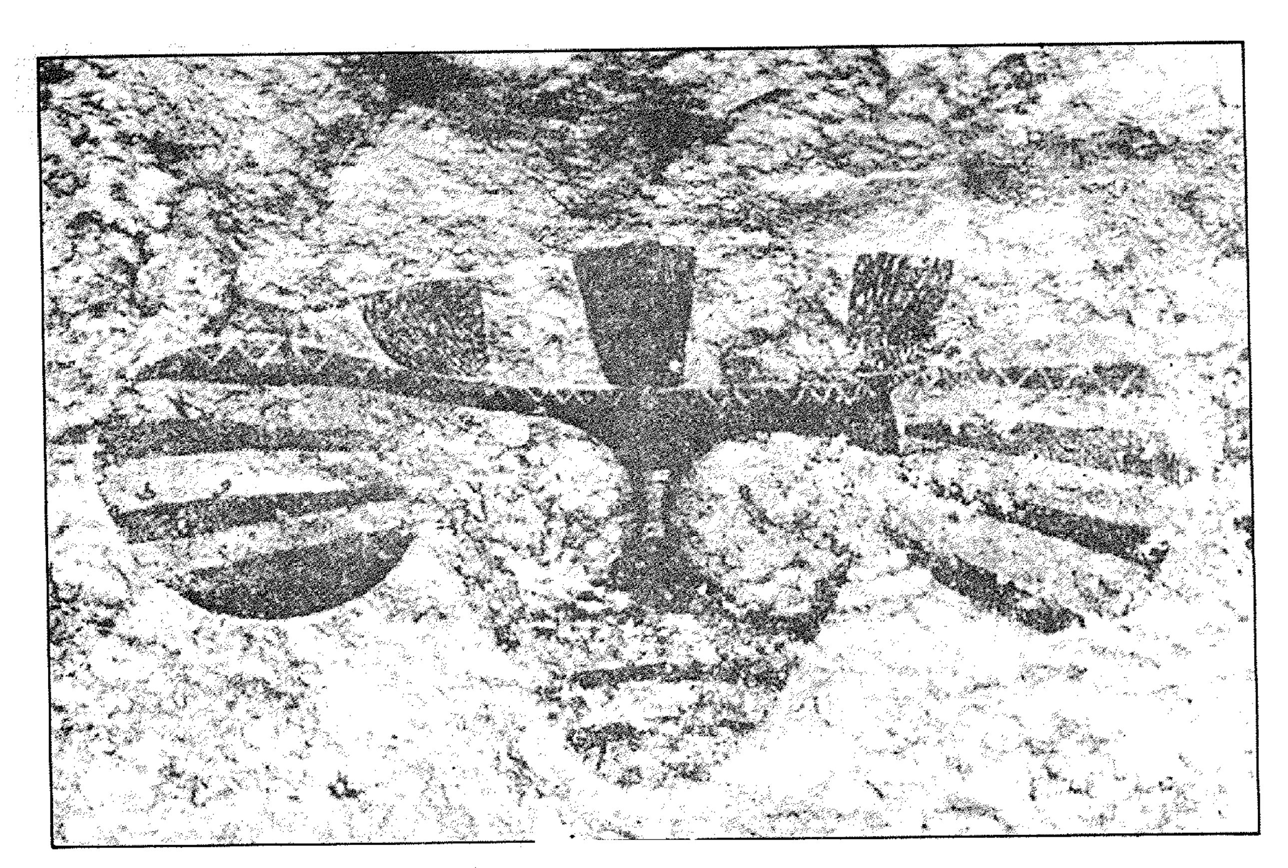
□ قناصون برؤوس حيوانات.



تعتبر هذه المدرسة معلماً من معالم الفنون الأفريقية، ومدرسة فريدة من مدارس الفن عامة، ولقد أثار اكتشافها زوبعة في أوساط البحث والعلم والفن لما تميزت به الأعمال من جمال أخاذ، وإبداع غريب، ومستوى لم يسبق إليه مثيل.

وعرفت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى القبائل التي كانت تعيش في بقاع أفريقيا المعشوشبة جنوب خط الاستواء. وما زال بعض أفراد هذه القبيلة يعيشون إلى اليوم في بعض جهات جنوب أفريقيا ـ ولكن يبدو أن الزمن قد نال من قوة فنهم فما عادت القبيلة تمارسه بذلك المستوى، فانتهى الآن إلى زخارف هندسية ضعيفة تجري على بيض النعام.

وكما نال الزمن من أثرهم الفني، فإن القبيلة قد تناقص عددها. وقلت حيويتها وتكاد تكون في طريقها إلى الانقراض. ويتميز هؤلاء القوم بلون بشرتهم «الفاتح» المصفر وهم رعاة ورجال صيد



□ تفصيل للقناع الأوسط على جدار حجري مع تأثير بالفن المصري.

ولا يعرف على وجه التحقيق متى كان ظهورهم أو من اي أصل جاؤوا فهم ليسو زنوجاً. والاعتقاد السائد أن مدنيتهم بدأت حول بحيرات أفريقيا الشرقية ومن ثم انتشرت في القارة كلها ــ حول بحيرة تنجانيقا وجنوب أفريقيا وفي وسط الصحراء وغربها.

ولقد تأثر فنهم بنمط الحياة التي يعيشونها، فهم رعاة ورجال صيد كما قلنا. شميتهم التنقل إلى حيث يسهل العيش. فكان فنهم طبيعياً يأخذ من واقع الطبيعة تفاصيلها ودقائق حركاتها مما اختزن في خياله منها. وكانت معظم أعمالهم تسجيلاً جميلاً لحيوانات وآدميين في أوضاع مختلفة، وحركات عجيبة تنبض بالحيوية. بعضها صور بالألوان وبعضها رسوم ــ خطوط نحتت على الحجر. يتوقف ذلك على طبيعة المكان والبقعة التي يستقرون بها. ولقد بلغ هؤلاء القوم مهارة عظيمة في التعبير عن الحركات. وقدرة فائقة في رسم الإنسان والحيوان في أوضاع من زوايا مختلفة ــ من الأمام ومن الخلف ــ مما يعتبر حدثاً فريداً في دنيا الفن في تلك العهود، فإن معظم آثار الفن البدائي إن لم تكن كلها ــ التي وجدت عند غيرهم في أغلب بقاع العالم كانت تتخير الأوضاع الجانبية وتميل إلى التسطيح ــ لا أثر للبعد فيها أو أي معرفة بأسرار التطور واهم ما يلفت النظر في أعمال هذه القبيلة هو استعمال الألوان. ويبدو أن الفنان قد وصل مستوى بعيداً في معرفة الألوان وتحضيرها وابتكار أدوات الرسم ــ فكانت مجموعة الألوان التي يستعملها واسعة المدى. فقد شملت الأزرق الذي لم يكن معروفاً عند أحد من قبل، وشملت الأحمر والبني والأصفر والأبيض والأسود والرمادي والبنفسجي. وهي مجموعة كما ترى يفخر بها أي عهد، وقد كانت معظم صور الفن البدائي لا تتعدى ألوانها الأحمر والبني. وكان فنان رجال الأدغال يتخذ ألوانه هذه من الأرض يسحنها بالحجارة ثم يخلط الألوان بشحم الحيوانات فيكون له خليط تخين يشبه ألوان الزيت التي يصور بها فنانو اليوم. ولقد ابتكر أيضاً، من عظام الحيوان الدقيقة المجوفة التي يهذبها بالحجارة المسننة، ما يشبه سكين خلط

الوان الزيت المستعملة الآن. ومن هنا تمكن الفنان من إخراج تلك الخطوط الدقيقة المعبرة وتلك الألوان البراقة الباقية رغم عواصف الطبيعة، ثم اختيار الدرجات المناسبة في اللون للظل والضوء. إن مستويات هذا الفن ما زالت تثير إلى الساعة أنبل العواطف وأعمق الأفكار.

ولعل الظاهرة الملفتة للنظر في هذا الفن هو التشابه العجيب بينه وبين فنون رجال الكهوف في جنوب اسبانيا والمدرسة الأخرى التي اشرنا إليها في شمال أفريقيا في الصحراء جنوبي جبال الأطلس. إن الشقة الزمنية التي تفصل بين هذه المدارس هائلة جداً — ففن رجال الكهف وشمال أفريقيا يرجع تاريخه إلى العصر الحجري القديم ٢٠,٠٠٠ — ١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً بينما يعتبر فن رجال الأدغال فناً معاصراً تقريباً فمنه ما أنتج في القرن التاسع عشر. وليست ظاهرة التشابه هذه بين فنون تفصلها قرون طويلة في الزمن ومسافات بعيدة من المكان هي الأولى من نوعها في تاريخ الفن فلقد تكررت من قبل وأشرنا إليها. ولكنها في هذه الحالة بالذات تتميز بأنها تنقل إلى القرن العشرين مثالاً حياً للعقل الفني لإنسان العصر الحجري القديم.

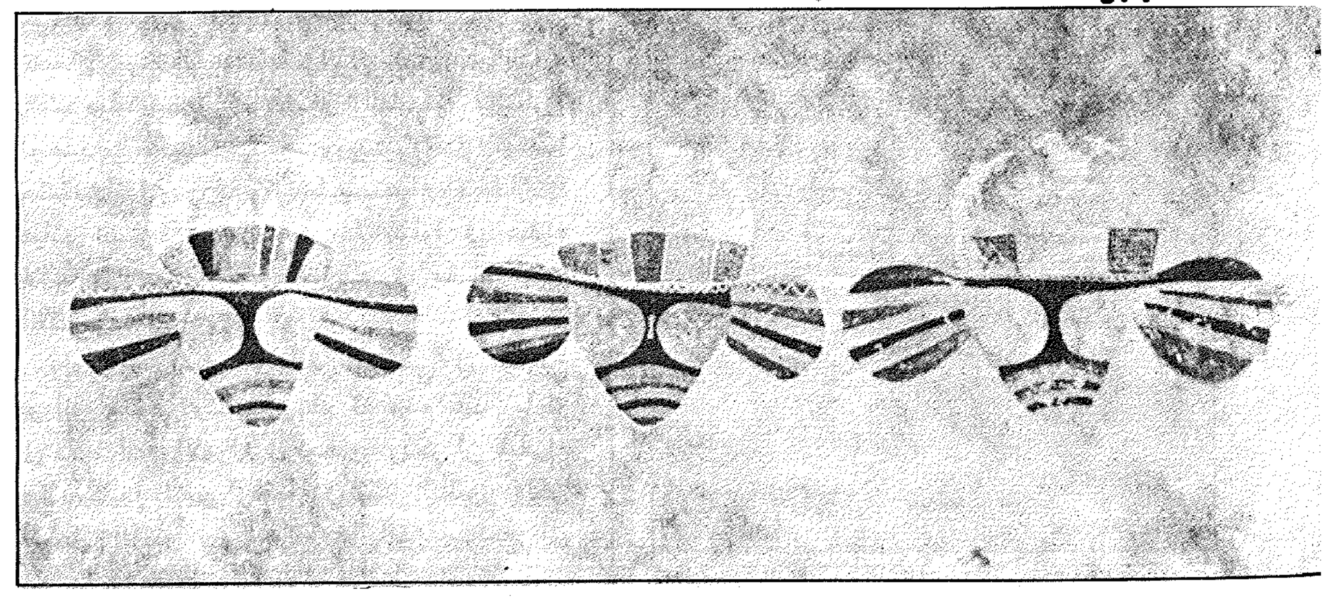
ويقيناً أن الظروف المتشابهة تجعل الخلق الفني يسلك دروباً متشابهة. أي أن حياة رجال الكهوف ورجال الادغال ما كانت تختلف كثيراً، فقد كانوا رعاة وصيادين. واتسمت حياتهم بالنزوع إلى الفردية والاستغلال ويربطهم ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة — وقد قادتهم تلك الحياة إلى الاعتقاد في السحر. وشيء آخر أن الفن عند الإنسان البدائي كان وظيفياً في أغلب أحواله يخدم غاية محددة في المجتمع فإذا اتحدت منابع الفن ودوافعه وغاياته كان من الطبيعي هذا التشابه.

ومهما يكن من أمر فإن أعمال رجال الأدغال هي فن أصيل، أثرى جوانب الفن الجميل، وزاد آفاق المعرفة والثقافة الانسانية، وعمق معاني الحياة البشرية.

الفن البدائي في أفريقيا
الفن الزنجي

أما الأعمال الفنية التي أحدث اكتشافها انقلاباً في دنيا الفن العالمي. وطبقت شهرتها الآفاق، وما زالت إلى اليوم مصدر وحي وإلهام لكثيرين من فناني العالم وحررت أسارهم من قيود التقليد، فقامت على أثر اكتشافها مدارس خاصة في الفن الحديث — هذه الأعمال هي ما عرف بالفن الزنجي وتختلف هذه الأعمال الفنية عن غيرها من الفنون الأفريقية التي ذكرناها سابقاً اختلافاً بيناً في المادة والطريقة

□ اقنعة الزنوج مختلفة الاشكال ذات طابع مصري.

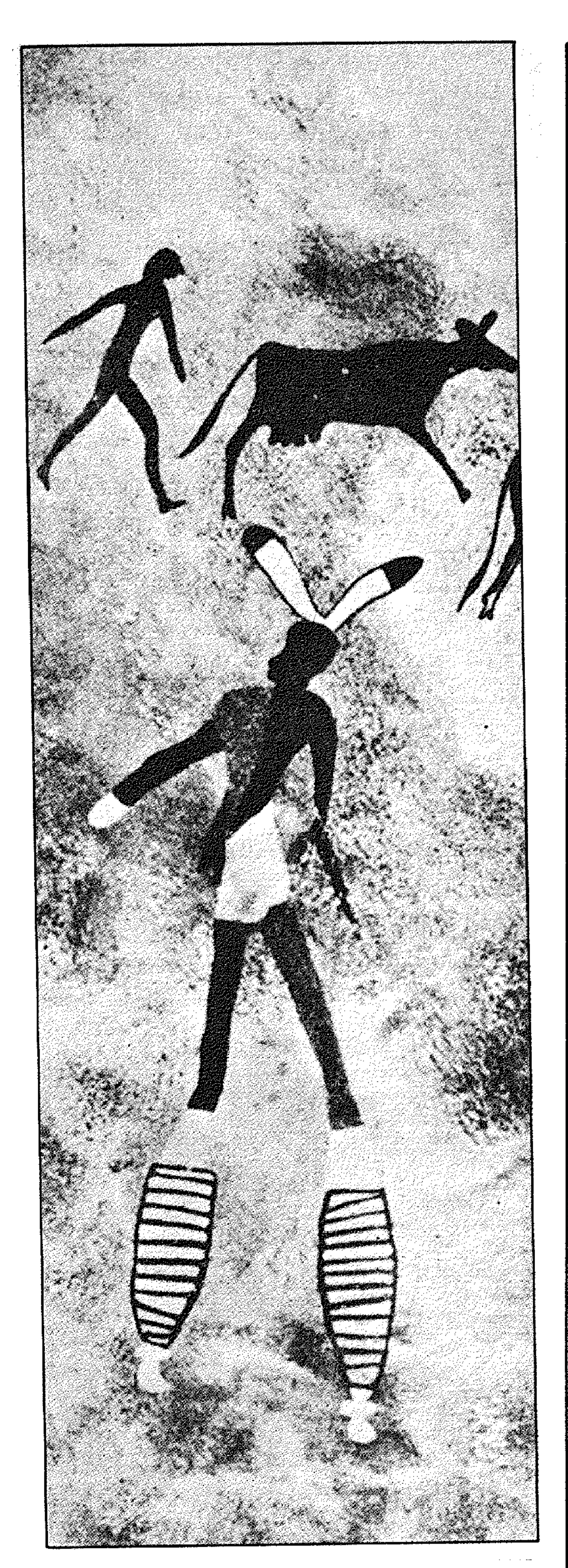


والنظرة الفنية. ويرجع هذا التباين إلى الظروف الاجتماعية التي يعيشها الرجل الزنجي ورجل الأدغال. فكانت القبائل الزنجية تعتمد على الزراعة فكونت مجتمعاً مستقراً بخلاف رجل الأدغال الراعي الصياد الفرد المستقل المتجول تدفعه لقمة العيش إلى الرحيل إلى حيث يلقاها. وكذلك اختلفت العقائد والفلسفة. فالزنجي كان يؤمن بوجود عالم آخر. عالم روحي يسيطر على ظروف حياته، والثاني يؤمن بالسحر ويعتمد عليه في متاهات وجوده.أن هذا التباين قد خلف اوضاعاً كثيرة في المجتمع أثرت على نوع الفن واتجاهات الفنان، فجاء الفن الزنجي فناً تشكيلياً ـ تماثيل في الصلصال والحجر والبرنز والعاج والخشب ووجوهاً مستعارة. واقنعة ولعباً ودمى كثيرة. تعبر كلها عن العقيدة الروحية التي يعتنقها الجماعة. وتستعمل في خدمة الطقوس الدينية المتعلقة بها ـ فهو فن وظيفي يواكب فلسفة روحية.

ويوجد هذا الفن في النصف الغربي من افريقيا في المنطقة الواقعة بين السنغال غرباً إلى تشاد شرقاً وتمتد إلى خليج غينيا جنوباً وفي جنوب هذه الرقعة في المنطقة التي تمتد من المحيط الاطلنطي غرباً إلى البحيرات الاستوائية شرقاً بما فيها أنجولا والكنغو (الازاندي) وكذلك يوجد بشكل موزع بين بعض القبائل في منطقة افريقيا الشرقية وبعض القبائل النيلية.

اما القبائل التي تأثرت بالاسلام في هذه المنطقة. فقد اتجهت في نشاطها الفني إلى الأعمال الزخرفية شأنها في ذلك شأن كل البلاد الاسلامية. فحورت الأشكال الطبيعية وابتكرت الوحدات الهندسية. وزينت بها آنيتها ومنسوجاتها ودورها وكل ما يستعمله الانسان في حياته اليومية. وهو فن بلغ شأوا في مداه الابداعي وربما تعرضنا له في مقام آخر بالتفصيل.

واول من أشار إلى الفن الزنجي في التاريخ هو ابن بطوطة وذلك في عام ١٣٥٢م عند زيارته إلى بلاط أحد الأمراء في نيجيريا وذكر أن شعراء البلاد كانوا يلبسون اقنعة في شكل الطيور. ولكن الفضل الأكبر في شهرة هذا الفن يرجع إلى الأوروبيين الذين توافدوا على شواطىء غرب



□ الزنجي الراقص والساقان المشدودتان.

افريقيا في القرن الخامس عشر وبعده وأولهم البرتغاليون. وقد نسب كثيرون إليهم إدخال صب البرنز في افريقيا. ولكن يبدو أن الفن كان في قمته عند زيارة البرتغاليين إلى منطقة البنين (BENIN) في نيجيريا فإن كثيراً من تماثيل ذلك العهد الجميلة كانت تصور البرتغاليون انفسهم... وكان مستواها رفيعاً لا يدل على نشأة قريبة العهد.

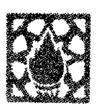
ولقد اشتهرت التماثيل المصنوعة من الخشب في غرب افريقيا ونقلت منها كميات كثيرة إلى أوروبا وملأت المتاحف. وهي التي عرف بها الفن الزنجي كله — وكانت هي سبب ما كسبته افريقيا من شهرة في دنيا الفن العالمي. ثم تسابق الناس إلى اقتناء ذلك التراث من كل بلاد أفريقيا حتى أفقروا البلاد من ثروتها.

وتوجد في نيجيريا تماثيل من البرنز والصلصال والحجر وتميزت قبائل البنين وأيفي (BENINE IFE) في طريقة صب البرنز مما يعتبر فلته من فلتات المهارة النادرة وكان الفن عندهم ينتج في خدمة البلاد وتمجيد الآباء والأجداد — ولعل التماثيل التي وجدت في منطقة (IFE) هي اجمل ما وصل إليه هذا الفن وهي صور حية لآدميين حقيقيين ولذا جاءت عملاً اقرب إلى المستويات الكلاسيكية والرومانية مما أثار الشك حول صانعيها وباعد بينها وبين العراقة الأفريقية.

ويرجع جمال التماثيل الأفريقية هذه إلى قوة التعبير مع الايجاز البليغ والقدرة الهائلة على رؤية الشكل الأساسي وتبسيط الأمور إلى أقصى حدودها. ثم الانطلاق بغير قيود إلا ما تفرضه طبيعة المادة التي يعمل بها الفنان والاله التي يشكل بها. وبالرغم من أن هذا الفن واقعي يأخذ من الطبيعة ويرصدها ولكن الفنان الافريقي يرى الواقعة بعين مختلفة. ثم انه كان يعمل في سبيل عقيدته فناً يؤكد الجوانب الروحية. فجاءت اشكاله على غير ما تعودنا عليه. فإن النسب كما نعرفها مفقودة والأوضاع جديدة علينا وغريبة. إنه يؤكد الجوانب التي تحمل إلى مجتمعه المعنى المقصود في تأكيد ووضوح.. ومن هنا كانت لهذه التماثيل نكهة مختلفة ولكنها تشع بالروحية والغموض الموحى، فألهمت الفنانين في الغرب ودفعتهم إلى التجديد والخروج على المألوف الذي درجوا عليه طويلاً.

وكانت سوق الفن بين هذه القبائل الأفريقية رائجة ورابحة جعلت الفنان يعيش في رغد من العيش واطمئنان نفسي كامل. وكانت وظيفة الفنان ذات اعتبار خاص، فهو يعفى من كل المسؤوليات الجماعية التي يدعى لها أفراد القبيلة حتى يتفرغ هو لعمله. هذا ويقبل عامة الناس على أعمال الفن ويشترونها لأسباب مختلفة — فبعضهم يطلب تماثيل لتخليد ذكرى الآباء والأجداد. وبعضهم يشتري لعباً ودمى تستعمل رقيه لتجلب الخير أو تبعد الشر كما يعتقدون. وبعضهم يتخذه زينة يتأملها. وكثيرون يلبسون الأقنعة في ساعات الرقص والاحتفالات في مختلف المناسبات — وكان لبلاط الأمراء والحكام أكبر الأثر في تشجيع الفن فقد كانت قصورهم تمتلىء بأعمال الفن.

هذه السوق الرائجة، والتقدير الجماعي، هي التي جعلت الفن الزنجي يحتفظ بتلك القوة الخلاقة والابداع الفريد، وينال هذه الشهرة التي طبقت الآفاق وسحرت الفنانين في العالم وأوحت لهم بأسلوب جديد ونمط مبتكر. •



● «الحقائق عندما تجتمع مع الأفكار تنشىء أعظم قوة في العالم. أعظم من الأسلحة.. أعظم من الأموال.. أعظم من العلم والأعمال والقانون.. لأنها تكون القاسم المشترك لكل هؤلاء».

(كارل و. اكرمان)

● تقرير عن المخطوطات العربية في نيجيريا الاتحادية

صدر عن معهد المخطوطات العربية ـ الكويت تقرير عن المخطوطات العربية في نيجيريا الاتحادية، أعده الطبيب عبدالرحيم محمد، وقام بمراجعته واختصاره مدير المعهد الدكتور خالد عبدالكريم جمعة. وقد استهدف هذا التقرير تقديم صورة واضحة ودقيقة عن أماكن وجود المخطوطات العربية هناك، وعن أعدادها وحالتها، ومدى قيمتها وأهميتها، من خلال استعراض تاريخي موجز لمراكز المخطوطات، وإيراد قوائم بأهم ما فيها، تتضمن الاشارة إلى اسم المؤلف، المخطوطة، عدد صفحاتها، عدد النسخ، مكان الوجود ورقم الملف أو البطاقة، الموضوع إن أمكن.

ففي مركز البحوث وجمع المخطوطات بجامعة بايرو الذي يسمى الآن بمركز الوثائق يوجد حوالي أربعة آلاف مخطوطة في التاريخ وغيره من العلوم، بالاضافة إلى رسائل الماجستير والدكتوراه المقدمة إلى الجامعة، وبحوث المؤتمرات العالمية والمحلية، فضلاً عن التسجيلات والتقارير الحكومية وغيرها.

ومن أهم المخطوطات المحفوظة ـ في هذا المركز: أجوبة محررة عن أسئلة مقررة، إحياء السنة وإخماد البدعة، إرشاد الأمة إلى تيسير الملة، تحذير الاخوان من ادعاء المهدية آخر الزمان، للشيخ عثمان بن فودي المتوفي ١٨١٧، ومنها أيضاً: الفية الأصول، العادات وضرورة إخضاعها للتوجيه الإسلامي، ضياء أهل الاحتساب، ضياء الحكم فيما لهم وما عليهم من الأحكام، ضياء السياسات وفتوى النوازل، لعبدالله بن فودي المتوفي ١٢٤٥هـ.

وفي مركز التاريخ بولاية سكتو مجموعة من المخطوطات الأصلية والمصورة على ميكروفيلم. والمركز يحتوي على ثلاث صالات، الأولى تضم خرائط ورسومات عن انتشار نفوذ خلافة سكتو في غرب إفريقيا ووسطها وشرقها، والثانية تضم كثيراً مما يتعلق بالمغامرين الأوروبيين الذين ادعوا أنهم اكتشفوا افريقيا. أما الثالثة ففيها قائمة من المراسلات الدبلوماسية للوزراء، ومختارات من المخطوطات العربية الأصلية والمصورة.

ومن مخطوطات المركز: إنفاق الميسور، الاشاعة في حكم الخارجين عن الطاعة، تنبيه أهل الفهوم على وجوب اجتناب اهل الشعذبة والنجوم، القول المختصر في المهدي المنتظر، لمحمد بيلو المتوفي ١٢٥٣هـ.

ويضم متحف جوس أكثر من الف مخطوطة، جلب معظمها من شمال افريقيا والشرق الأوسط، وتوجد لها قائمة وصفية نشرها الدكتور ا. س. عارف، بالتعاون مع ا. م. ابو حكيم عام ١٩٥٦.

ومن اهم مخطوطات المتحف: إرشاد السالك إلى أشرف المسالك لشهاب الدين محمد بن عسكر المالكي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرور لمحمد بيلو، باب الحديث لجلال الدين السيوطي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس، جواهر البحر ليوسف النبهاني، شرح الفاظ العشرينية لخالد الأزهري.

ويعد مركز المخطوطات التابع لجامعة أحمد بيلو من أقدم المراكز، ويحتوي على مخطوطات قيمة جمعت من شمال نيجيريا، منها: تقييد الأرجوزة المرسومة بالسلم المرونق لأبي الفرج سعيد الجزائري، غصب المعاني في اخبار العشاق لأبي الطاهر الخطيب محمد الأول، شرح الرضي على نهاية المرتضى من تحقيق المعاني وتهذيب المباني لأبي محسن المرضي بن الدردور، الفروع لابن الجلاب البصري، تبشير الاخوان بالتوسل بسور القرآن عند الخالق المنان لأسماء بنت عثمان بن فودي، تحفة الظرفاء في أسماء الخلفاء للسيوطي. وفي دار الوثائق الوطنية بكادونا مجموعة لا بأس بها من المخطوطات، منها الأجوبة المحررة عن الأسئلة المقررة، اخلاق المصطفى، أسانيد الضعيف، لعثمان بن فودي، البحر المحيط، تهذيب الاخوان من خصال الشيطان لعبدالله بن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرور، تخميس بانت سعاد لمحمد بيلو.

اما مكتبة عمر الفلكي ـ وهي مكتبة خاصة ـ فقد اشتراها جون بيدان الأميركي من الورثة، ووضعها تحت تصرف مكتبة جامعة ييل، وأعد لها قوائم بالانجليزية، ومن مخطوطاتها: ابشر بالخير لأبي حامد الغزالي، الاسم الأعظم لعمر الفلكي.

البعوث العلمية

في عصر الدولة العباسية

حسن فتح الباب

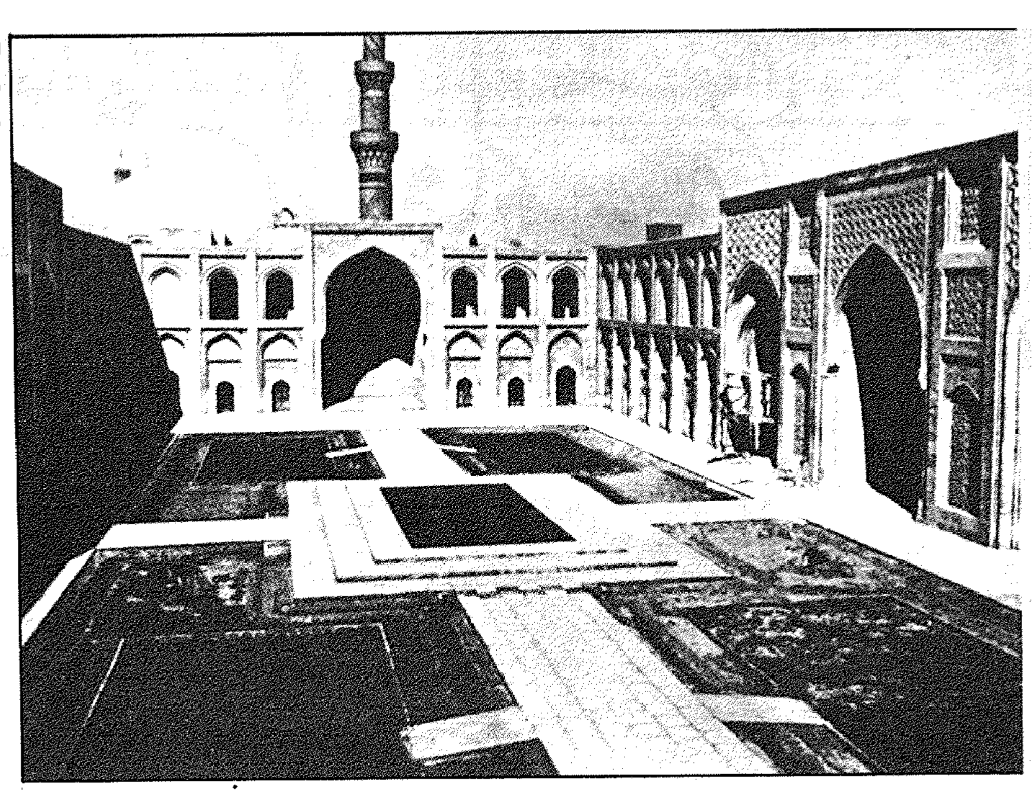


□ الرازي والطب العربي.

كانت الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في العصر الوسيط. فقد امتدت رقعة الاسلام من أطراف الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، كما امتدت أرجاؤها شمالاً وجنوباً. وكانت الامبراطورية البيزنطية آنذاك تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وايطاليا. ولم تكن الحروب هي العلاقة الوحيدة القائمة بين هاتين القوتين الكبيرتين، بل نشأت بينهما في كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقاً لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولي.

ولم تستمر سياسة الفتوح في العصر العباسي كما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، فلم تتسع رقعة الدولة الاسلامية، بل بدأت الحركات الانفصالية تعتريها في أواخر هذا العهد، فكانت في حاجة إلى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها إلى الاستمرار في الفتح. ومن ثم كانت أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم في العام الأول من عهدهم دفاعاً عن دولتهم، وكانت تلك الحروب هي الجانب السلبي للعلاقات السياسية. أما في الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون أكثر من

منظر عام لباحة المدرسة
ستنصرية التي تعتبر من
خر العراق العلمية.



□ قصيدة ابن سينا
«الارجوزة في الطب»
باللاتينية.

الأمويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية.

بعوث إلى مختلف أرجاء العالم

وانطلاقاً من هذه السياسة سارت البعثات الدبلوماسية بين خلفاء بني العباس وبين ملوك القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة والهند والصين، وعقدت بيزنطة مع بغداد معاهدات الصلح وتبادل الأسرى في عهد هارون الرشيد والمأمون والمعتصم، وتبادلت معها البعثات في مختلف الأغراض الرامية إلى توثيق الصلات التجارية، وتبادل الأسرى وفض المنازعات، وعقد المعاهدات. وكان دعم الروابط العلمية والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الاسلامية من أجل تعزيز علاقاتها مع جاراتها، مما يشبه المهمة التي يقوم بها الملحقون الثقافيون في سفارات الدول الحديثة اليوم.

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الاسلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامي أطرافها بازدهار البعوث العلمية بينها وبين الدولة البيزنطية. فتبادل الجانبان الكتب أو الرسائل التي كانت تصاغ في أساليب ودية، ثم دخلا في

AVICENNAE
CANTICA,
AB ARMEGANDO BLASII
DE MONTEPESVLANO
EX ARABICO IN LATINVM TRANSLATA,
ET AB ANDREA BELLVNENSI
CASTIGATA:
cum Auerrois Cordubensis
Commentarijs.

Inquit Aboolit Benroisth



Ostquam prius gratias egero Deo, largienti vitam perpetuam animarũ, & sanitatem corporũ, & medicanti morbos magnos per gratiam, quã contulit omni carni, ex virtutibus sanitatẽ conseruantibus et protegentibus à langore, dante intelligi artem Medicinę, et ingenium sanitatis diuinis, animosis, et intelligentibus: dedi operam ad cõmentandum librũ richimatum, qui intitulatur liber Benchine partium Medicinæ: ipse.n. vniuersaliter concludit eas. Est.n. cũ hoc melior valde pluribus alijs introductionibus & summis in medicina cõpilatis, ordine valde conuenienti ad tenendum mente vel memoria, dilatanti & delectanti animam. Fui autem attentus ad exponendum eius dicta, expositione qua eius certa intentio comprehendat & intelligatur, verborum confusionem & multitudinem postponendo. Qm̃ authores sermonum richimatorũ in actibus sciarum indigẽt quãq; diminutione sermonis & truncatione: necnon etiam mutatione vnius loco alterius explicando suam nobilem intentionem. Et ex nunc imploro diuinũ auxilium ad perficiendum intentionem horum dictorũ, & eximiam speculationem, & laudabilem eorũdem necnõ vt me pducat cũ oibus fidelibus socijs, ad quod ducere debet sui bonitate, & gr̃a, ci⁹ seruitiũ, atq; timor.

مفاوضات أسفرت عن معاهدات لاقرار التبادل العلمي والثقافي. وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التي تتوافر لدى الجانبين أو في مكتباتهما العامة، وتبادل البعثات، وتيسير مهام الطلاب والباحثين في جامعات المسلمين والبيزنطيين وفي عواصمهم.

العصر الذهبي للثقافة

ولا غرو أن يطلق على عصر هارون الرشيد والمأمون العصر الذهبي للثقافة والفكر، وأن تبلغ فيه البعوث الثقافية غاية ما بلغته طوال العصور الاسلامية. ولقد كان عصر الاحياء العلمي بحق، لأنه العهد الذي ارتفعت فيه أعلام الدول الاسلامية على كثير من أقطار العالم الغنية بالموارد وساد السلام الاسلامي مشارق الأرض ومغاربها. فقد امتدت حركة الترجمة التي بدأها الأمويون إلى جميع فروع العلم والمعرفة. ولم يأل العباسيون جهداً في استقائها من مصادرها الأصلية والبحث عنها في منابتها القاصية.

حرية الفكر عند المسلمين

وقد تأصلت حركة الترجمة بفضل حركة الفكر التي اعتنقها المسلمون والتي كانت ديدنهم في معاملاتهم مع غيرهم. فلا تمييز بين البشر بسبب العنصر أو اللون، وإنما عدالة ومساواة تظل الجميع في اطار الشريعة الاسلامية. ولا مراء في أن علماء أوروبا في العصر الوسيط أخذوا حرية الفكر عن المسلمين، فكانت التربية الصالحة لنماء بذور الحضارة الغربية. ولولا ها لما استطاعوا أن ينتزعوا راية العلم من رجال الكنيسة المتعصبين، ويطهروا عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة. كما أخذوا عن المسلمين دقة البحث العلمي فتمكنوا من تحقيق كشوفهم العلمية.

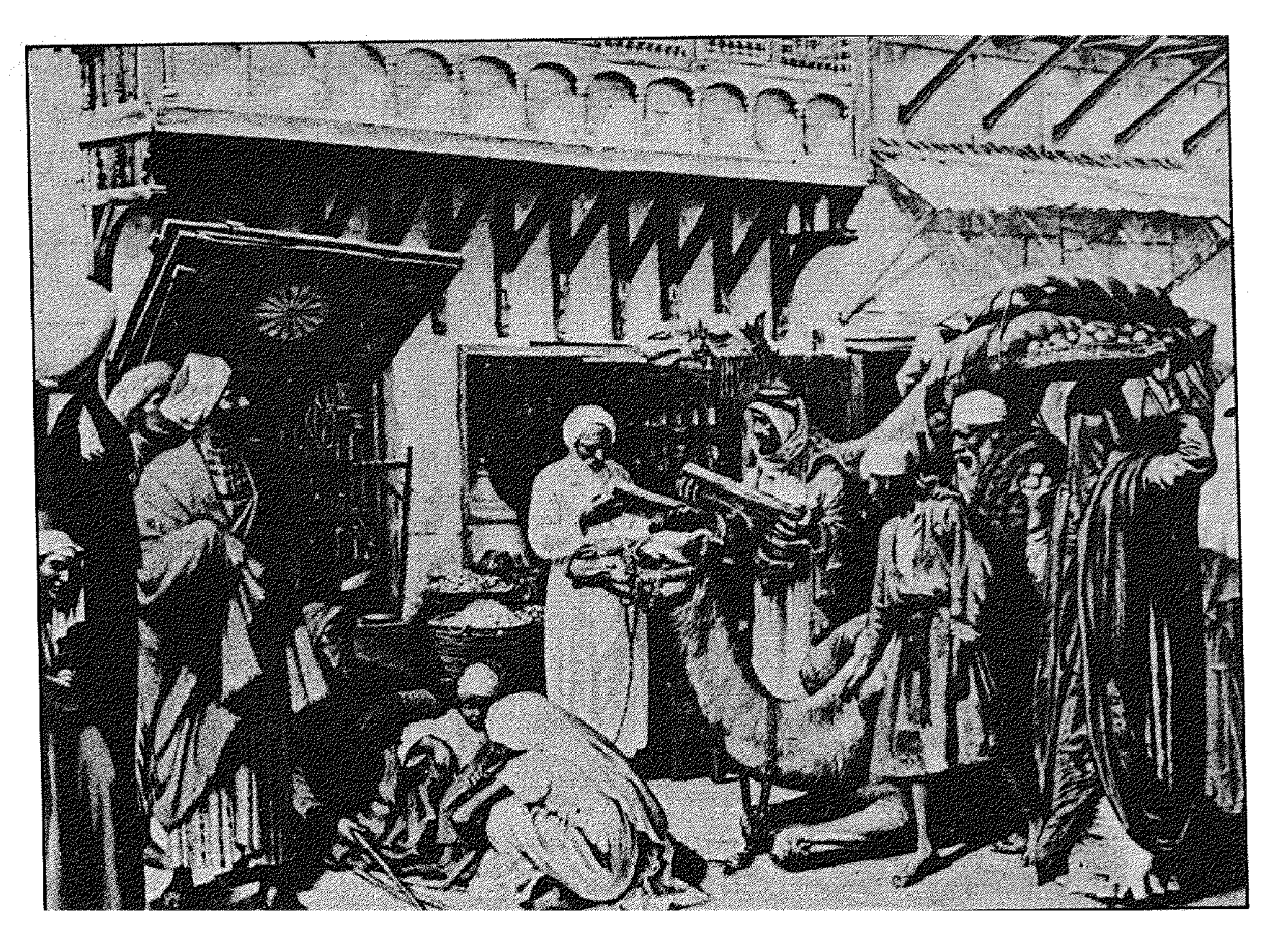
وفي ذلك يقول العلامة الاجتماعي جوستاف لوبون: «أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين»، ونجد مصداقاً لهذه الحرية فيما قرره «درابر» أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكيين: «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ورقوهم إلى أعلى المناصب في الدولة، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة «يوحنا بن ماسويه». وكانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء إلى النصارى تارة وإلى اليهود تارة أخرى. ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة».

حوافز البحث العلمي

لقد بلغ اهتمام العباسيين بالثقافة حداً لم يسبق له مثيل في تاريخ النهضات العلمية، إذ كانوا يعدون العلم مقوماً رئيسياً لبناء الدولة والمجتمع. وقد شمل هذا الاهتمام العلوم الدينية والدنيوية على السواء، فشجعوا على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية من مختلف اللغات، ولم يضنوا في سبيل الترجمة والتأليف بجهد أو مال حتى يحيطوا علماً بجميع ثمار الفكر البشري سواء التاريخي منها أو العصري. ومن ذلك ما أثر عن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي من أنه شجع «مالك بن أنس» على تأليف «الموطأ»، كما شجع العلماء على التأليف في العلوم والفنون. ثم أغرى المترجمين من السريان والفرس بالمال الجم لينقلوا من الفارسية والسريانية واليونانية إلى العربية فنون الطب والهندسة والفلك. وكان هو نفسه ممارساً علوم الفلك، بارعاً فيها.

العواصم الاسلامية مراكز قيادية للعلم

وتحفل كتب التاريخ بكثير من الشواهد الأخرى على اهتمام العباسيين بحركتي الاحياء العلمي والنهضة الفكرية حتى صارت كل من بغداد والبصرة والكوفة مراكز قيادة ومصادر اشعاع للتيارات العلمية والفكرية، يتزاحم عليها أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان، لينهلوا من مواردها الغزيرة. وكان عماد تلك الحركة جمع الكتب والمصنفات من خزائنها في الدول المجاورة لتحصيل ما احتوته من كنوز علمية واستيعاب ما فصلته من نظم في السياسة



□ إحدى قوافل العقاقير الطبية التي كان العرب يتاجرون بها في العصور الوسطى.

والحكم والفلسفة والأدب وعلم الطب والطبيعة والفلك والهندسة وغيرها، والافادة بها في تطوير أجهزة الحكم الاسلامي. ولتحقيق هذا الغرض سارت البعثات العلمية الاسلامية إلى بيزنطة، وقامت بزيارة مكتبات القسطنطينية لاستخراج الكتب النادرة التي يحتاج إليها المسلمون في دراساتهم النظرية والفلسفية أو تجاربهم الكيماوية والطبية على السواء وترجمتها.

بعوث المأمون لاقتناء الكتب النادرة

ومن تلك البعوث ما أوفده الخليفة العباسي المنصور إلى القسطنطينية، حيث عاد العلماء ومعهم مختارات من الكتب والمصنفات النادرة كان من بينها كتاب «اقليدس». وجاء في كتاب «الفهرس» لابن النديم، أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الاذن في البحث عما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم، فأجابه ملك الروم إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم «الحجاج بن مطر» و «ابن البطريق» و «مسلم» صاحب «بيت الحكمة» وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه، أمرهم بنقله وترجمته فنقل، وقد قيل أن «يوحنا بن ماسويه» ممن نفذ إلى بلاد الروم.

صلح دائم لقاء مكتبة من القسطنطينية

وكان المأمون ينتهج جميع السبل الدبلوماسية لتحقيق بغيته، فوثق علاقاته بملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الثمينة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بماحضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم. وليس أدل على جهود المأمون في هذا الميدان من تلك الواقعة التاريخية التي تؤكد نظرته إلى الثقافة على أنها ركن من أركان الدولة ودعامة من

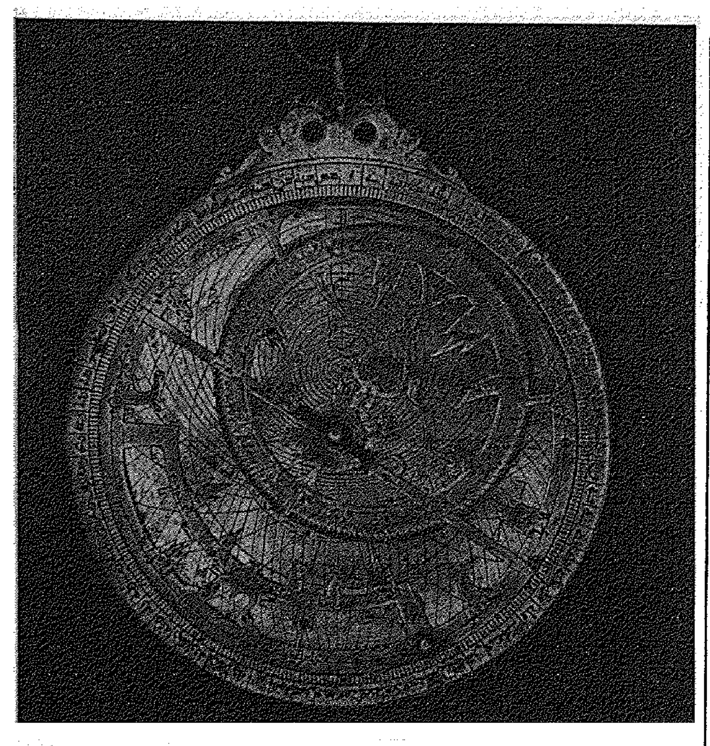
دعائم السلام الاسلامي، وليست مجرد ترف عقلي، إذ كان من شروط صلحه مع الامبراطور البيزنطي «ميخائيل» الثالث أن يعطيه مكتبة من مكتبات الآستانة، فكان ذلك، ووجد فيها كتاب «بطليموس» في الرياضة الفلكية، فأمر بترجمته، وسماه «المجسطي».

بيت الحكمة في بغداد

ومن مآثر المأمون في ميدان البحث العلمي أنه انشأ سنة ٢١٥هـ (٨٢٠م) بيت الحكمة في بغداد، وجمع في هذه المكتبة آلاف المخطوطات المترجمة عن الحضارات الانسانية القديمة التي ورثها المسلمون، والمؤلفة من قبل الأدباء والعلماء العرب في شتى العلوم والفنون. وقد قصد الباحثون والدارسون هذه الدار من مختلف الأمصار الاسلامية يأخذون عنها وينهلون منها. وبذلك انتقل العلم من الرواية إلى التأليف، ومن المشافهة والاستماع إلى البحث والاستقصاء. وازدهر الانتاج الفكري نتيجة لذلك في أرجاء الوطن العربي في شتى مناحي العلم والمعرفة.

وكان الخلفاء العباسيون والأباطرة البيزنطيون يتنافسون في انتزاع فضل السبق العلمي في عصريهما، ولا يألون جهداً في هذا السبيل. من ذلك أن الخليفة المأمون ومعاصره الامبراطور «تيوفيل» كانا مغرمين بالشعر ورواياته، ويهتمان بالمسائل الدينية. ولهذا عمل كل منهما على تتبع نشاط الآخر في هذه الشؤون وغيرها من المسائل العلمية كي يفوز عليه ويسبق بأمته دونه.

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد تلك البعوث المتعددة والمفاوضات المتكررة التي دارت بين الامبراطور «تيوفيل» والخليفة المأمون في شأن العالم الفلكي المهندس «ليو ـ Leo». وكان الخليفة المأمون يتوق إلى حضور هذا العالم الذائع الصيت إلى بغداد لفترة من الزمن للاستفادة من علمه الواسع في الرياضيات. فأرسل إلى الامبراطور البيزنطي بعثة خاصة من أجل ذلك، وقال في رسالته الشخصية إليه أنه يعتبر ذلك عملاً ودياً. ووصل الأمر إلى حد أن

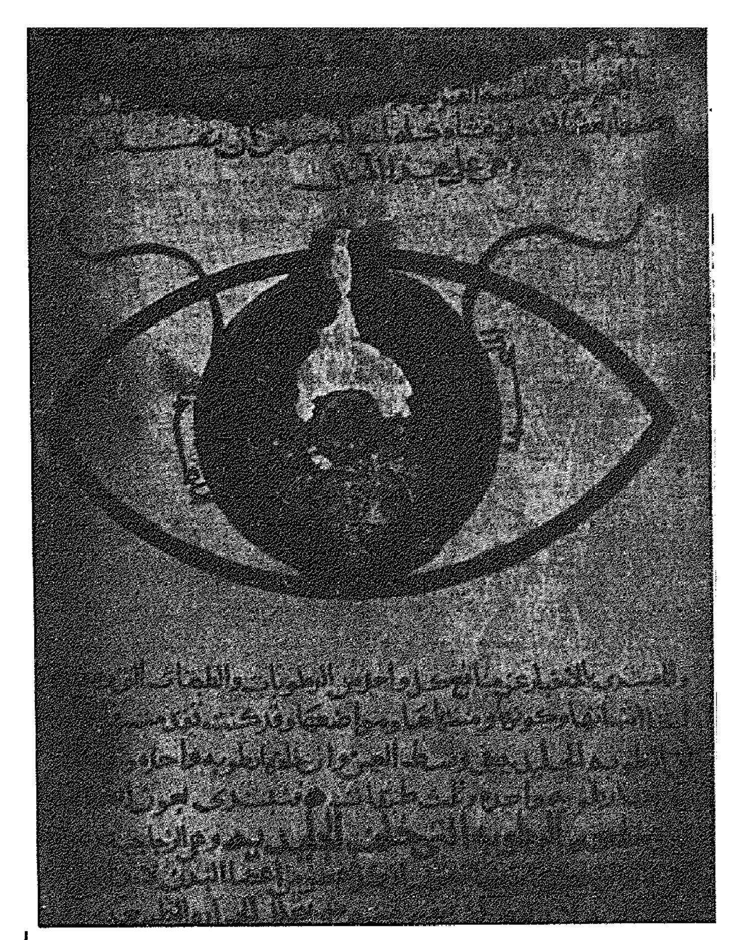


□ كان الاسطرلاب المسطح من أهم الاجهزة التي استخدمها الفلكيون في العصر الوسيط.

عرض عليه صلحاً دائماً وألفي قطعة ذهبية في مقابل حضور هذا العلامة إليه. ولكن «تيوفيل» لم يستجب لعرض المأمون، لأن أبحاث «ليو» كانت تتعلق في شطر منها بأسرار الدولة وشؤونها العسكرية. وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية في عهد المأمون وسعي الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها في علاقات طيبة ندرك مدى سخاء هذا العرض من جانب المأمون، ومدى حرص «تيوفيل» على منافسة الخليفة في البحث العلمي.

العلم دعامة أساسية للدولة الاسلامية

وتتجلى تلك النزعة العلمية التي تعد إحدى العلامات الواضحة المميزة للنهج الذي كان يسير عليه الحكم خلال عهود بني العباس، والتي تؤكد اعتدادهم بالعلم كدعامة أساسية من دعائم دولتهم، وركيزة للاسلام في الأرض، وعامل قوي لامتداد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم، تتجلى هذه النزعة في اهتمامهم البالغ بالعلوم الفلكية. ولعل في هذا الاهتمام وفيما وصلت إليه مختلف العلوم في عصرهم من نهضة مجيدة ما يشهد باستقرار دولتهم وعلو كعبهم في هذا المضمار،



□ رسم تخطيطي لتركيب العين في إحدى رسائل حنين بن إسحاق العشر في العين.

وتفـوقهم العلمي الذي مكّن لهم مـن بسـط سيادتهم على كثير من أصقاع الأرض.

وقد سلك ذلك الاهتمام سبيل البعوث العلمية في مختلف فروع المعرفـة، فأكثـروا من إيفاد السفـارات إلى القسطنـطينية، عـاصمة الدولة البيزنطية، لتزويدهم بالنظريات المستحـدثة في الميادين العلمية. وكانت علوم الفلك والرياضيات عند المسلمين في بدء ازدهارها بحاجة إلى الافادة مما بلغه البزنطيون من تقدم في هذا المضمار، فبعث الخلفاء العباسيون بكتبهم ورسلهم إلى أباطرة القسطنطينية سعياً إلى عقد الاتفاقات الخاصة باستقبال البعثات العلمية الاسـلامية الموفدة لديهم والعمل على تحقيق أغراضها.

كما نشأت السفارات العلمية بين الدولتين، الاسلامية والبيزنطية، مما ساعد على استمرار التعاون في تحقيق المصالح المشتركة فيما بينهما.

ولا ريب في أن العرض السخي الذي اقترحه المأمون على الامبراطور «تيوفيل» بشأن دعوة العالم «ليو»، ليس إلا دليلاً قوياً على إدراك الخلفاء المسلمين لأهمية البعوث العلمية في دعم دولتهم وتوطيد أركانها، وتوفير أسبـاب الأمن والاستقرار لها.

وقد تجاوزت البعوث العلمية الاسلامية إلى بيـزنطة هـذا الغـرض الذي يتمثـل في طلب المصنفات القيمة ودعوة العلماء إلى غرض علمي آخر، وهو دراسة الأماكن التـاريخية والمـواقع الأثرية التي تتعلق بأحداث الاسلام، أو بما ورد ذكره في القرآن الكريم ومن ذلك بعثة العـالم العربـي، المشهور «محمد بن موسى» الذي بعث به الخليفة العباسي الواثق (٨٤٢ ــ ٨٤٧م) إلى «أفسوس» بآسيا الصغرى من بلاد الروم لزيارة الكهف الذي يقال ان فيه رفات الفتية الذين استشهـدوا أيام الامبـراطور «اقلديانـوس»[١] والذين ورد ذكرهم في القرآن الحكيم في سورة الكهف: «أم حـسبـت أن أصحـاب الكـهف والرقيم كانوا من آيـاتنا عجبـا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيـىء لنا من أمرنا رشدا»... الآيات.

وقد منح الامبراطور البيزنـطي «ميخائيـل» الثالث البعثة الاسلامية تفويضاً خاصاً لزيارة الكهف، وبعث معها دليلاً خاصاً لارشادها في تجوالها. وقد وصف سفير الخليفة مشاهداته وانطباعاته عن أهل الكهف، فقال:

«عندما وصلنا إلى المدينة شاهدنا جبلاً يؤدي إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم ــ اللوح الذي رقمت فيه أسماؤهم بعد موتهم ــ، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفورة لها سعة، وتبينا الماء في مقرها، ثم نزلنا إلى باب السرداب، فمشينا مقدار ثلاثمائة خطوة، فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه، فإذا رواق في الجبل.. وفيه عدة أبيات، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة، عليه باب حجر منقور، فيه الموتى، ورجل موكل بحفظهم. وإذا هـو يحيد عن أن نراهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم!! فقلت له: دعني أنظر إليهم وأنت بريء. فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي. فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد. وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم».

كما نظم الخليفة الواثق بعثة كبيرة يرأسها احد كبار مترجمي الدولة لاكتشاف السور الذي بناه الاسكندر ذو القرنين، وتقول الرواية أنه سد (٢) بين الروم وبين يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

«حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا، قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل تجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا»... الخ.

وقد دامت البعثة التي أوفدها الواثق ثمانية وعشرين شهراً. فلما عاد أعضاؤها كافأهم الخليفة على ما حصلوا عليه من بيانات.

وهكذا نجد أن النهضة العلمية والثقافية في عصر الدولة العباسية، قد تركزت بحق عند المسلمين نتيجة تقديرهم لرسالة الفكر، وحرصهم الكبير على البحث عن التراث الثقافي الانساني، وارتياد آفاقه كشفاً عن جديد أو تحقيقاً لقديم. وما أشبه هذه البعوث العلمية التي أوفدها العلماء العباسيون للكشف عن الآثار التاريخية ودراستها بتلك التي نشهدها في عصرنا الراهن في سبيل انقاذ الآثار ومعالمها وذلك حفاظاً على التراث الحضاري الذي يقرب بين الحضارات والقيم وانماط السلوك البشري، فيوحد بين الشعوب في المجال الفكري، إذ تتعاون الهيئات الدولية والوطنية في سبيل الحفاظ على هذه الآثار التاريخية وحمايتها من الضياع.

وخلاصة القول إن خلفاء بني العباس قد بلغوا الذروة في التوسع والانتشار بفضل النهضة الفكرية التي رويت بذورها في عهد بني أمية وبدأت تؤتي ثمارها في العهد العباسي، فإذا بالطاقات العربية الزاخرة التي حملت رسالة الاسلام قبل بضعة قرون تتفجر مرة أخرى في شكل جديد يمثل نتاجاً حضارياً ضخماً يصل الحضارات الأولى التي قامت على ضفاف النيل وما بين النهرين وجنوب الجزيرة العربية، الحضارات اليونانية والهندية والفارسية بالحضارة الاسلامية في العصر العباسي، والتي مهدت فيما بعد لقيام النهضة الأوروبية. ●

الهــوامش

(١) اوى هؤلاء الفتيان إلى مغارة في الجبل، وجعلوها مأوى لهم، فراراً بدينهم من الشرك والمشركين الذين اضطهدوهم ويعلق الخبراء على ذلك بأن التاريخ القديم يشير إلى وقوع اضطهادات دينية في الشرق القديم، حدثت في أوقات مختلفة، ابرزها اضطهادان، حدث الأول منهما في عهد الملك السلوقي «انتيخوس» الرابع الملقب بـ «نابيفانيس»، (حوالي ١٧٦ ــ ٨٤ ق.م.)، فإنه لما اعتلى عرش سوريا وكان مولعاً أشد الولوع بالثقافة الأغريقية وحضارتها، فرض على اليهود بفلسطين ــ وكانت في قبضة سوريا منذ سنة ١٩٨ ق.م. ــ التدين بديانة الأغريق وأبطل شريعتهم.
فإذا افترضنا ظهور هؤلاء الفتية في ذلك العهد يرجح كونهم من اليهود ويكون مكانهم في فلسطين عامة أو في أورشليم ذاتها، ويكونون قد بعثوا حوالي عام ١٢٦م إبان حكم الروم للشرق، أي قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم (حوالي ٥٧١م) بأربعمائة وخمسة واربعين عاماً تقريباً.
أما الاضطهاد الثاني فقد حدث في عهد الامبراطور الروماني «هادريانوس» (١١٧ ــ ١٣٨م) الذي فعل باليهود مثل ما فعل «أنتيخوس» السالف الذكر تماماً.
وفي ضوء هذه الحادثة يبدو أن هؤلاء الفتية يهود، ويكون مكانهم في أي مكان في الشرق القديم او في اورشليم نفسها، ويكون قد بعثوا حوالي عام ٤٣٥م، أي قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة وثلاثين عاماً.
ويبدو أن الاضطهاد الأول أكثر تلاؤماً مع أصحاب الكهف، لأنه كان أشد قوة.
على أن رواية العالم الإسلامي محمد بن موسى، التي اوردناها في متن هذا البحث، تختلف مع هذا الراي، إذ مؤداها أن الامبراطور الروماني «أقلديانوس» هو الذي اضطهد الفتيان، وأن الكهف في آسيا الصغرى وهو فتحة متسعة في الجبل، متجهة إلى الشمال يجيئهم فيها النسيم العليل وإذا طلعت الشمس من الشرق عن يمينهم مالت أشعتها عنهم، وإذا غربت عن يسارهم تجاوزتهم ولم تدخل أشعتها في كهفهم، فحرارة الشمس لا تؤذيهم، ونسيم الهواء يأتيهم. وقد مكث اهل الكهف نياماً ثلثمائة سنة زادت تسعا.
وتشير الآية الكريمة إلى حقيقة فلكية وهي أن ثلثمائة سنة شمسية تقابلها ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية، وقد سبقت الآية علم الفلك.

(٢) كان السد بين جبلين هما: أذربيجان وارمينية. وقيل هما جبلان في أواخر الشمال منقطع أرض التركستان.



التاريخ.. والتراث

من خلال لوحات الزبير تركي

قسم التوثيق والأبحاث

العمامة

اعتمار العمامة فن وذوق. لكن المشكلة في إعداد العمامة بقماشها الشاشي. لكن الرجل المعمم يربط أحد طرفيها بالنافذة ويبدأ في إخراج آخر فصول الاناقة حول راسه. فيبدو الأمر وكأنه رقصة احتفالية، وطقس محترم.



القدر هو الذي دفع الزبير تركي، منذ سنوات إلى القيام برحلة إلى السويد، حيث عاش هناك، كما في كل مكان، من رسومه ونجومه. فرسم كما قال، غابات الصنوبر المغطاة بالثلوج، ومدناً كبيرة ساكنة ومنظمة، وفتيات ذوات الوجوه الحمر، والضفائر الشقر. فكان التناقض شديداً بين هذا وبين كل ما كان قد استوحاه: الأمكنة المشرقة على شواطىء البحر المتوسط، والشوارع المتعرجة والصاخبة في مسقط رأسه تونس. رجال ونساء وأطفال أحرقتهم الشمس. الحنين إلى وطنه، أعاده إليه أحياناً، بواسطة الذاكرة فقط، حيث حاول إعادة رسم الوجوه، المواقف، المشاهد، التي كانت تشكل عالم طفولته المألوف. وبلا وعي، اتجهت موهبته الفذة نحو ذاتها. وعندما عاد إلى مدينته أخيراً، استطاع أن يرى ما كان يستعيده بمخيلته منذ زمن بعيد. فظهر هذا الكتاب.

اهميته تكمن في الرسوم الـ ٢٨ وفي المخطوطات النثرية التي ترافقها، لأنها كلها نتاج ريشة واحدة، ماكرة وناعمة، تحاول بلوغ الحقيقة بواسطة الخطوط والكلمات. انا متأكد أن التونسيين الكهول سيحبون هذا الكتاب الذي سيحيي في وعيهم الدفين الف ذكرى. وأستطيع أن أراهم يتصفحون هذا الكتاب بهدوء، يتفحصون كل لوحة،

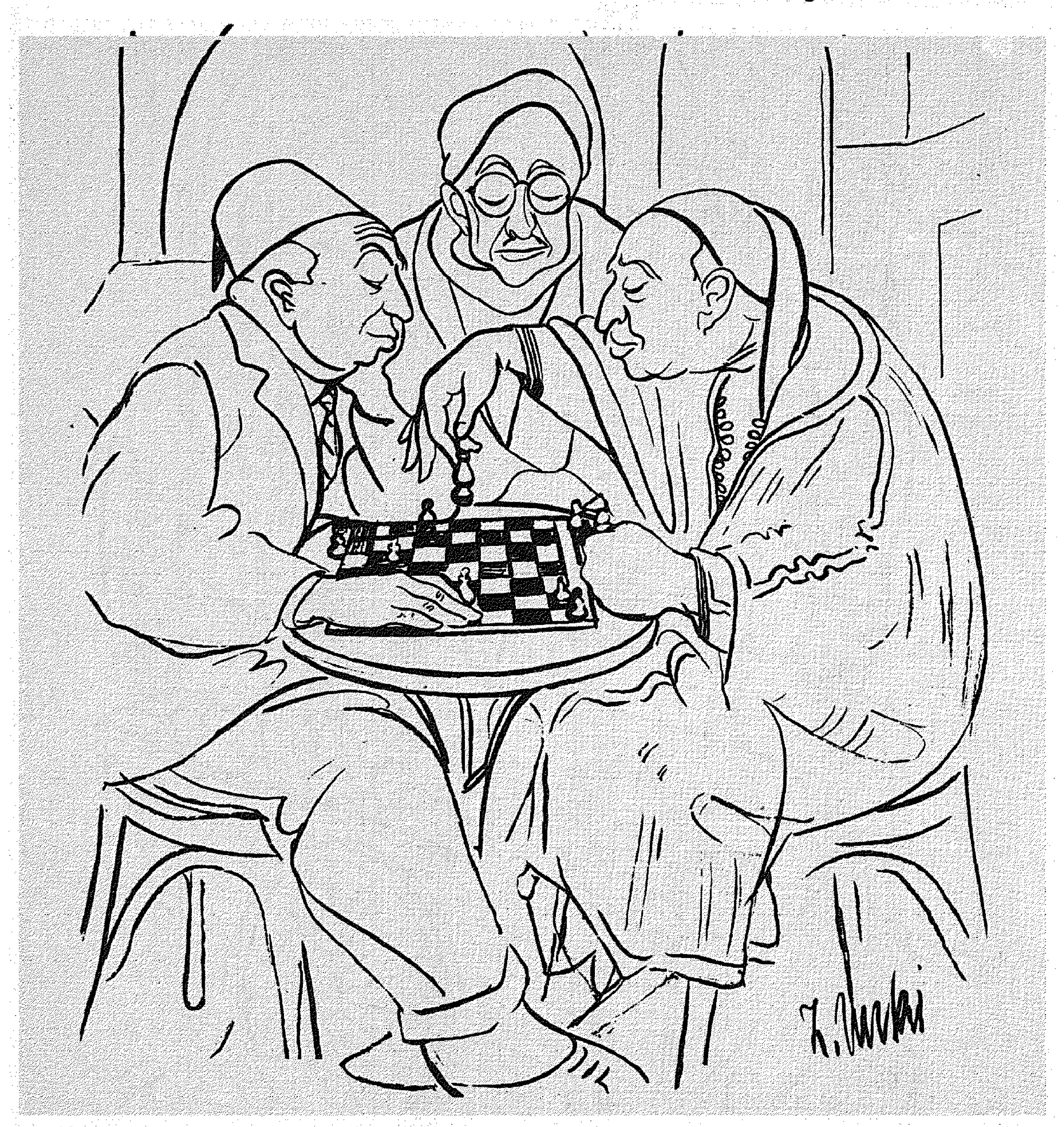


الشيوخ المشاهير، مشاعل الظلمات

عندما يحظى شيخ الزيتونة، الجامع الكبير في تونس، برتبة قاضي او مفتي، فإنه يحمل على أكتافه رمز كرامة جديدة، شال من الصوف أو الكشمير الزاهي الالوان.

لقد اصبح «بحر العلوم» و «محيط المعرفة». وعندما يلتقي بمحيط آخر. فإنهما يتناقشان ويختلفان ويتبادلان التحيات بأشد التعابير رقة ومجاملة. ويسأل احدهما الله أن يمنحه تجربة محدثة. ويطلب الآخر من الله أن يمنحه التماعات محاورة. وإذا لم يتوصلا إلى اتفاق، فإنهما يلجآن إلى الكتاب أو مؤلفات الكبار. فيخلصان إلى أن هناك وجهتي نظر ورأيين مقبولين في كل مسألة. لكن العلم عند الله.

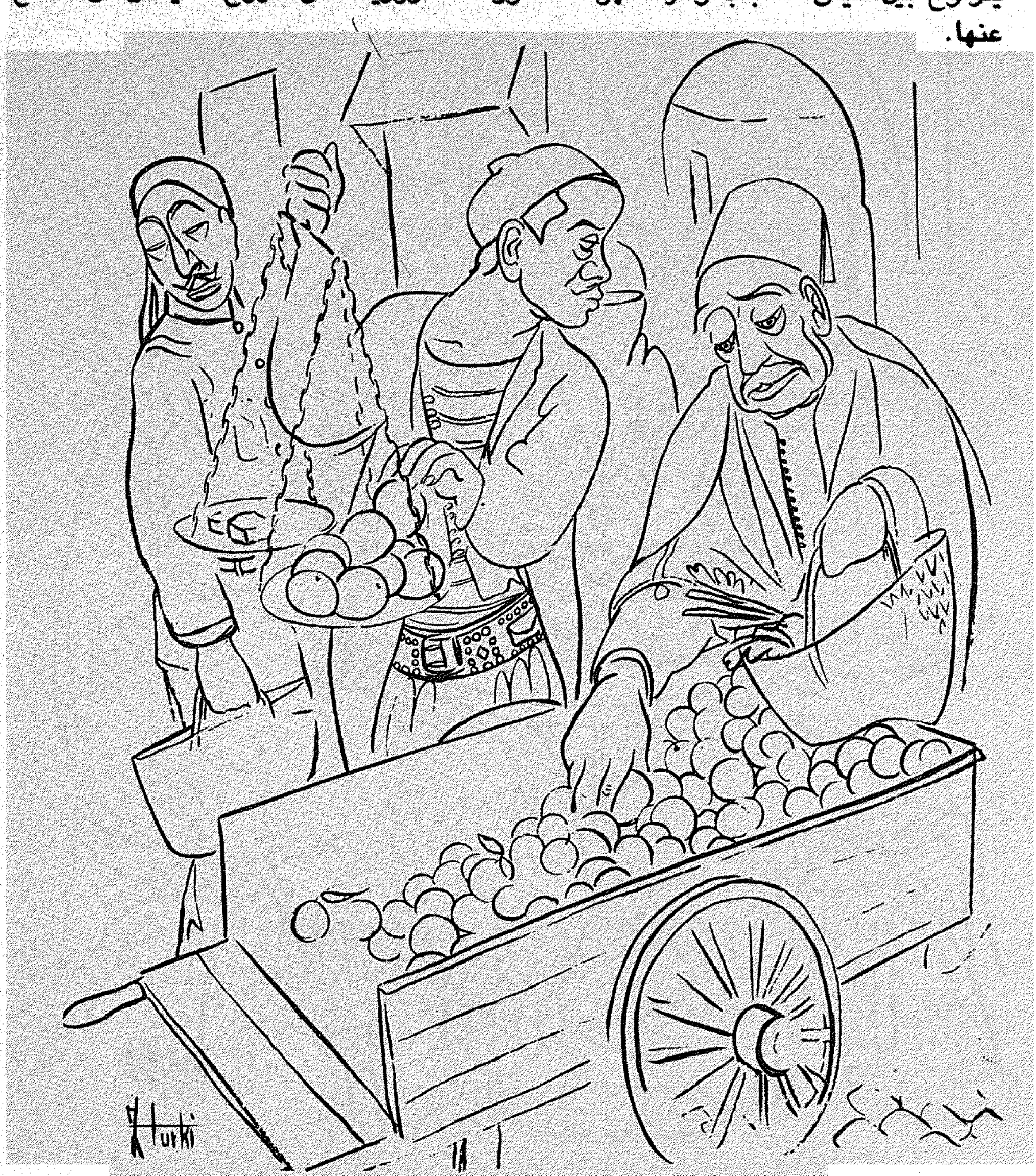
يتذوقون كل نص، يبتسمون، يحلمون، ثم يبتسمون. فلعبة الزبير رابحة. أما بالنسبة إلى الشبان، فإنهم سيتعلمون منه، معيشة آبائهم، فيمتد وجودهم، كما في بعض روايات العائلة، إلى الماضي البعيد. لقد استطاع صاحبنا أن يخترع آلة استثنائية للعودة إلى الأمس القريب. ومع السنين، سيتخذ هذا الكتاب شكل الوقائع التاريخية، والعلاقات



الشطـــرنج

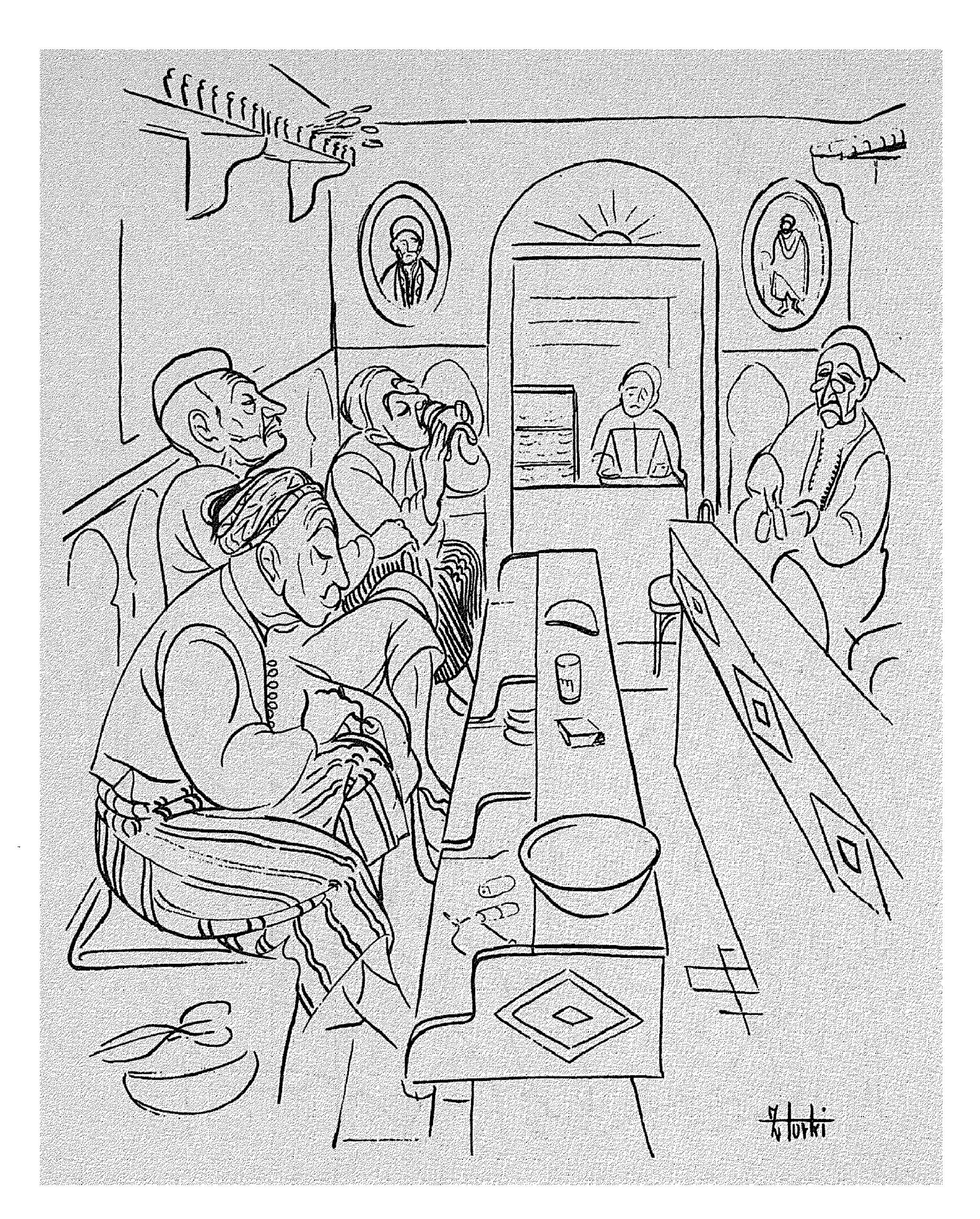
هل هي لعبة؟ لا. فن؟ ربما. علم؟ ربما. قد تكون أكثر من كل ذلك. لأن أحداً لا يلعبها من أجل المتعة، بل من أجل التميز، وهي بحاجة إلى ترف، وفكر وتأمل. وهي بحاجة إلى وقت، لأنها «رياضة الملوك»، ومتعة الحكماء الذين لا ينزلون إلى مستوى ألعاب الورق.

المنسية، التي ميزت طابع مرحلة ما. وسيلجأ إليه المؤرخون من أجل استعادة الماضي، وسيقولون «نعم هكذا كان». وسيشعرون بالخجل لانهم سيلاحظون انه في الوقت الذي تتغير فيه تونس بسرعة، قرر شاهد ما تسجيل ما لا يمكن استعادته، ولو بأسلوب ساخر، يتراوح بين طيش الشباب وسر الكهولة. فالثورات ضرورية، لكن الروح لا يمكن أن تدافع عنها.



الفصول الأربعة

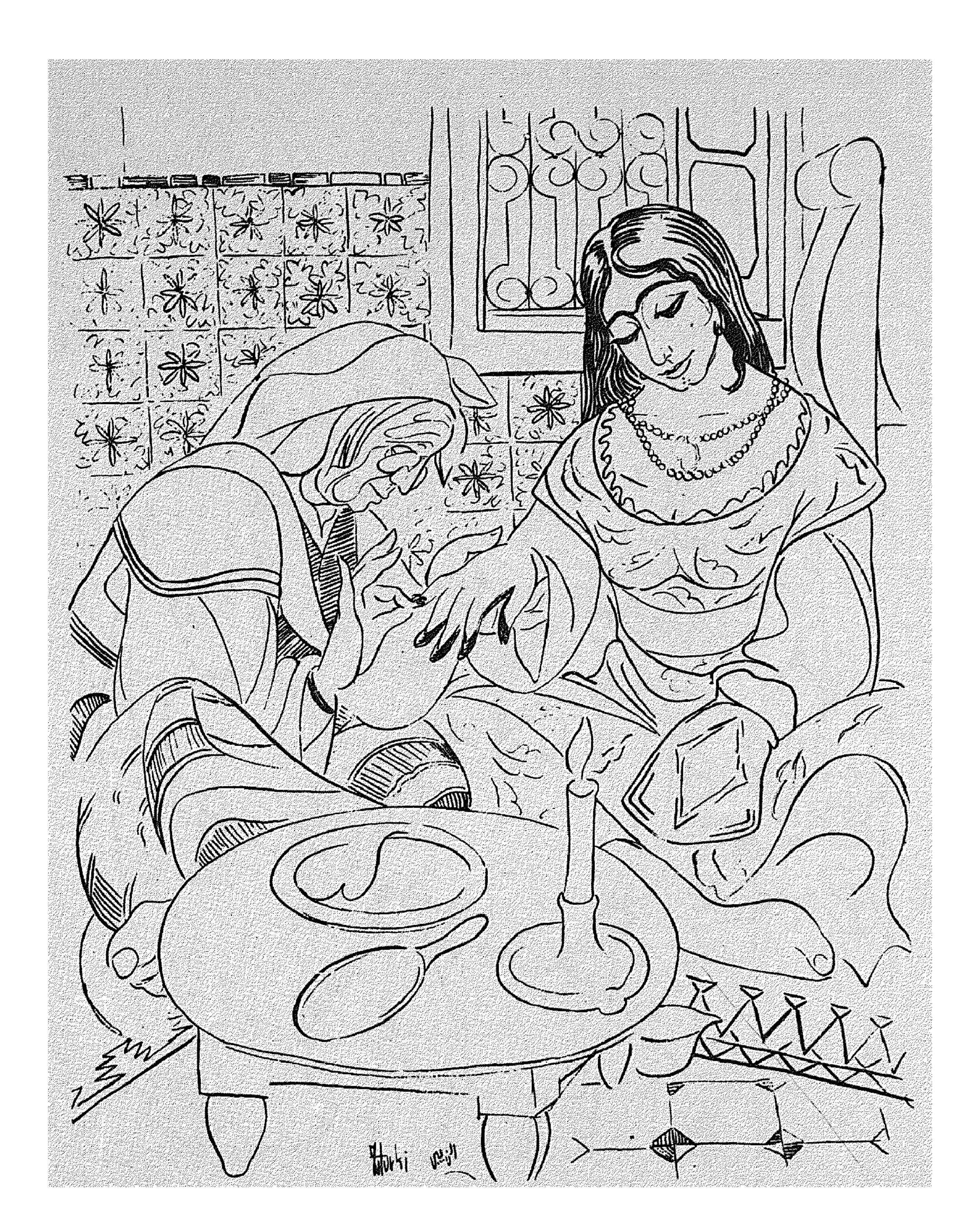
تونس، بلد الفاكهة، وارض الليمون، وواحات النخيل، والاجاص والخوخ والعنب. الله يعطي الفاكهة، والتاجر يبيعها في الشوارع، باتقان شديد، على عربة، يتحلق حولها القادرون على الشراء، والذين تعوزهم حنكة تاجر يخفي الجودة في أسفل العربة، ولا يتورع عن الغش، عندما يدير الزبون ظهره لحظة.



موكب حلّالو

حتى الأمس القريب، كان الختان في تونس مناسبة لموكب موسيقي خلاب، يشترك فيه جميع الأولاد الذين سيخضعون لعملية الختان، في الحي. وحسب العادة، فإن خال الولد يحمله بين ذراعيه، ويجوب فيه وسط أصوات الآلات الموسيقية الصاخبة، الطبول والمزامير، السوق وشوارع الحي.

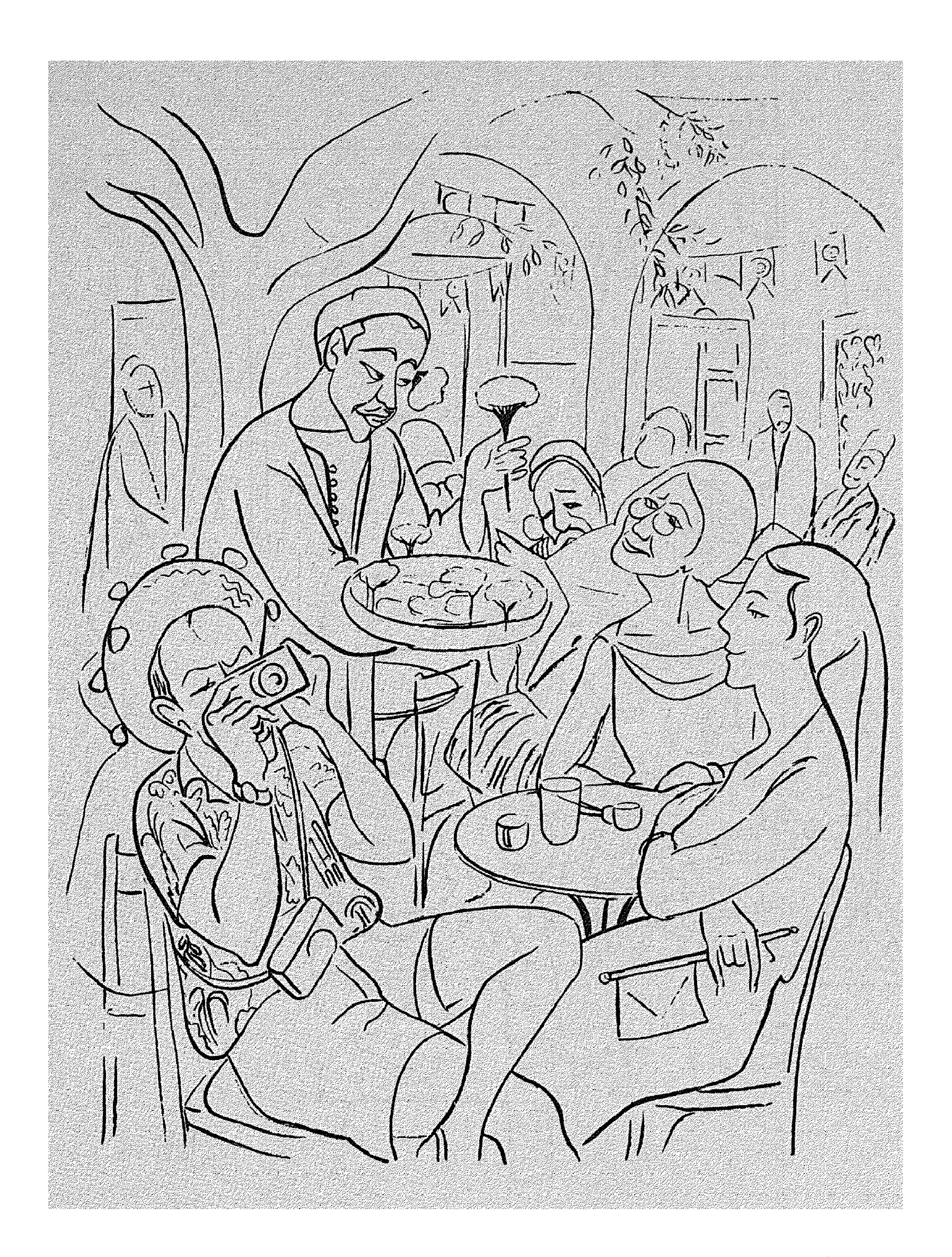
أما الموسيقيون فيرتدون الأزياء التقليدية، ويعمون الحي بأصوات آلاتهم الصاخبة.



الحِنــــة

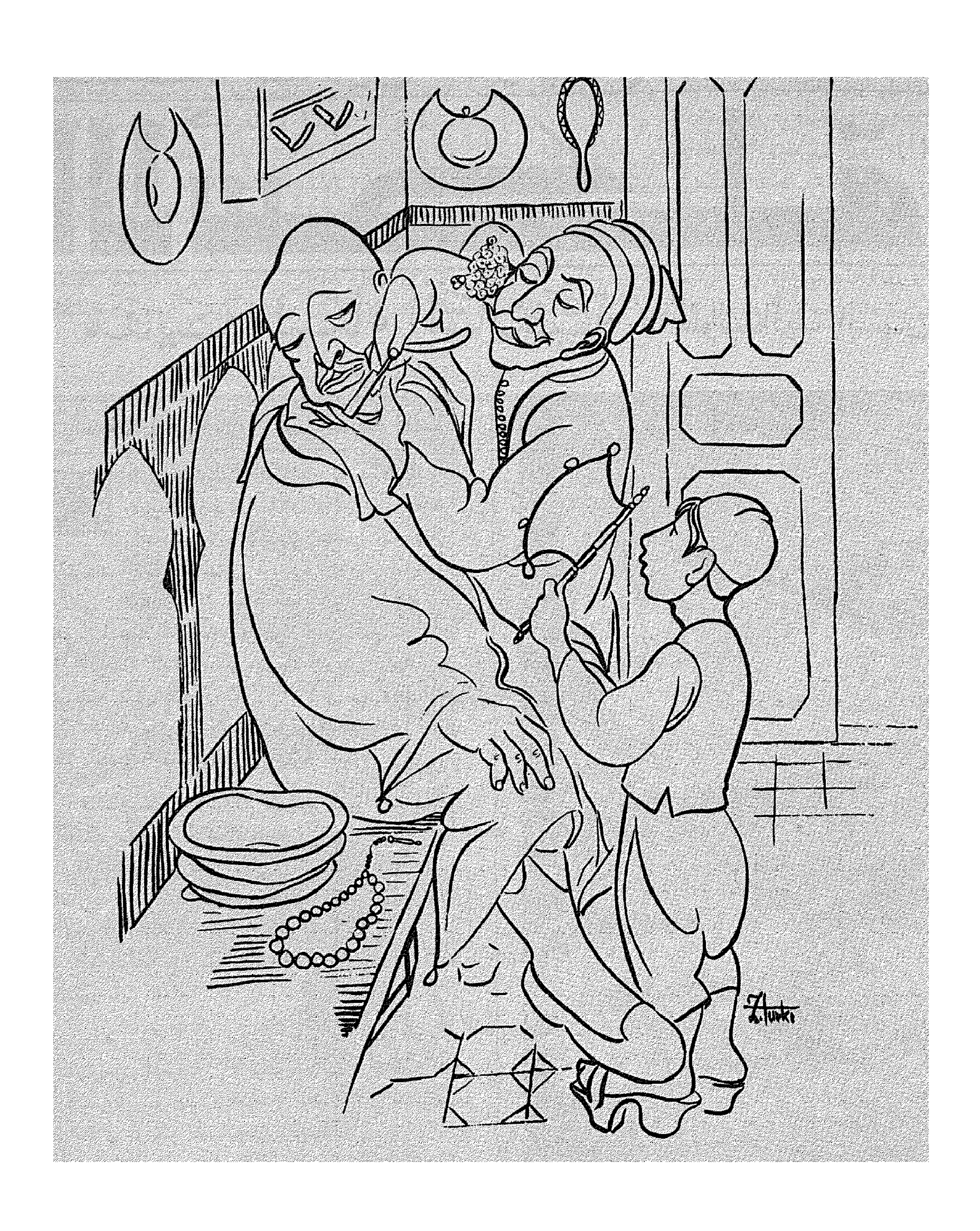
في اي زواج تونسي، كانت هناك شخصية ذات اهمية بالغة، هي المرأة التي ترسم بالحنة يدي العروس ورجليها، قبل العرس. فتجعل منها تحفة فنية ترضي العريس.

وهذه المرأة هي في العادة متقدمة في الحسن وتتمتع بحكمة فائقة، فتسر في أذن العروس ما تنتظره بين ذراعي عريسها في الليلة المقبلة.



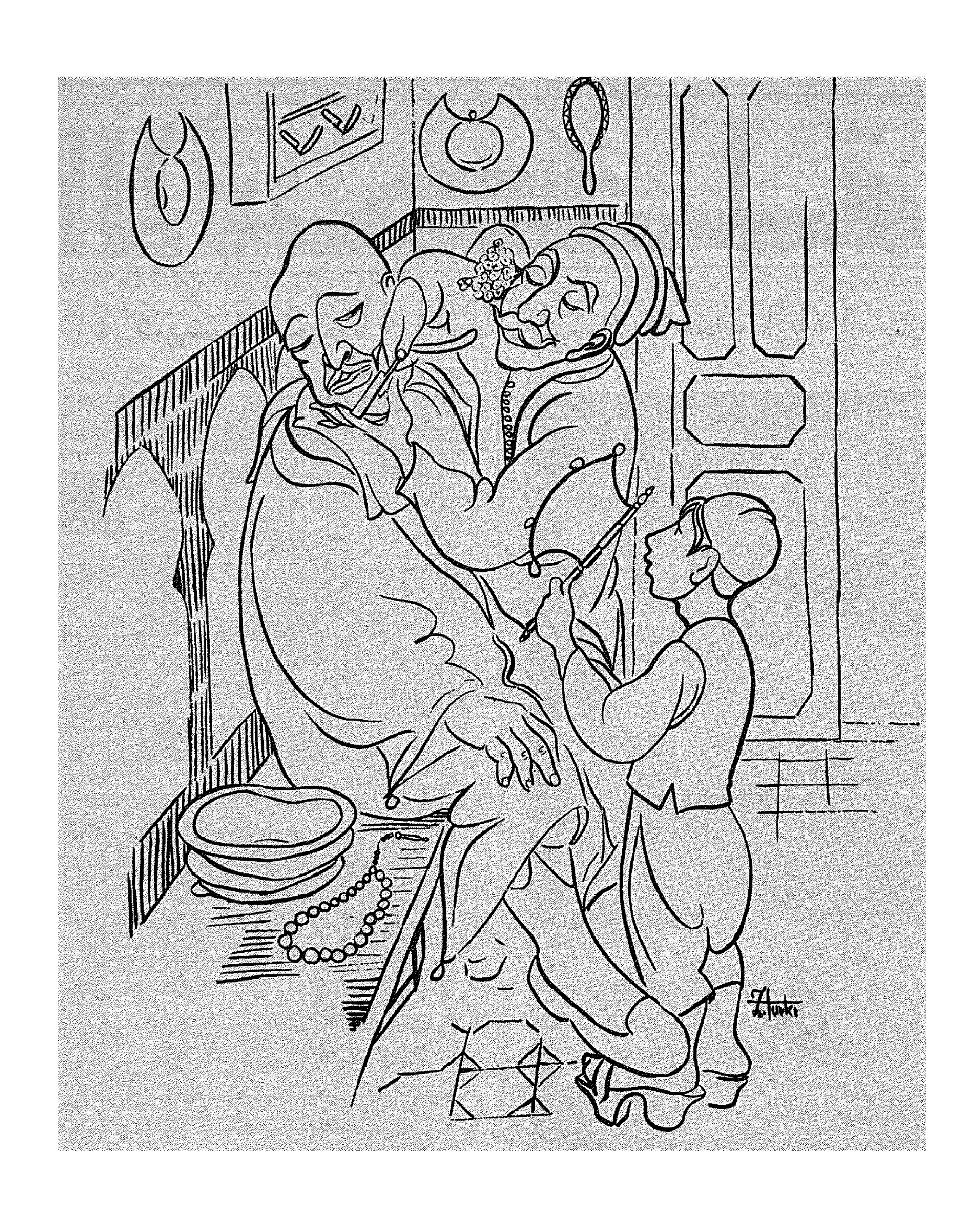
صانعو الشاشيات

تركوا الاندلس إلى شمال افريقيا جامعين معهم مهنتهم التقليدية: صنع الشاشيات (العمامات). وهي ليست مهنة مثل كل المهن. لأن إنتاجها مخصص لكبار القوم. لذلك فهي فن، تفرض على العمال احترام رب العمل، الذي يرفع في المحل صور العائلة من جيل إلى جيل، تقديراً لنقل أسرار المهنة.



سوق الياسمين

رائحة الجنة تنبعث من الشارع. بائع جوال يحمل على طبق باقات الياسمين ويطوف فيها على الموائد. إنه رجل فقير ومتواضع، ينادي على بضاعته بأبيات من الشعر.



الحــــلاق

اعتاد الناس على الذهاب مرة في الأسبوع عند الحلاق، وبالاضافة إلى كونه مزيناً، فهو صديق قديم، ورفيق في كُتّاب الطفولة، وجار، ومؤتمن، ومستشار، وخطيب، وراوٍ، وإذاعة، ومتعة، واستراحة.

الحلاق واحد، طوال العمر، في السراء والضراء، وذلك من أجل متعة الحديث، ولأنه يعامل الزبون كأنه سلطان.

سلسلة تاريخ طرابلس:

الأسكلة (١)

«مدينة الميناء التاريخية» د. أنطوانيت أديب باسيلي

دراسة تاريخية حول اسم مدينة الميناء

اول ما وصل إلينا من تسميات قديمة لمدينة الميناء «الأسكلة» التي بناها الفنيقيون، لتكون مقراً لاجتماع الاتحاد الثلاثي المكون من أرواد وصيدا وصور والتي عرفت أول نظام برلماني في العالم، هو «المدينة المثلثة» والتي تعني الثلاث مدن أو الأحياء الثلاثة، أو مدينة «دربلي» الوارد في رسائل تل العمارنة (١٥٠٠ ق.م) وهو اسم يتلاءم تحريفه مع كلمة تربل، الاسم الذي أطلق على الجبل المنتصب فوق مدينة الميناء.

فلفظة حرف (التاء) تتماشى كثيراً مع لسان العامة بعكس حرف (الدال) الذي يبدو ثقيلاً نوعاً ما، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد درج العرب منذ البدء على تحريف وتصحيف بعض الأسماء والكلمات حتى باتوا يشكلون خطراً على سلامة اللغة العربية، مثل كلمة الدعتور[٢] تلفظ تعتور عند العامة.

وأظن أن اسم تربيل هو الاسم القديم لطرابلس الفنيقية (الأسكلة) والذي أضاف إليه الأغريق حرفهم التقليدي (S) الذي يضيفونه عادة في أواخر أسمائهم وألقابهم.

وهناك خلاف حاد بين المؤرخين والكتاب أمثال الأستاذ أمين الريحاني والمؤرخ جواد بولس والدكتور أنيس فريحة[٣] حول اسم مدينة طرابلس(الميناء) ولهذا الأخير دراسة وافية أيده فيها الدكتور سيد عبدالعزيز سالم المؤرخ المصري[٤] تقول:

«إن الاسم الفنيقي القديم لطرابلس هو تربيل لأن لفظة (تر) الفنيقية معناها الجبل، تقابلها لفظة طور بالعربية».

من هنا نستطيع أن نلاحظ أن حرف (التاء) يلفظ (طاهـا) عند البعض مثل تربيولس أو طرابلس.

وقد عرفت هذه الأحياء باللغة الكنعانية/ الفنيقية بـ «نيوام» و «نوغس» و «هرنكيرو» في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، وعقب حملة أشور نصربال سنة ٨٧٠ ق.م على فنيقية، عرفت هذه الأحياء بمحلاتا، وللدكتور حسان سركيس[٥] دراسة مستفيضة حول أسماء هذه القرى أو المدن الثلاث، يقول فيها:

«إن هذه الأحياء الثلاثة كان يطلق عليها اسم محلاتا، والذي يعني المحلة التي تضم هذه الأحياء».

وفي مطلع القرن الرابع قبل الميلاد عرفت طرابلس باسم أثر وأثار[٦] وهي تسميات سامية

□ ساحل طرابلس والقلمون وافقه كما تخيّله احد الفنانين الأوروبيين.

جـديـدة، وجـدت عـلى بعض مصكـوكـات عام ١٨٩ ــ ١٨٨ ق.م. واستبدل هذا الاسم في ما بعد، وأعيـد لهـا اسمهـا القـديـم تـريبـولي (TRIPOLI) واصبـح هـذا الاسم المعتمد دون العودة إلى الأسماء الأخرى، إلا أن هذا لا ينفي عن المدينة وجودها قبل قيـامها الفنيقي، لذا لا بد وأن يكون لها اسم آخر.

واتخذت طرابلس (الميناء) ألقاباً كثيرة على مر العصور، ففي المرحلة الرومانية عرفت بالمدينة المقدسة والمستقلة، وفي العصر البيزنطي عرفت بالمدينة المحصنة، ومع الفتح العـربـي عرفت باسمها المجرد طرابلس أو اطرابلس بزيادة حرف الألف في أولهـا، عـلى رأي بعض المـؤرخـين المتقدمين، وفي عهد بني عمار عرفت باسم دار العلم، ثم عـرفت في العهد الصليبـي بمـدينة الكنائس أو المدينة اللاتينية.

أما عهد المماليك فقد عرفت فيه وبعد هدمها، بطرابلس العتيقة الخراب وهو القسم الغربـي من مدينة الميـنـاء حاليـاً والذي يعرف بـالحي المسيحي.

أمـا طرابلس التي بناهـا قلاوون وجعلهـا عاصمة لنيابة سلطنته، فقد عـرفت بطرابلس المستجـدة أو المملكـة الطرابلسيـة الشـريفـة المحروسة، وعرفت متأخـراً بطرابلس الفيحـاء وأو طرابلس الشام.

تاريخ تأسيس مدينة الميناء الفنيقية

إن البحث في تاريخ تأسيس المدينة كالبحث في اسمها الأول عقيم، لعدم توفر الوثائق التاريخية المدونة.

إلا أنه من الممكن تحديد زمن تأسيس مدينة الميناء (الأسكلة) التقريبـي على ضوء ما لدينا من كتابات ودراسات لمؤرخين، تضاربت آراؤهم وتشعبت بحوثهم، مما ساعدنا على استخلاص النتائج، وبعض هذه الآراء على سبيـل المثال لا الحصر تقول:

(أ) يرجع بعض المؤرخين تاريخ تأسيس مدينة الميناء إلى القرن الرابع قبل الميلاد أي إلى سنة ٣٥٢ ــ ٣٥١ قبل الميلاد بحيث يربطون تاريخ تأسيسها بتـاريخ انعقـاد مؤتمـر المدن الفنيقيـة فيها، الذي دعـا إليـه الأروادیـون والصيدونيون والصوريون[٨].

وهذا القول غير منسجم مع الوقائع التاريخية التي تقول بأن تـلـك الدول (أرواد، صيدا، وصور) كانت تحت الجكم الأشوري الثالث، فهل يعقل أن ينظم مؤتمر بذور المعارضة ضد دولة فتية وقوية استطاعت أن تسلخ عن تلك الدول الفنيقية استقلالها عسكرياً، وهل يعقل أيضاً أن يسمح الأشوريون بتأسيس مدينة جديدة تحمل لواء المعارضة لسياستهم دون أن تتدخل أشور وتخنقها في مهدها، فهذا ادعاء مرفوض منطقياً.

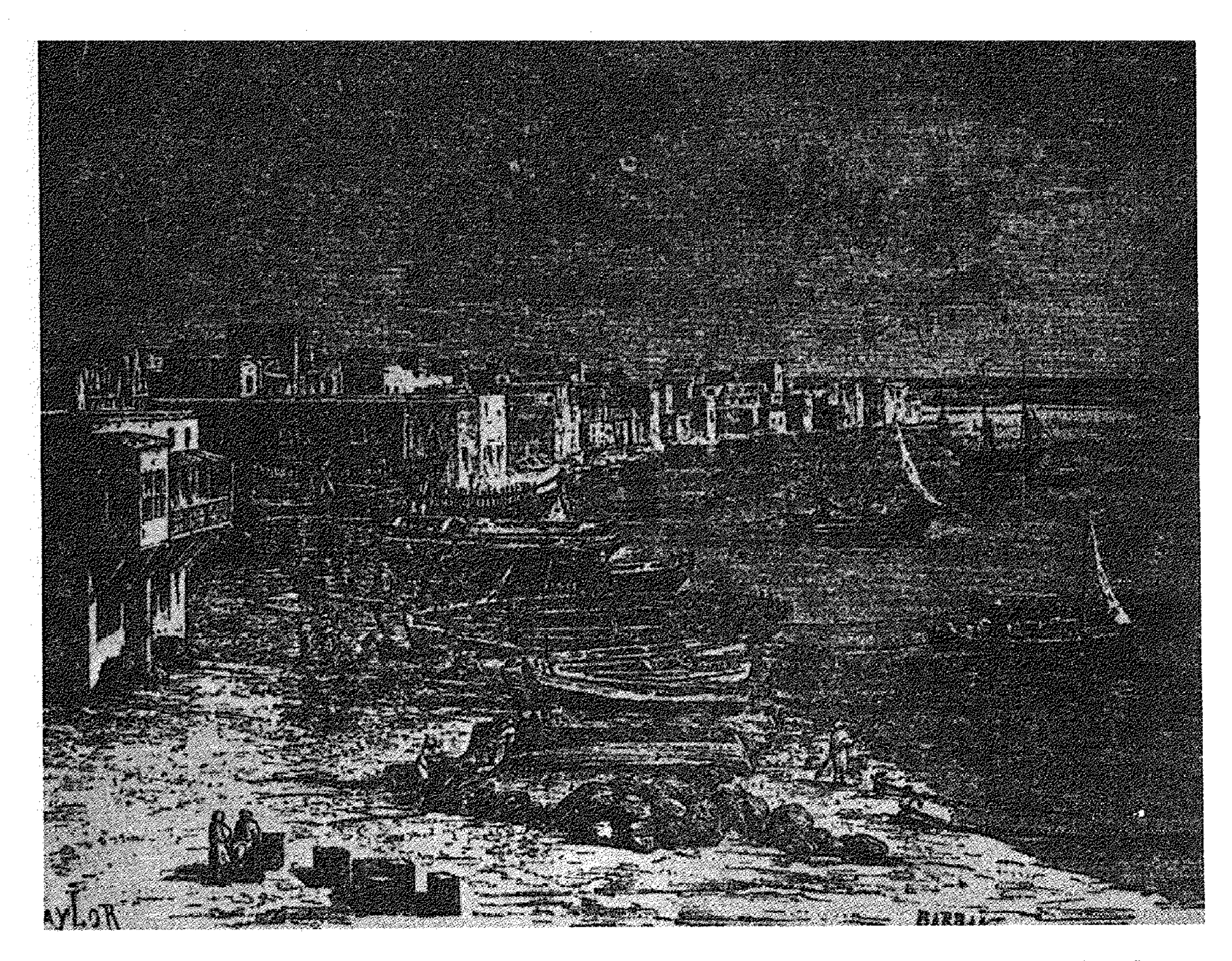
(ب) أما القول الثـاني، فهو أن تـأسيس المدينة يعـود إلى القرن الثـامن قبل الميـلاد، وبالتحديد إلى سنة ٧٦١ ق.م[٩]. ويعاصرونها بأرواد التي يرجع بعض المؤرخين تأسيسها إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

فهل يعقل بحسب قول المؤرخين أن تكون أرواد التي بنت أعظم قسم من مدينة الميناء، فتية التأسيس؟ وهل من المعقول أن تؤسس أرواد مدينة، قبل أن تكون قد أسست نفسها في البدء؟، هذا قول مغال به أيضاً، مع العلم بأن مدينة أرواد لم تبنها مدينة من مدن الثغور التي حولها، بل العكس هو الصحيح، فقد أسست أرواد في ما بعد جميع المدن التي كانت تحت ولايتها ومنها طرابلس.

والصحيح أيضاً أن أهلهـا الكنعانيـين هم الذين بنوها في زمن يحدد تاريخياً بحوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد.

ونخلص إلى القـول، بـأن مـدينـة الميـنـاء (الأسكلة) تم تأسيسها في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد ١٤٠٠ ق.م. حسب المدونات التاريخية والمكتشفات الأثريـة، التي قام بهـا الدكتور سركيس سنة ١٩٧٣ حيث وجد فيها بعض القـطع الفخاريـة التي تعـود إلى عصر البرونز الحديث[١٠].

بهذا نستطيع أن نجزم بأن مدينـة الميناء (الثغر الفنيقي) كانت موجودة قبل قيام المؤتمر الفنيقي فيها، وكانت تسمى بالكنعاني محلاتا، ذات الأحيـاء الـثـلاثـة وهي نيـوام، نـوغس وهرنكيرو، والتي مر بها الملك تحوتمس الثالث أثناء حملته على سوريا في النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ١٤٥٠ ق.م[١١].



□ لوحة لميناء طرابلس.

تحديد موقع هذه الأحياء

لكي يستوفي هذا القسم من الدراسة قيمته التاريخية فلا بد من تحديد مواقع هذه الأحياء، الدليل المادي لهذه الجهة مفقود كلياً، لعدم استكمال الحفريات وما علينا إلا الاتكال على الحدس والاستنتاج الفرضي، حتى يثبت عكس ذلك بالوثائق المدونة أو بالحفريات الأثرية.

وهنا نتساءل ما هي الأسباب التي دعت لبناء مدينة الميناء الفنيقية؟.

ونجيب أن السبب في بنائها يعود إلى احتمالين:

أولاً ـــ بسبب التجارة بعد أن توضح لبناتها مركزها الاستراتيجي كثغر يطل مباشرة على البحر وله خليج يحمي مراكبهم، وملحقات بحرية (الجزر) مما يساعدهم في أن تكون هذه الجزر موانىء جديدة يطلون منها على الأسواق لتصريف تجارتهم، ومن المسلم به والمعروف لدينا، أن الفنيقيين استغلوا الثغور البحرية على أحسن وجه، وخصوصاً تلك التي تحيط بها الجزر، مما ينشط عندهم ذكرى مدنهم الأم.

ثانياً ـــ لعله سبب عسكري، فالميناء تقع على رأس خليج داخل في البحر، ساحله الشمالي رملي والجنوبي صخري صعب المنال، تتكسر عليه السفن بسبب الأمواج العاتية، أما شرقها فهو محمي بسلسلة من الجبال الوعرة وغربها مفتوح على البحر برحابة ويسر، ويقع هذا الثغر في منتصف الطريق المؤدي من الشمال إلى الجنوب، وقد عبرت هذا الممر الجيوش الكثيرة والكبيرة من تحوتمس إلى رعمسيس إلى الجيوش الأشورية والفارسية واليونانية والرومانية قبل الميلاد، ثم عبرته الحملات البيزنطية والعربية والصليبية في ما بعد، ولن ننسى الهجرات السامية الأولى المكتشفة الأساسية لهذا الممر.

وبما أنه كان ممراً استراتيجياً، فقد كان يربط بين بلاد النهرين وبلاد الكلدان التي تربط بين أوروبا وآسيا في ذلك الوقت فقد كان في منتصف الطريق بين الاسكندرونة في الشمال وغزة في الجنوب، والميناء هي باب آسيا نحو حلب ودمشق وتدمر وبغداد.

لكل ما تقدم فقد باتت الميناء خط دفاع أولي بالنسبة للمدن الأم، لذا صب الأرواديون والصيدونيون والصوريون اهتمامهم في بناء الساحل الشمالي الغربي، حيث قامت المدينة العامرة.

أما موقع الأحياء الثلاثة، نيوام، توغس، وهرنكيرو فيحتمل أن يكون حسب التسلسل المنطقي كما يلي:

نيوام: يقع في الشمال الشرقي للمدينة أي بين برج الشيخ عفان والجمرك حالياً، ويحتمل أن يكون الأرواديون قد سكنوه باعتبار أن هذه المنطقة تقابل جزيرة أرواد استراتيجياً وبحرياً، فهذه الأخيرة تقع في شمال شرق ساحل مدينة الميناء الشمالي.

نوغس: يقع في شمال المدينة أي بين برج الديوان والمشتى جنوباً، ويحتمل أن يكون قد سكنه الصيدونيون باعتبار أنهم إذا أبحروا في البحر شمالاً بخط متواز مع الشاطىء، فأول نقطة يصلون إليها هي جزيرة البقر المقابلة لهذا القسم من المدينة.

هرنكيرو: يقع هذا الحي في غرب المدينة أي بين برج عزالدين وحي مارالياس جنوباً، ويكون بالتالي للصوريين وقد سبق للصوريين أن استعملوا كلمة هراقلس كاسم للاله ملقارت الخاص بهم، وهرقل هو ابن الاله جوبتر.

واتباعنا لهذا النظام في ترتيب الأحياء يعود إلى تعدادها بهذا الشكل عند ديودور الصقلي[١٢].

أما المعنى اللغوي لهذه الأسماء الكنعانية التي أطلقت على أحياء الميناء فهي كما توحي لنا، يقصد بها الحي الجديد أو المولود الجديد، فالمقطع الأول من نيوام ونوغس (نيو) و (نو) تعني الجديد، بينما كلمة هرنكيرو توحي بالقوة والجبروت لما كان يرمي إليه هرقل من قوة.

ويجدر بنا التوضيح أن هذه الأحياء المتجاورة والتي ضمت جاليات من المدن الأم، كانت متحاجزة عن بعضها البعض، بأسوار وتحصينات[١٣] وقد أكد المؤرخ ديودور الصقلي (القرن الأول قبل الميلاد) ومعاصره سترابون أنه كان يفصل بين القرية أو الحي والآخر، مسافة ستاد (ملعب أولمبي) أي حوالي ١٨٥م[١٤].

ولعل السبب في وجود هذه التحصينات والملاعب، في ما بين الأحياء الثلاثة هو النزاع الدائم بين المدن الفنيقية أرواد وصيدا وصور، حول السيطرة على المستعمرات الفنيقية، واختلافها السياسي الدائم في ما بينها، لذا نجد أن مدن طرطوس وأرواد وصيدا مثلاً، كانت معادية لسياسة مصر، بينما كانت جبيل وبيروت وصور موالية لها[١٥].

وهناك سبب آخر ولعله جوهري بالنسبة للموضوع، وهو أن بناة هذه المدينة، غذوا النزاع داخلها بقصد خنق كل فكرة لاستقلال ذاتي عند أهلها، لاستمرارية الاحتفاظ بها صوناً لمصالحهم المشتركة ولمكاسبهم المادية التي أدهشت الرحالة والمؤرخين الذين زاروها[١٦] ولجعلها مأوى امينا لهم في حال فرارهم من وطنهم الأم.

ومما قاله المؤرخ ديودور الصقلي نلاحظ أن كل حي من الأحياء الثلاثة كان مسورا بسور وله حصنه الذي يطل منه على البحر ويفصل بين السور والآخر مسافة ملعب أولمبي مما يجعلنا نستدرك أن المدينة لم تكن مسورة بسورها الشرقي المعروف، وبما أن الأحياء تمتعت باستقلال ذاتي فمن الضروري أن يكون لكل حي مرفأ يطل منه على البحر يستورد ويصدر منه حاجياته، ويحتمل أن يكون لكل حي مرفآن تبعاً لعادة المدن الفنيقية أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب، وأن يكون لكل حي أسواقه ومبانيه الخاصة كالقصر الملكي الذي ينزله ممثل الملك في حال غياب الملك ويحتوي على ديوان ومكتبه تحفظ فيها المراسلات والمعاملات وله أيضاً معبد لعبادة آلهتهم وممارسة طقوسهم الدينية التي تميزت بتقديم الذبائح البشرية في المواسم. وكان رب الحي الأروادي الاله غشتار والحي الصيدوني الاله بعل أو بعلة، أما رب الحي الصوري فهو الاله ملقارت، ومن الضروري وجود بئر محفورة تحت المعبد بعمق خمسة أو ستة أمتار لارسال النذور العينية

والمادية للاله، ولهم أيضاً مقابرهم التي تتراوح بين جرار خزفية ونواميس حجرية بحسب ظروفهم الاجتماعية.

وظل حال المدينة هكذا في العصرين الأشوري والفارسي، أما في عهد أرتحشستا الثالث ٣٥٩ ـــ ٣٣٨ قبل الميلاد، فقد منحت هذه المدينة بأحيائها الثلاثة نوعاً من الاستقلال الذاتي الذي أدى إلى اتحادهم وأزال عوامل الانفصال السياسي والاجتماعي فيما بينهم، إلا أن ذلك لم يغير من مظاهر الأسوار والتحصينات فيها.

ولم تختفِ هذه الأسوار والتحصينات إلا في العهد الروماني، ففي عهد هيرود الكبير ٦٢ ـــ ٤ ق.م اندمجت الأحياء الثلاثة مع بعضها البعض ورفعت عنها الحواجز وأقيمت فيها المشاريع العمرانية التي امتدت إلى خارج حدودها الشرقية والجنوبية، فأقام هذا الامبرطور ملعباً أولمبياً للألعاب الرياضية والفروسية في شرقها حيث موقع المرجة حالياً (بين مدرسة الفرير ومستشفى الدكتورة رفاعي) ومن ثم عقب ذلك في عهد الامبراطور كراكالا (٢١١ ـــ ٢١٧م) أصبحت الميناء مركزاً دينياً وثنياً مهماً يحتوي على معبدين احدهما لعشتار ويقع في جنوب الميناء (حوش العبيد حالياً) والثاني لزيوس، وما زال قائماً في جنوب شرق الميناء ويعرف حالياً بجامع طينال، وهو على طريق بيروت القديمة بمحلة باب الرمل، وأشاد فيها أيضاً الحمامات الرومانية التي اشتهرت بها روما، وما زالت منطقة الحمام المقلوب في جنوب الميناء تشهد بهذا الحدث، وهي تقع عند الشاطىء الجنوبي الغربي لمدينة الميناء والعامة تسميها منطقة (فوق الريح) وقد تعرضت هذه الحمامات لعدة زلازل منها زلزال سنة ٥٣٩ و ٥٥١م الذي أزال وقلب تلك المعالم وأخفاها إلى الأبد.

ولعلمنا باهتمام الرومان بالمباني الفخمة، فإنهم ألغوا التحصينات من داخل المدينة وجعلوها من جانب واحد هو الجانب الشرقي حيث بنوا السور ودعموه بخندق، وأحاطوا الميناء بسلسلة من الحصون الحصينة ذات الحجارة الصلبة والفخمة.

أهم المكتشفات الأثرية الرومانية

عثر في جنوب الميناء (حوش العبيد) على قاعدة نذرية لمعبد وثني (معبد عشتار) يعود إلى العصر الفارسي (الخامس ق. م). وعليها رسوم للثيران المجنحة وهي موجودة حالياً في متحف اسطنبول كما عثر على تابوت روماني من الرخام يعود إلى القرن الأول ق.م. وهو أيضاً موجود في المتحف المذكور وعليه رقيات ومنحوتات تمثل الملك هيبوليت والملكة فيدر، ومناظر صيد وجمجمتين لرأس ثور متوجتين برؤوس ميدور (وهي شخصية مشوهة ممسوخة)[١٧].

كما عثر في نفس المنطقة (حوش العبيد) على مقبرة للفقراء تتمثل بالمدافن الأرضية المتكونة من الحجارة والأتربة، كا عثر أيضاً بجانب هذه المقبرة على حواجز رملية وأسوار صلبة تعود إلى القرن الأول ق. م.

كما أنه عثر حديثاً حوالي سنة ١٩٧٥ في نفس المنطقة (حوش العبيد) على أثر حفر أساس

□ رسم لموقع برج «النبط» والجامع العالي بالميناء في سنة ١٨٦٠.



لاحدى البنايات على مجموعة من النواميس الحجرية رومانية/ بيزنطية الصنع، احتفظت بها مديرية الآثار في مبناها القائم في تلك المنطقة.

كل هذه المكتشفات تثبت أن دولة الرومان حلت مكان الدولة الفارسية واستعملت أبنيتها وطبعتها بطابعها الروماني وخصوصاً حي حوش العبيد الذي زينته بالمعبد والقصر والمدفن وهي احتياجات المدينة في تلك الحقبة، ثم حلت الدولة البيزنطية مكانها وأضافت إلى المباني الرومانية مباني جديدة بيزنطية الروح والتصميم ومن هذه المظاهر التي بهرت الأنظار وأوحت بعملقة الدولة الرومانية/ البيزنطية تمثال بيغاس، حصان (بيليرفون) الأسطوري وتماثيل من صنع (أبكار وديدال) وهما من أشهر المثالين الرومان وتعتبر من روائع فن الحفر والنحت في العالم[18].

إلا أن هذه المنشآت تهدمت في زلزال سنة ٤٥٠م في عهد الامبراطور موريقان وحسب سياسة الدولة البيزنطية المتبعة، فقد أعاد هذا الامبراطور ٤٥٠ ـ ٤٥١م ما تهدم من المدينة وأعاد تزيينها بأحسن مما كانت عليه، وأعاد ترميم تحصيناتها المتمثلة بسورها الشرقي الضخم وحصونها المنتشرة من شمال المدينة حتى جنوبها.

وتوالت الزلازل على الميناء والساحل الفنيقي وأشدها ضرراً كان زلزال سنة ٥٣٩م و ٥٥١م الذي دك كامل الميناء وبيروت وأهم ما تبقى من مبانٍ في الميناء حتى الفتح العربي هو السور والأبراج الحصينة وبعض المعابد.

مساحة مدينة الميناء الفنيقية

كانت مساحة الميناء في العهد الفنيقي تساوي مساحة مدينة صور أي ألف ذراع مربع[19] وكان الامتداد العمراني يمتد على طول الساحل الشمالي من الميناء بشكل مستطيل أي أن طولها ٣٠٠ ذراع وعرضها ٢٠٠ ذراع وفيها ثلاثة حصون الأول عند طرفها من الجهة الشرقية الشمالية، والثاني في شمالها ويبعد عن الأول مسافة ٢٠٠ متر والثالث في غربها ويبعد عن الثاني حوالي ٦٠٠ متر، وهذا البعد بين البرجين الأخيرين يعود لاحتمالين:

الاحتمال الأول: إن البرجين يقعان على رؤوس بحرية ناتئة ويطلان على بعضهما البعض.

الاحتمال الثاني: إن جزيرة البقر تقع في وسط هذين البرجين وتؤلف معهما مثلثاً يشرف على البحر ككل.

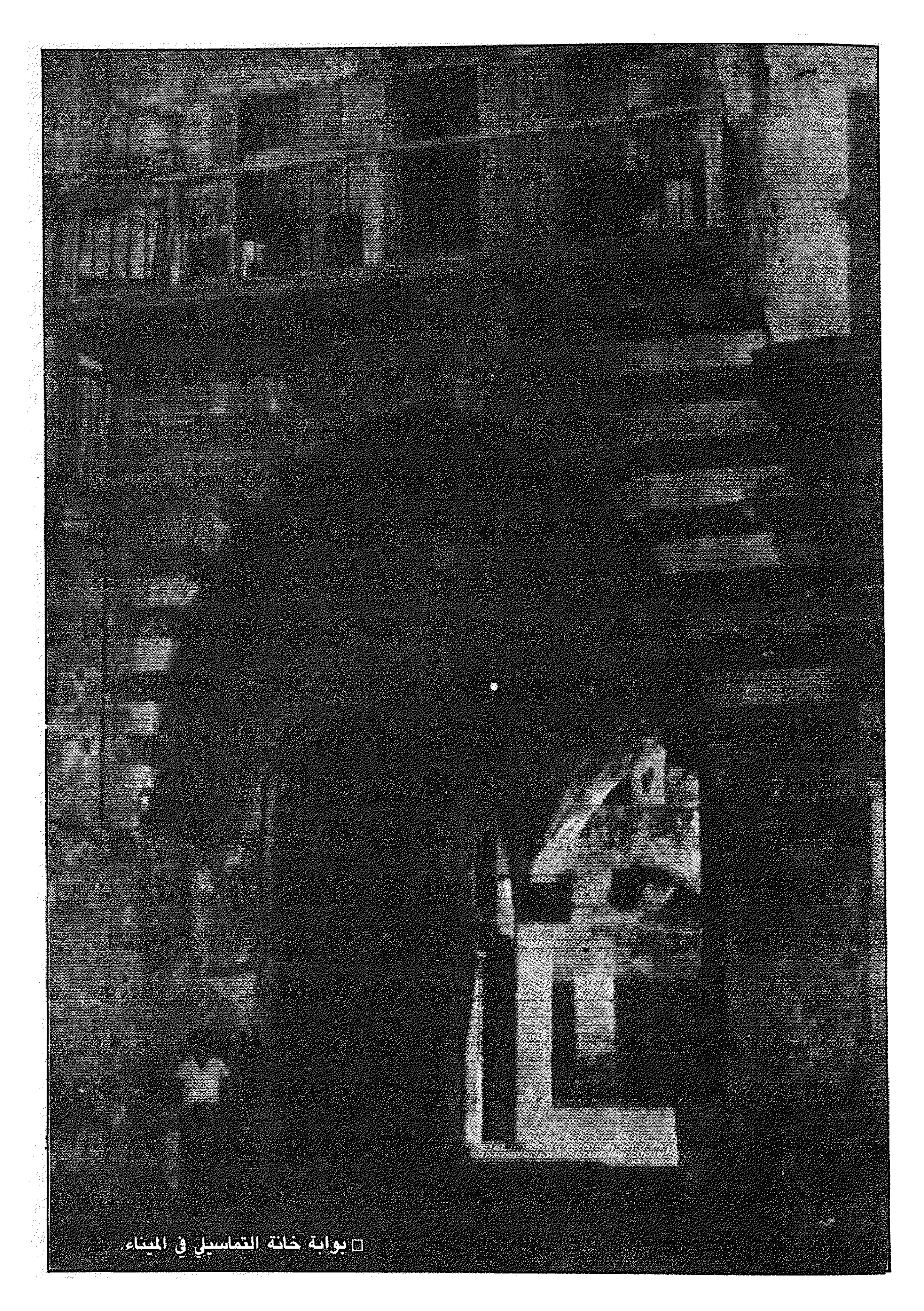
أما ارتفاع سور الميناء فيحتمل أنه كان بارتفاع خمسة أمتار مماثلاً لسور مدينة جبيل[20].

أما في العهد الروماني فإن مساحتها ازدادت من جهة الشرق والجنوب وتوسعت لخارج أسوارها الفنيقية وحصنت بسور واحد في طرفها الشرقي وزيد من عدد أبراجها كما حصن خليجاها الشمالي والجنوبي بحصون وقلاع جديدة.

لمحة عن سورها وحصونها وملحقاتها البحرية

(أ) **السور**. عملية تحصين المدن عادة قديمة قدم التاريخ المدون، إلا أن انتشارها جاء مع قدوم الأغريق والرومان إلى الشرق تبعاً لنمط دولة المدينة عندهم، وتحصين المدينة بأسوار عالية وأبراج تشرف على الخارج والداخل وبوابات كبيرة من الخشب أو الحديد تقفل من غروب كل نهار وتفتح مع فجر كل يوم وتفصل بين السكان الآمنين في الداخل والغرباء القادمين من الخارج بقصد التجارة أو الحرب.

وكانت مدينة الميناء محصنة تحصيناً قوياً، إذ يمتد سورها ذو الحجر المنيع في شرقها وأمامه خندق عظيم ويقوم باب المدينة الرئيسي في وسط السور الشرقي، وهو من الحديد الثقيل المحكم الصنع، وقد تهدم هذا السور بزلزال قوي ضرب المدينة سنة ٤٥٥هـ /١٠٦٤م وأعيد بناؤه، لهذا استدعى فتحها من قبل العرب سنتين ومن قبل الصليبيين عشر سنوات، وقد ساعدها على ذلك ملحقاتها البحرية التي كانت تتلقى المساعدة والمعونة عن طريقها، وقد ترك لنا كل من الواقدي (٢٠٧هـ /٨٢٢م)[21] والبلاذري (٢٧٩هـ /٨٩٢م) واليعقوبي (٢٨٤هـ /٨٩٧م) والطبري (٣١٠هـ /٩٢٢م) والمسعودي (٣٤٦هـ /٩٥٧م) وابن



□ بوابة خانة التماسيلي في الميناء.

عساكر (٧٥١هـ/١١٧٥م) تركوا لنا وصفاً جميلاً عن سورها وحصونها المنيعة والحصينة، أما ما تركه لنا مؤرخو القرن الخامس الهجري وما بعده، ففيه من وصف سورها الشيء الجميل، ومما قاله ناصر خسرو العلوي[٢٢] بهذا الخصوص ما يلي:

«مدينة طرابلس مشيدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواجه السور، أما الجانب المطل على اليابسة ففيه خندق عظيم، وعليه باب حديدي محكم وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول. (يقصد قلعة سان جيل)».

أما الأدريسي[٢٣] وهو من مؤرخي القرن السادس الهجري، فيقول عن طرابلس (الميناء):

«مدينة طرابلس الشام مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع ولها رساتيق وضياع وأكوار، ولها عدة حصون وقلاع ومنها في جهة الجنوب (خطأ الصح في جهة الشرق) حصن بناه ابن صنجيل، وهو حصن منيع ويقابل مدينة طرابلس أربع جزائر في صف... (كذا)».

وقد وصفه كل من المقريزي وأبو المحاسن وابن الفرات[٢٤] أنه من أعظم الأسوار وأمنعها، أما الفيومي[٢٥] فقد ذكر أن السلطان (يقصد قلاوون) لما رسم بخراب سورها وشرع الحجارون بذلك، وجدوا عرض السور ما يسوق عليه ثلاثة فرسان بالخيل (أي ما يقارب أربعة أمتار) وحكى عن عظم بنيانه وقوة أساساته وحصانته.

ويبدو أن السلطان قلاوون عدل في الأخير عن هدم السور لأنه وجد أن تكاليف نقبه تبلغ أضعاف نفقة بنائه لذا نجد ذكر هذا السور الذي عمر دهراً، يرد في ما بعد عند مؤرخي العصر المملوكي، وما زال جزء منه موجودا حتى أيامنا هذه، يشهد بضخامته وشموخه في الجهة الغربية الجنوبية للميناء وبالتحديد في أرض عائدة ملكيتها لعائلة مابرو، على كورنيش البحر حالياً.

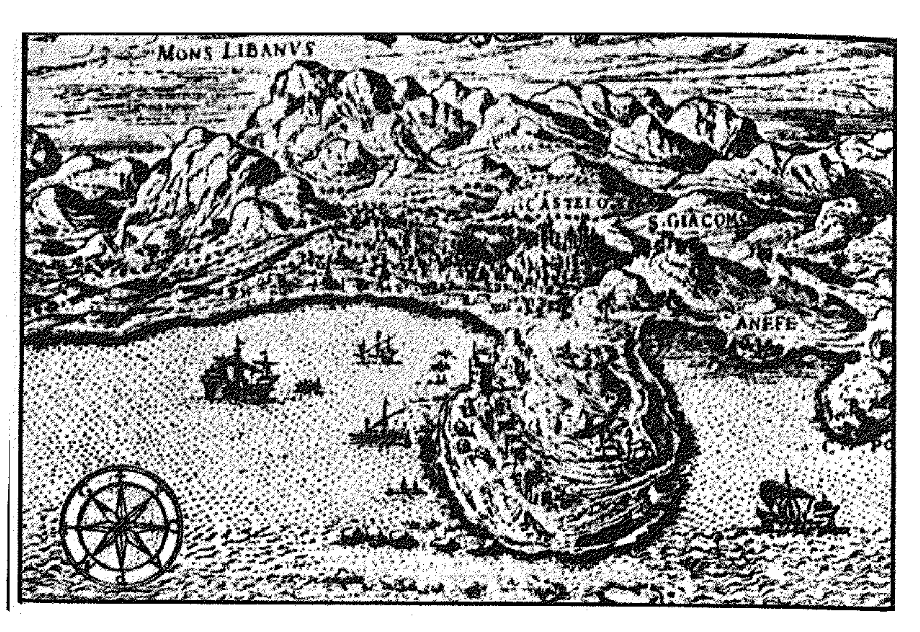
(ب) الأبراج يبدو أن مدينة الميناء الفنيقية ظلت محافظة على معالمها الرومانية/ البيزنطية حتى بعد الفتح العربي لها لذا استعنا بالمؤرخين العرب الذين زاروها وأتوا على ذكر ابراجها وقلاعها التي وجدوها على حالها منذ الزمن الفنيقي وحتى بعد دخول الفاطميين لها.

ونلاحظ من سرد الوقائع التاريخية أن مدينة الميناء الفنيقية كان لها ثلاثة حصون (أبراج) لم يصلنا من أسمائها القديمة شيء، والأرجح أن تكون أسماؤها منطبقة على أسماء أحيائها الثلاثة نيوام ونوغس وهرنكيرو، اما أمكنة وجود هذه الأبراج وأسماؤها حالياً فهي كما يلي:

أول هذه الأبراج في الشمال في المنطقة المعروفة الآن بالحوض الناشف أو البوابة، وما زال هذا البرج يعرف اليوم برباط الشيخ عفان، وهو عبارة عن برج قديم ضاعت معالمه القديمة بسبب هدمه وإعادة بنائه وقد نزله أحد المرابطين المسلمين القادمين مع الفتوحات العربية، وهذا المرابط مجهول الهوية، وثاني الأبراج يقع في شمال غرب المدينة ويعرف منذ القدم ببرج السراي أو برج الديوان وحتى وقت قريب أي قبل سنة ١٩٥٨ كان هذا البرج ما زال قائماً ويضم مفرزة الدرك في الطابق العلوي، أما الطابق السفلي فقد كان يشغله أحد العامة كمقهى، وقد هدم واندثر خلال حوادث سنة ١٩٥٨ وأقيم مكانه جامع عمر بن الخطاب، أما البرج الثالث فهو في غرب الميناء ويسمى برج المشتى أو برج عزالدين، وسمي غلط ببرج المغاربةوالصحيح أنه البرج الغربي، فقد التبس الأمر على الدكتور أسد رستم والدكتور سيد عبدالعزيز سالم رفعاً لأسانيدهما بين برج عزالدين وبرج المغاربة الذي سنأتي على ذكره لاحقاً.

أما لماذا سمي برج عزالدين بالبرج الغربي، فذلك بسبب وجود باب يطل على البحر في جداره الغربي حيث أطلق عليه اسم باب البحر أو الباب الغربي، ثم غلب عليه اسم الباب الغربي وموقعه كبرج في غرب الميناء فسمي بالبرج الغربي.

ولعل للميناء اكثر من باب، تبعاً لكونها ثلاثة أحياء، فالمعقول أن يكون لكي حي بابان أحدهما يطل على البحر وهو باب المرفأ والآخر يطل على البر، أما إذا اعتبرنا أن مدينة الميناء اقتصرت



□ خريطة «زولات» (Zbllart) لطرابلس البحرية.

معاملاتها على البحر فقط، فيكون لها ثلاثة أبواب تطل كلها على البحر.

وبعد أن اندمجت هذه المدن في العهد الروماني وانحصرت في ما وراء سورها الشرقي فبات لها بابان أحدهما في الشرق مع السور ووراء الخندق، والثاني هو باب البحر في برج عزالدين الوارد ذكره أعلاه.

عندما احتل الرومان هذا الثغر (الميناء) زادوا من عدد حصونها الثلاثة الفنيقية الصنع بحيث امتدت هذه الأبراج مع الساحل من الشمال إلى الجنوب بغية وضع حدود جغرافية لولاية طرابلس وتوابعها وقد وصلنا من أسمائها القديمة أسماء ثلاثة أبراج موجودة في جون طرابلس الشمالي، فهي مما يلي طرابلس برج لوتورس والآخر بابيه وهو على نهر جار والثالث برج الحمام وهو يقابل برج عرقة الداخلي وفي جون طرابلس الجنوبي وصلتنا أسماء ثلاثة حصون أخرى وهي حصن انفالحجر (وهو قلعة ما زالت آثارها موجودة على شاطىء أنفة الصخري المترامي مع البحر) وحصن القلمون ومن ثم عرف برج الحمام باسم حصن ارطوسة، وحصن بابيه بحصن أبو العدس[٢٦].

أما ما تبقى فهو يعرف بأسماء جديدة نوردها كما يلي:

(١) برج الحمام، وهو يقع على نهر البارد في سهل أرطوسة. وهذا السهل يمتد بين نهر البارد ونهر الأولي ويقابل هذا البرج الساحلي برج عرقة الداخلي، وقد اندثر بفعل الزمن ولم يبق منه شيء.

(٢) برج بابيه يقع على نهر البداوي في سهل أو مرج السلسلة الذي يمتد بين نهر البارد ونهر البداوي وأظنه البرج المندثر المتبقي منه الشيء اليسير ضمن منشآت شركة النفط على شاطىء البحر والمعروف عند بعض المؤرخين **ببرج** أبي القدس، ويرجحون أنها **الكنيسة** التي وجدها العرب عند فتحهم لمدينة طرابلس (الميناء).

وقد دارت مناقشات كثيرة حول تحديد موقع الدير والحصن، هل هما مجتمعان في بناء واحد أو متقابلان؟ وهل هي الكنيسة والدير التي شاهدها العرب عند تحرشهم الأول بطرابلس سنة ١٣هـ؟ وإذا كانا منفصلين فما اسم الحصن وما اسم الدير؟.

ولاجلاء هذا الالتباس حول الدير والحصن لجأنا إلى مؤرخي الفتوحات الاسلامية من سابقين ولاحقين.

فقد ذكر الواقدي في كتابه فتوح الشام، المعركة التي جرت بالقرب من طرابلس سنة ١٣هـ في مرج السلسلة عند حصن يعرف بأبي القدس حيث هاجمت قوة من المسلمين بقيادة عبدالله بن جعفر جموع الروم وهم في **سوق كبير لهم عند دير، بالقرب من الحصن** وكادت الغلبة أن تكون للروم لولا أنجد المسلمين خالد بن الوليد[٢٧].

وهذا يؤكد أن الدير يوجد بالقرب من الحصن، وأنهما بناءان مستقلان عن بعضهما البعض وأن الحصن كان مزوداً بدير صغير يعيش فيه أحد المحابيس الذين حبسوا أنفسهم للتعبد بعيداً عن الناس وكان يظهر للناس مرة واحدة في السنة في عيد الشعانين، لذلك سمي بأبي القدس تماشياً مع قداسته ومما يعزز هذا القول لمحة أخرى وردت عند الواقدي على لسان أحد القواد العرب وهو يصف طرابلس (الميناء) لأحد الأمراء من موقع مخيمه فيقول:

«... فقال أيها الأمير أنها بإزائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس، وبإزائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية.. (كذا)[٢٨]».

وهذا القول يدل على أن الدير بإزاء الحصن على الساحل وتسميته بدير الساحل يقصد به الحصن بذاته حيث يقيم الحبيس، أما الدير أو الكنيسة التي تكلم عنها العرب فتكون في الجهة المقابلة بإزاء الحصن.

وبما أن مرج السلسلة يقع عند سفح جبل تربل امتداداً حتى البحر فيكون الدير أو الكنيسة في سفح جبل تربل حيث عسكر المسلمون وشاهدوها ووصفوها.

ويصف ابن عساكر الكنيسة قائلاً[٢٩]:

«تقع خارجها بالقرب من أحد حصونها من الجهة القبلية (الشرقية) منها..».

ويضيف ابن عساكر، بأن المسلمين أبقوا على هذه الكنيسة فكانت ما تزال قائمة إلى ما بعد منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي).

وبما أن الكنيسة أو الدير يقع في سفح جبل تربل فإن البرج أو الحصن يقع على الساحل الموازي له أي ضمن منشآت شركة النفط (أي. بي سي) (البداوي).

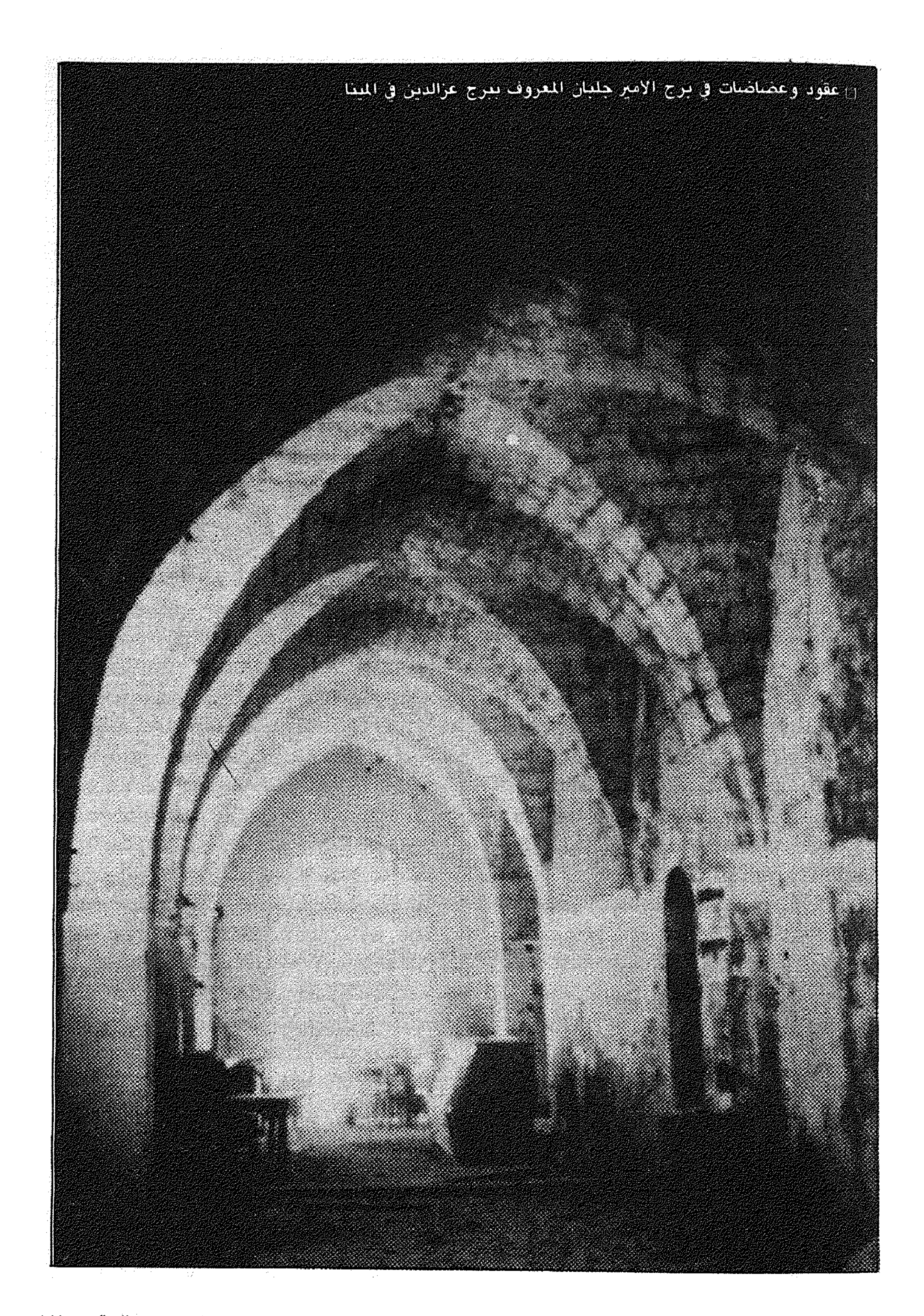
ومما حملنا أيضاً على التأكيد بأن الدير موجود في سفح جبل تربل حيث الشعلة والخزانات الدراسة والبحث الذي قام به العلامة الأب فييه[٣٠] حول الدير المندثر والمسمى دير القديس لاونتيوس الذي يقع شرق المدينة على بعد ٧.٥٠ كلم، وإنه نجا من زلزال سنة ٥٣٩، وزلزال ٥٤٣ الذي خرب طرابلس ونجا أيضاً من زلزال سنة ٥٥١ ومده الذي غمرت مياه البحر معظم مدينتي طرابلس وبيروت بفضل موقعه المرتفع عن سطح البحر وأنه استمر في الوجود بحسب قول الأب فييه حتى أواخر القرن السادس بينما يؤكد محدث طرابلس آنذاك الشيخ معاوية بن يحيى إنه بقي حتى منتصف القرن الثامن ميلادي[٣١].

وبذلك يكون اسم الحصن، حصن أبي القدس أو أبي العدس كما سماه الأدريسي[٣٢] وهو سابق ببنائه على بناء الدير، وتكون الكنيسة أو الدير هو دير القديس لاونتيوس شهيد الملك هدريان (١١٧ ــ ١٣٨هـ) الذي بناه الامبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ ــ ٥٦٥) تكريماً لهذا القديس الشهيد[٣٣].

وسمي بعضهم هذا البرج، برج النبط، ولعلها تسمية صحيحة لكون الراهب «يوقنا» الذي كان يسكن هذا البرج وشاهده العرب في أول مراحل تحرشهم بالمدينة كان نبطياً، والنبط جماعة من المسيحيين يتكلمون السريانية، فلا عجب إذا سمي البرج ببرج النبط تبعاً للراهب النبطي المقيم فيه، ويعرف أيضاً ببرج التعتور كما تلفظها العامة وأصلها الدعتور نسبة لاسم تلك المنطقة.

(٣) برج لوتورس، وهو برج رأس النهر الذي يقع عند مصب نهر أبي علي في شمال طرابلس والمشهور ببرج قاتيباي[٣٤] وما زال قائماً محافظاً على معالمه الرومانية المتمثلة بالأعمدة السوداء المستديرة النافرة المتداخلة بين حجارته المربعة والمستطيلة الشكل، وهو على شكل المربع مع زوايا نصف دائرية ويبلغ ضلعه حوالي ٢٥ متراً، ويبدو أنه كان مؤلفاً من أكثر من طابق، بقي منه الطابق الأرضي، وسماكة حائطه تبلغ حوالي المترين وقد اهتم كل من الصليبيين والمماليك بصيانته، إلا أن أحدهما لم يستطع أن يصبغه بطابعه، وهو الآن آيل للخراب لعدم اهتمام مديرية الآثار بترميمه، وبالرغم من خرابه فهو مقصد من مقاصد أهل الترف واللهو.

(٤) برج السباع كما أحب أن يسميه المؤرخون، وينسبوه إلى سان جيل الصليبي (ريموند دي سان جيل) بسبب رواية لم تثبت صحتها، وهي أنه كان يوجد على المدخل الغربي لهذا البرج تمثالان لأسدين وهما من شارات



□ عقود وعضاضات في برج الأمير جلبان المعروف ببرج عزالدين في الميناء

ريموند دي تولوز الخاصة، وأن آخر من شاهد هذه الرموز هو الرحالة (Burchhardt) بركهارت سنة ١٨٠٦ وعنه نقل الغير، إلا أن من سبق هذا الرحالة أمثال (Arow Ecklin Von) سنة ١٥٣٣ و (Furer Von Hamendrof) سنة ١٥٦٦ و (Rauwolff) سنة ١٥٧٣ و (Zuallart) الذي رسم صورة لشاطىء الميناء وابراجه، لم يذكروا شيئاً عن هذه الشارات بل اختصروا كلامهم على وصف هذه الأبراج وعددها الذي يتراوح ما بين السبعة والعشرة.

وما يعزز الاعتقاد ببطلان هذه الرواية، أن ريموند دي تولوز لم يدخل الميناء البتة وأنه توفي في سنة ٤٩٨هـ /١١٠٥م قبل دخولها ودفن في القدس وهذا ما يعزز أيضاً الشكوك حول أن يكون هو المجدد لهذا البرج، لأنه كان طيلة فترة وجوده بقرب طرابلس (الميناء) دائب السعي لتحقيق حلمه بالاستيلاء على طرابلس وجعلها مملكة له، حائراً بين ما عاناه من اضطرابات داخلية بين جنده الذي انقسم وتركه القسم الأكبر منه، وبين المؤامرات التي دبرها ضده القواد الصليبيون، مما جعله يصب اهتمامه للتغلب على هذه الأمور ويرسخ عزمه ببناء قلعته التي يحتمي فيها ومنها فيما بعد سوف يستولي على طرابلس حلمه القديم. وهذا سبب جوهري يبعده كلياً عن التفكير بإقامة الحصون الأخرى ووضع شاراته عليها، وأكبر الظن أن خلفاءه هم الذين اهتموا فيما بعد بتجديد وترميم الحصون السابقة لهم وعليهم ومنها برج السباع أما اسم السباع فهو تحريف وتصحيف لكلمة بارسباه الأمير المتوفي سنة ٨٥١هـ /١٤٤٧م. وهو نائب السلطنة المملوكية في طرابلس سنة ٨٤٣هـ /١٤٣٩م وقد اعتنى بصيانة وعمارة هذا البرج فأصبح يعرف ببرج سباه، وابدل العامة حرف الهاء بحرف العين تسهيلاً للفظ فأصبح يلفظ برج سباع[٣٥].

اما ما قاله الدكتور أسد رستم حول اسم البرج بأنه البرج السابع، فهو قول غير مناسب، لأنه لو عددنا الأبراج من الشمال إلى الجنوب يكون رقمه الرابع، وإذا عددناها بالعكس يكون رقمه الثالث عشر، هذا إذا صح أن عدد الأبراج ستة عشر كما هي واردة في هذه الدراسة، وإلى أن يثبت العكس لا يسعنا إلا الاعتماد على هذا الرقم، أما إذا غفل الدكتور رستم بعض الأبراج التي لم يصله اسمها ولم يشاهد مواقعها، ولم يحدثه عنها محدث، فيكون الرقم بحسب زعمه صحيحاً.

ويتألف هذا البرج من طابقين، تهدم الثاني وبقي الأول، وما زالت السلم الحجرية التي تصل بين الطابقين موجودة، يصعدون منها إلى السطح، ويبلغ طول ضلعه ٢٥ متراً وارتفاعه ١٢ متراً وبوابته تقع في الجانب الغربي له وهي جنوبية النمط، صليبية البناء، إذ تقاربت حجارتها السوداء والبيضاء بشكل متناسق ومتناوب كبوابات أكثر جوامع ومدارس مدينة طرابلس (الحي اللاتيني) والتي كانت في الأساس كنائس بناها الصليبيون، ويوجد بداخله بئر ماء مر المذاق، ويقال أنه كان بداخله كنيسة، وهو زعم صحيح إلى حد ما، لأن الكنيسة كانت شرطاً أساسياً في أمكنة تواجد الجنود الصليبيين لتأدية الواجبات الدينية، وقد تحولت هذه الكنيسة إلى جامع ليؤدي الجنود المسلمون المرابطون فيه الصلاة ولم يزل محراب الجامع ماثلاً للعيان، ويقال أيضاً أن ممراً سرياً كان يصل بين البرج وقلعة طرابلس وهذا زعم صحيح أيضاً إلى حد ما، بسبب التربص الذي كان بين العرب والصليبيين مما يستدعي مثل هذا الممر بين القلعة مركز الصليبيين الأم، والبرج، لارسال العتاد والعدد دون تعرضهم للقتل، وقد اندثرت أكثر هذه الممرات بسبب حركة البناء التي قامت في المنطقة بين الربض وسكة حديد الميناء حيث يقع البرج.

وقد أشار مؤرخ طرابلس الدكتور تدمري إلى وجود هذه الممرات بقوله[٣٦]:

«كانت أبراج الميناء محصنة **ويدخل بعضها إلى بعض** ولا منفذ لها إلى المدينة».

(٥) برج المحطة، ويقع عند المدخل الرئيسي للمحطة (سكة الحديد) في الجهة الغربية وتعود ملكيته حالياً لآل عبدالوهاب، طول ضلعه بحدود ٢٥ متراً وارتفاعه بحدود الستة أمتار، وحتى وقت قريب كان عبارة عن مخازن للخشب، وقد أشاد أصحابه بناء جديدا فوق مسطحه، مؤلفا من عدة طوابق، وما زال بناء البرج القديم

موجوداضمن الجدران الجديدة، وما زال يحتفظ باسمه برج المحطة ولعله برج المغاربة لأنه كما يقال بأن المغاربة سكنوا في تلك المنطقة مع دخول الجيوش الفاطمية (العبيدية ــ المغاربة) إلى طرابلس.

(٦) برج الاسبتارية، وهو برج قديم موقعه التقريبي حالياً في الحوض الناشف (المطار في الحرب العالمية الثانية) مقابل البراد وتستخدم ارضه حالياً مركزاً لبناء السفن لصاحبه المرحوم محمد يحيى. أما عن اسمه، فقد أخذه من فرسان الاسبتارية (الداوية) (فرسان القديس يوحنا) الذين أخذوا البرج كهبة من الصليبيين سنة ٥٣٦م تقديراً عن شكرهم للفرسان بمساعدتهم في الاستيلاء على ميناء طرابلس، كما وهب الصليبيون للفرسان كنيسة القديس يوحنا في أبي سمراء والمعروفة حالياً باسم مقبرة الموارنة.

وكان يقع هذا البرج قديماً في الجهة المقابلة لبرج الأسقف مع السور الممتد بينهما على البحر[٣٧] إلا أن السلطان قلاوون أمر بهدمهما وتسويتهما مع الأرض ولم يبق منهما أي أثر حالياً.

(٧) برج الشيخ عفان، أو التكية، وقد عرف باسم الشيخ عفان تبعاً لأحد المرابطين الذين قدموا مع الجيوش العربية، وقد هدم هذا البرج كلياً وأقيم مكانه مزار صغير للصيادين ولبعض المؤمنين ألحق به بناء حديث وهو المنزل الحالي لآل علم الدين.

(٨) برج السراي أو الديوان، يقع عند الجمرك، وقد هدم منذ ٢٦ سنة عقب أحداث سنة ١٩٥٨ وأقيم على أنقاضه جامع عمر بن الخطاب، وكان يضم مخفراً للدرك وجامعاً صغيراً، ويبدو حسب رسم زالارت لساحل طرابلس أن برج السراي كان أكبر الأبراج ومؤلفاً من ثلاثة طوابق وتعلوه راية، مما يؤكد قيمته الاجتماعية لكونه يضم الديوان حيث تصرف أعمال الناس ولعله البرج الذي جدده الأمير عبدالملك بن مروان في زمن الدولة الأموية[٣٨].

(٩) هناك برج آخر قديم لم يصلنا اسمه الحقيقي حتى أن الناس يمرون من أمامه ولا يعرفون قيمته الأثرية والتاريخية، وهو بناء ضخم قديم يقع في منطقة المشتى حالياً وأظنه برج المشتى المشار إليه عند المؤرخين وسبب الالتباس يعود إلى تغيير بعض معالمه فأصبح من يراه يحسبه بناء عادياً، وبسبب قربه من برج عزالدين (يبعد عنه حوالي العشرين متراً) فقد غلب على الأخير اسم برج المشتى. وهو مؤلف من طابق أرضي يحتوي على ثلاثة مخازن كبيرة يبلغ ضلعه ٢٠ متراً وارتفاعه ستة أمتار ويعلوه بناء بداخله أعمدة قديمة وفي باحته السماوية مدخل غرفة تحت الأرض لا ندري إلى أين تؤدي، وهل هناك قنوات خفية تصل بينه وبين برج عزالدين أم لا؟ وهل كان هذا البناء قصر الحاكم الصوري الفنيقي؟ لكون العقار يقع في حي هرنكيروا، أم أنه قصر الحاكم الروماني أو البيزنطي؟ أم أنه برج المشتى الحقيقي الذي أشار إليه المؤرخون؟ هذا ما سوف نتركه للكشوفات الأثرية.

وحتى فترة زمنية قريبة لا تتعدى العشرين سنة كان هذا البناء ملحقاً ببناء آخر لا يقل عنه ضخامة ويفصل بينهما سلم حجري عريض يربط بينهما وبين الطريق المؤدية للبحر، إلا أن هذا القسم الشمالي، هدم وشيد مكانه بناء حديث مؤلف من عدة طوابق، وبقي القسم الجنوبي البرج حالياً بحالته الحاضرة، وهو بتملك آل البرط وسكنه آل نادر فترة، ومن ثم اتخذته الجبهة الديمقراطية الفلسطينية مقراً لجماعتها، والتي استخدمت الغرفة السرية في البناء كسجن ومخزن للسلاح.

(١٠) برج عزالدين، أو البرج الغربي، من هنا الالتباس في تسميته برج المغاربة وعرف أيضاً ببرج المشتى وقد سبقت معالجة تسميته هذه، وهو ما زال ماثلاً للعيان، ومن اكبر الأبراج على الاطلاق، يبلغ طول ضلعه حوالي خمسة وثلاثين متراً وهو مربع الشكل، ولفترة خلت كان يعلوه بناء مؤلف من طابقين تسكنه بعض العائلات، وقد بيع مؤخراً للسيد الفرد الخازن الذي رخص له بإقامة فندق سياحي على ظهره مع وجوب الاحتفاظ بالبناء الأثري القديم، وبسبب أحداث عام ١٩٧٥ تعطل العمل بهذا المشروع ومن ثم بيع إلى آل الزيلع (تجار البناء) حيث أقيم فوق مسطحه الأساسي بعد التدعيم بناء مؤلف من عدة طوابق، والطابق السفلي منه

وهو بناء البرج الحقيقي يحتوي على عنابر كبيرة جداً بعمق ٢٠ متراً واكتشفت فيه آبار عميقة وقد تكون ممرات جوفية داخلية تصل فيما بين البرج وجزيرة البقر القريبة جداً منه أو بينه وبين البرج السابق ذكره (برج المشتى) الذي يبعد عنه حوالي ٢٠ متراً، أو أنها تصل بين أجزاء البرج، ولعلها آبار للنذور وهي عادة توجد تحت أرضية المعبد. والبحر يلامس أساساته، ولفترة قريبة كان يشغل قسم منه كمقهى سياحي عرق بمقهى عزالدين أو مقهى عزيزة، والجزء الآخر شغل كحوض ناشف لبناء المراكب الصغيرة.

وعلى أثر الاصلاحات الأخيرة التي قام بها السيد خازن اكتشف فيه تماثيل ذهبية صغيرة ولوحة رخامية بطول متر ونصف وعرض ٨٠ سنتم مرسوم عليها اسدان ورجل يحمل رمحاً ذا ثلاثة رؤوس وعملات نحاسية مربعة الشكل وعليها إشارة للوحة (الأسدين والرجل والحربة) واكتشفت أيضاً فيه كرات زجاجية ملونة على شكل مربع أيضاً، وأظرف ما استخرج من البرج، بوق من العاج طوله ٤٥ سنتم تقريباً وهو على شكل الأبواق التي استخدمها الانكليز في القرون الوسطى ومن خلال بحثنا حول موضوع هذه الأثريات التي حدثنا عنها محدث، تبين لنا أن هذه الأشياء تعود إلى العهد اليوناني/ الروماني وهي تمثل ما يلي:

البوق: شعار آلهة الثروة (Dieu de Fortune) عند اليونان والرومان، وهذا الشعار في الأساس يمثل امرأة معصوبة العينين تضع قدميها على دولاب طائر ذي جناحين أي أنها تهب الثروة إلى مستحقيها دون تحيز أو تفضيل، أما العملة النحاسية فهي الثروة التي توزعها الربة ويحتمل أن تكون هذه العملة كانت موجودة داخل البوق ولكنها تناثرت بفعل الحفريات أو أنها من بقايا النذور.

الشعار: أما اللوحة التي تحمل رسم الأسدين والرجل صاحب الحربة ذات الثلاثة رؤوس فهي تمثل حارس مملكة الموت الذي يحمل شعار ملكة الجحيم بروسربين (Proserpine) ابنه الاله جوبتير والأسدان هما حارسا باب الجحيم.

الكرات البلورية: هي أدوات للزينة استخدمها الرومان في تأنقهم أو أنها هدية نذرية لآلهة معينة.

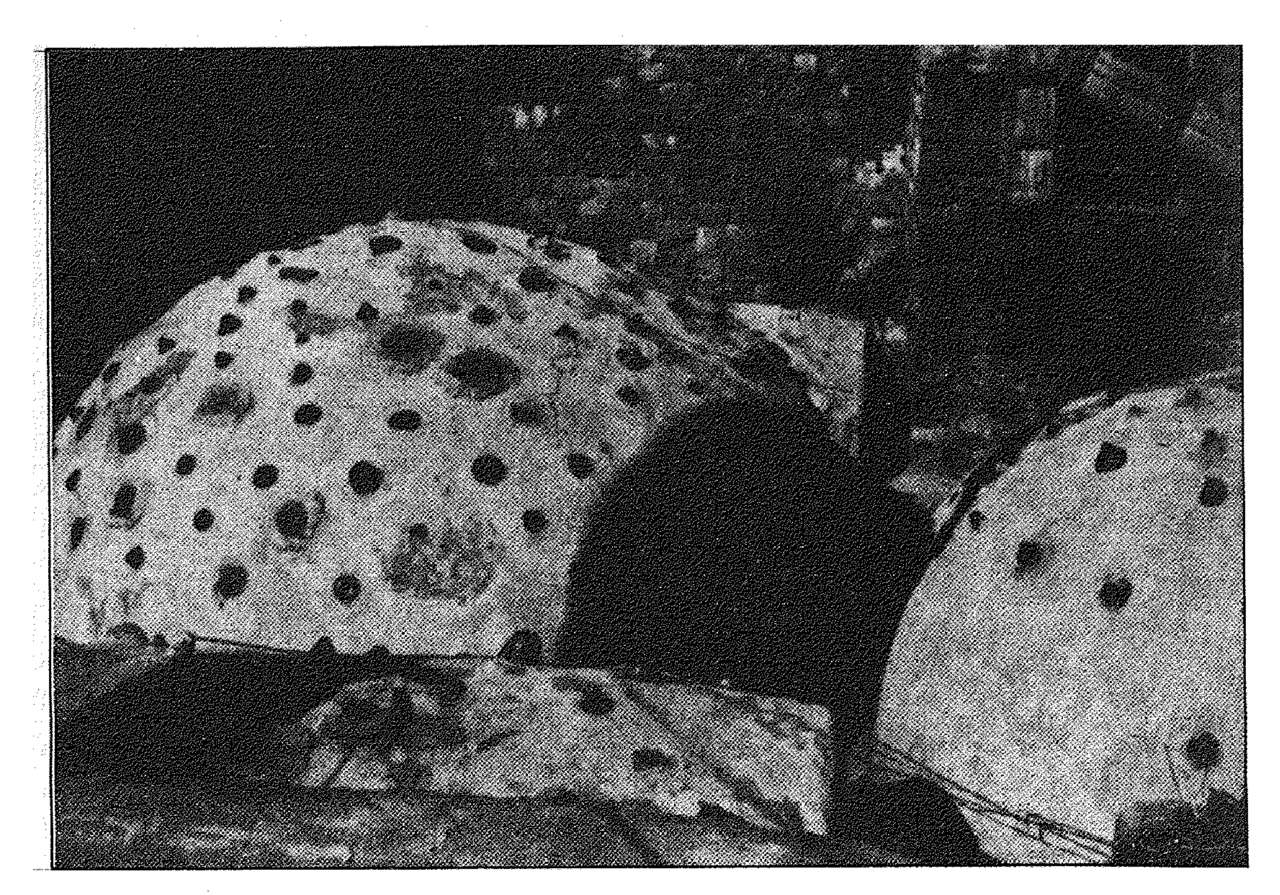
وقد التبس على البعض وجود إشارة السبعين والرجل على اللوحة والعملات، وقالوا أنها من رموز الصليبيين إلا أن الحقيقة أن هناك أكثر من أمير صليبي وسلطان عربي ومملوكي، كان شعارهم الأسد، والحقيقة الثانية أن هذه العملة لا تحمل إشارة الصليب ولا الشمس والهلال التي اشتهر بها العصر الصليبي لذا فهي ليست صليبية ولا عربية، بل هي رومانية المنشأ وثنية الديانة.

(١١) هناك برج قديم مغفل الاسم، يقع في غربي مدرسة مارالياس على الصخور التي تلامس البحر، ويبلغ طول ضلعه حوالي خمسة عشر متراً وحتى وقت قريب كان يسكنه بعض الفقراء، واستعمل مؤخراً كمقهى من قبل البعض، وما زال شكل بنائه البيزنطي ماثلاً للعيان.

(١٢) برج الحمام المقلوب، نسبة إلى حمامات الرومان التي أزيلت بزلزال عام ٤٥٥م ويقع في منطقة (فوق الريح) وهو بناء كبير مهدم يترامى مع صخور الشاطيء الجنوبي للميناء وتحته مغاور كثيرة وكبيرة، منقورة بالصخر، وأظنه برج المغارة، والعامة يسردون حوله الأساطير الخيالية والغريبة، أما اليوم فهو يستعمل كأسطبل للخيول، وكان لفترة سابقة مكاناً مفضلاً لهواة الانتحار، إذ يبلغ ارتفاعه حوالي العشرين متراً، ولم يبق منه إلا غرفة صغيرة والمغارة الموجودة تحتها.

(١٣) وهناك أيضاً برج قديم في جنوب غرب الميناء، موقعه الحالي في حوش العبيد بالقرب من المسلخ العتيق وبقربه فاخورة لآل عريرو، وأظنه برج الفاخورة نسبة إلى أرضه الصلصالية التي تصلح في صنع الفخار ولم يعد له أي أثر الآن.

(١٤) برج الأسقف وحسب قول رنسمان يقابل برج الاسبتارية مع السور الممتد بينهما على البحر فهو يقع في الجنوب الشرقي لمدينة الميناء وهو برج قديم أعيد بناؤه وترميمه في العهد الصليبي وسلم إلى أحد الأساقفة المدعو بطرس الأعور أسقف طرابلس عام ٥٣١ ويسميه وليم



□ قباب حمام العظم في الميناء.

الصوري (+ ١١٣٠م) بجيرار[٣٩] فسمي بذلك برج الأسقف، وقد هدمه المماليك مع برج الاسبتارية حتى أصبح أثرا بعد عين.

وبقي الساحل الجنوبي للميناء خالياً من الأبراج، لأن الطبيعة وهبته سداً طبيعياً من الصخور حمته من الغرباء والغزاة.

واستؤنفت الأبراج خارج مدينة الميناء في المنطقة الجنوبية الشرقية فكان كل من الأبراج التالية:

(١٥) برج البحصاص أو الجصاص أو الرصاص، وما زالت المنطقة حتى اليوم تعرف بالبحصاص، وهو في منطقة أبو حلقة وعرف عند الصليبيين باسم مونتروك (Mont-Rock) أي جبل الصخر، وظل البرج موجوداً حتى سنة ١٦٢٧ عندما نزله الأمير فخرالدين[٤٠].

(١٦) برج القلمون، ويقع على البحر وقد حول الآن إلى مسجد ويعرف بمسجد البحر.

(١٧) حصن انف الحجر، وهو عبارة عن كتلة صخرية ذات شقين تحتوي على غرفة صغيرة منقورة بالصخر ينزلون إليها بدرجتين صخريتين وتقع في الجهة الشمالية الغربية لمدينة أنفة على البحر ومنفصلة عن الشاطىء قليلاً يصلون إليها عبر صخور متقاربة يتنقلون عليها قفزاً، ويقال بأنها قلعة فنيقية كانت تضم قصر الحاكم وقد تعرضت لحفريات المنقبين عن الآثار واستخرج منها الشيء الكبير، وما تزال هذه القلعة ماثلة للعيان.

بعد هذا العرض نستطيع أن ندرك أن قسما من هذه الأبراج يعود مبدئياً إلى الفينقيين مثل برج عفان وبرج الديوان وبرج عزالدين، حيث أقيمت المدينة الفنيقية المثلثة.

ثم جاء الرومان فجددوا القديم وأقاموا العدد الآخر بأكمله مع السور، وتعاقبت الدول على الاعتناء بهذه الأبراج، حتى العصر الصليبي حيث بنيت القلعة الحصينة ورممت الأبراج القديمة وأضيف إلى بعضها بعض الملحقات كالكنائس لتأدية فروض الصلاة للجنود المرابطين فيها، وبذلك تكون المدينة (الميناء) قد أقفلت من جميع جهاتها بسلسلة من الحصون المنيعة، ثم جاء المماليك فهدموا قسماً منها مثل برج

الاسبتارية وبرج الأسقف، بسبب مضايقة هؤلاء لهم وباشروا بنقب سورها إلا أنهم عدلوا عن ذلك بعد ما تبين لهم أن نقبه يكلف أكثر من بنائه، ولأنهم وجدوا فيه حصناً منيعاً يقيهم الأعداء، واعتنوا في القسم الباقي من الأبراج ونسبوها إليهم وسموها على أسماء أمرائهم ونواب سلطنتهم.

وما لبث أن أهملت هذه الأبراج في العصر الأخير للدولة المملوكية وتمادى الاهمال في العهد العثماني إذ عمت الفوضى البلاد، فاندثر أكثر هذه الأبراج بفعل الزمن وما بقي منها آيل إلى الاندثار بفعل إهمال الدولة لها.

(ج) **الملحقات البحرية لمدينة طرابلس** (الأسكلة ــ الميناء) ملحقات بحرية، فبالقرب من الحصن الغربي ومن باب البحر بالذات توجد مجموعة من الجزر تتفاوت ما بين قريبة وبعيدة، كبيرة وصغيرة، ويبلغ عددها حالياً خمسة عشر جزيرة ولها أسماء اختلف حولها المؤرخون، فالشريف الأدريسي المتوفي سنة ٥٦٢هـ /١١٦٦م يعدد منها أربع جزر في صف واحد طولاً ويسميها جزيرة النرجس، جزيرة العمد، جزيرة الراهب، ثم جزيرة ارذقون أو ارذكون وهي ما تعرف اليوم حسب تسلسل الأدريسي، بجزيرة البقر، جزيرة البلان، جزيرة النخل أو الأرانب، وجزيرة الفنار.

بينما يسمي الدكتور سيد سالم[٤١] جزيرة النخل (جزيرة الراهب) باسم جزيرة سان نيكولاس ويسمي أبو الفدا[٤٢] جزيرة النرجس (البقر حالياً) القريبة من الشاطىء والتي يعبر إليها سباحة أو سيراً على الأقدام إذا كان البحر جزراً باسم جزيرة القديس توما.

وقد ذكر الدكتور سركيس هذه الجزر نقلاً عن رئيس المرفأ في طرابلس سنة ١٨٢٢ السيد بروكهوز وعددها بالشكل التالي: جزيرة البقر، جزيرة المقاطيع، البلان، الرميلة، الغارقة، ناله، لوقس.طويلة تاراس، السننية، الأرانب، الرمكين، وشعيسه القاضي[٤٣].

أما ما شاهدناه بأم أعيننا، فيقتضي التنويه وترتيبه من الشاطىء وما فوق هو ما يلي:

الاسم الحديث	الاسم القديم والمحتويات
(١) جزيرة البقر	جزيرة النرجس أو القديس توما، وما تزال حدود الكنيسة فيها واضحاً، لأن أساساتها حفرت في الصخر من الجهة الشمالية الغربية للجزيرة، ولعل دافع هذا النمط من البناء في غربي الجزيرة كان تفادياً لقساوة الرياح الشرقية العاتية. وهي الآن تستعمل من قبل آل عبدالوهاب لترميم السفن، وتسمى أيضاً جزيرة عبدالوهاب.
(٢) جزيرة البلان	جزيرة العمد، وما زال بعض الأعمدة موجودة عند شاطئها الشرقي وهي أعمدة رومانية الشكل، وهذا ما يؤكد وجود بناء روماني بها قد يكون معبداً أو برجاً أو قلعة صغيرة، وهذا يلاحظ بسهولة في غربي الجزيرة وهي عبارة عن أساس لجدران وفرجات أبواب ونوافذ ودرجات قليلة نقرت بالصخر وما شابهها وفي الجزيرة أكثر من حفرة على شكل آبار، حفرت بالصخر، فلعلها استعملت في القديم كآبار لجمع مياه

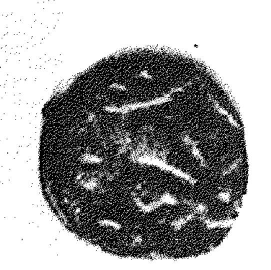
الشتاء، ومن ثم استعملها الفرنسيون كساتر صخري لحماية مدفعيتهم.

(٣) جزيرة النخل أو الأرانب: جزيرة الراهب أو القديس نيقولا، وحتى تاريخ قريب كان فيها استراحة لهواة السباحة وبئر ماء حلو المذاق، وشجر نخل فأخذت اسمها الحديث منه، وفي جنوب الجزيرة أخدود طويل يشطرها من الشرق إلى الغرب بشكل متعرج، يستطيع الانسان أن يسير فيه، وهو عميق في بعض المراحل وسطحي في مراحل أخرى وفي الجهة الشمالية الغربية للجزيرة توجد مقبرة رومانية صليبية البناء، قد تكون تابعة للكنيسة التي تحدث عنها الأدريسي وهي عبارة عن ناووس حجري طويل، وبالقرب منه فرجة في الأرض مغطاة بالرمال، قد تؤدي إلى مدفن آخر او ما شابهه وبالقرب من الناووس تقطيعات حجرية لبناء قديم، وبالقرب من هذه المقبرة من الدبش والحجارة ونبات القصب، لعلها الكنيسة بذاتها.

وقد قام الدكتور سركيس بعدة حفريات بهذه الجزيرة واكتشف فيها المقبرة وجدار الكنيسة ولكنه قطع بحثه بسبب احداث عام ١٩٧٥ ونرجو أن تكون له عودة لهذا البحث القيم لانه يفيد كثيراً في تحديد زمن هذه المعالم فيما إذا كانت فينيقية او رومانية، وبذلك يكون قد انار شمعة في ظلام تاريخنا الشرق اوسطي الذي اندثر اكثره بفعل الزمن.

(٤) جزيرة ارذقون أو ارذكون: قد تكون جزيرة الفنار، ولا أثر فيها للتاريخ سوى المنارة التي بناها الفرنسيون حديثاً.







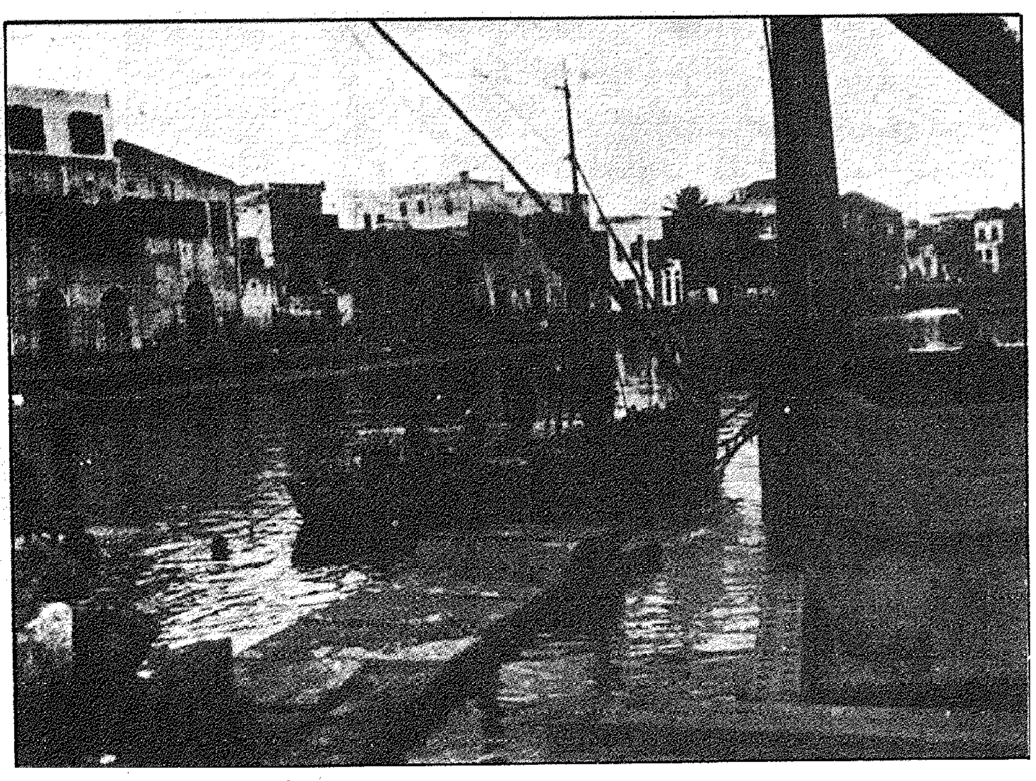
□ مجموعة من النقود ضربت قديماً في طرابلس.

وهناك عدد آخر من الجزر يعرف حالياً ابتداء من الشاطىء: القواطع على يمين جزيرة البقر الصناعة على يسارها، ومن ثم الغارقة ــ الرميلة وهي باتجاه شمالي لجزيرة البلان، جزيرة العشاق يقابلها الرنكين من ثم السنناك والطويلة وطوروس، وهذه الجزر هي عبارة عن نتوءات صخرية صعبة المسلك يتخلل بعضها الفرجات الرملية، وتستعمل حالياً كأمكنة لرواد صيد الأسماك وللغطاسين.

وهذه الجزر لم تكن في ما مضى ومنذ العهد الفنيقي الذي استغل الساحل على أحسن وجه وخصوصاً تلك الرؤوس التي توجد بقربها جزر، لم تكن سوى مراسٍ لسفن الفينيقيين، ومن ثم تعاقب على هذه الثغور الدول والأجناس البشرية، وازدادت أهمية هذه الجزر وسميت بأسمائها بسبب ما بني بها من أديرة وكنائس في العهد الروماني/ البيزنطي والتي هدمت مع الفتح المملوكي لمدينة الميناء (الأسكلة).

الميناء بين سندان الروم ومطرقة العرب

بدأ التحرش العربي بمدينة الميناء في أوائل سنة ٢٣هـ /٦٤٣ ولم يدخلوها إلا بعد سنتين كاملتين، فقد ظل العرب طوال تلك الفترة خارج أسوارها عند سفح جبل تربل وفي هضبة الحجاج حيث بنوا برجهم الخشبي والذي عرف فيما بعد ببرج سفيان، أو حصن كفر قدح، والذي استعملوه للاستيلاء على المدينة البيزنطية (الأسكلة).



□ بناء «سقالة» في الميناء لأول مرة سنة ١٩٢٣م.

واستطاع العرب في نهاية عام ٢٥هـ /٦٤٥ من دخول المدينة دون قتال ليجدوها خاوية من عروشها فقد هجرها أهلها الروم عن طريق باب البحر (برج عزالدين) بواسطة سفن بيزنطية رست عند جزرها مع هبوط الليل، حاملين معهم أمتعتهم وأثاثهم بعد أن أشعلوا النيران في جنباتها، وهذا ما يوحي بأن البحر ظل مفتوحاً أمام البيزنطيين سكان مدينة الميناء، ولم يحاصر من قبل العرب لعدم دراية هؤلاء الآخرين بركوب البحر.

وهكذا دخل العرب المدينة الخالية من السكان إلا من القلة القليلة التي رفضت إخلائها وفضلت حكم الدولة العربية على الالتحاق بدولة الروم التي اضطهدتهم دينياً، ليجدوا أنفسهم في موقف حرج، من سيسكن هذه المدينة الجميلة الحصينة؟..

لذا سارع معاوية إلى إرسال يهود الأردن وفرس بعلبك وحمص وأنطاكية للسكن فيها وأقطعهم الاقطاعات كمرابطين وحراس للثغر البحري، فكان سكنهم في سور الميناء وأبراجها.

وظل الوضع المتذبذب بين كر وفر، قائماً بين العرب والروم حتى القرن الرابع هجري حيث استولى الفاطميون على المدينة فأعادوا تحسين برج سفيان وبنوا فيه مقبرة لأحد أئمتهم الاثني عشر، سداسية الأضلاع وما زالت آثارها موجودة داخل القلعة، والتي حولها الصليبيون فيما بعد إلى كنيسة لوجود الشبه بينها وبين كنيسة القصر في القدس وسموها (L'église de Chateau ou L'église de Sépulcre) كما تركوا إلى جانب ذلك بعض المقابر الحجرية والمشاهد في شرق المدينة عند موقع المولوية حالياً.

وسبب ندرة الوجود التاريخي الفاطمي في الميناء هو انهماكهم بالثورات التي قامت ضدهم في البلاد التي احتلوها وانشغالهم بالحروب والمعاهدات التي أمضوها مع البيزنطيين، إلا أن هذه الأسباب لم تمنع من ازدهار طرابلس الميناء كقوة تجارية وبحرية.

ميناء طرابلس (الأسكلة)
مدينة بني عمار

أسرة بني عمار من قبيلة كتامة المغربية الأفريقية الشيعية المذهب، ومن صنائع الدولة الفاطمية قدموا إلى الميناء كقضاة وولاة سنة ٣٨٦هـ /٩٩٦م في عهد الحاكم بأمر الله ووزيره أمين الدولة أبو محمد الحسن بن

عمار بن أبي الحسين شيخ كتامة وهو أول من لقب في دولة المغاربة[٤٤].

واول من أسس الامارة في المدينة واستقل بها عن الدولة الفاطمية هو أبو طالب عبدالله بن محمد بن عمار الملقب بأمين الدولة سنة ٤٥٧هـ /١٠٦٦م والذي كان قاضي ووالي المدينة من قبل الفاطميين وسبب هذا الاستقلال السياسي يعود لما كانت تعاني منه الميناء من قوة الجذب بين الفاطميين والسلاجقة مما حدا بواليها وقاضيها، إخراجها خارج دائرة الجذب وتحييدها عن النزاع الدولي والاستقلال بها كمثيلاتها من المدن الأم.

وطرابلس بني عمار كانت تعد حوالي عشرين الف نسمة من جميع الأديان والغالب عليها المذهب الشيعي، وكانت من أهم مدن الشام الساحلية وقواعدها البحرية وقد وصفها ناصر خسرو[٤٥] وهو من رواد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بأن مبانيها متعددة الطبقات تصل إلى ست طبقات وغنية بالبساتين والكروم المختلفة الأجناس من قصب السكر وأشجار النارنج (البرتقال) والليمون والموز والتمر والزيتون والعنب والفواكه، وأضاف الناصر خسرو عن ازدهار مرفئها الذي أصبح في عهد بني عمار صلة الوصل بين الشرق والغرب بقوله:

«... تدفع السفن الآتية من بلاد الروم والافرنج والأندلس والمغرب، العشر للسلطان وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة...».

واستغل بنو عمار هذه الميزات والثروات في المدينة وحولوها بدورهم إلى أهم مركز علمي وأدبي وصناعي في الشرق.

فبنوا المكتبة ودار العلم اللذين اشتهرا وأصبحا محجة العلماء والطلبة، وفاقت شهرتهما كل شهرة سابقةلهما، وقد حشد بنو عمار في هذه المكتبة حوالي مائة ألف كتاب في جميع الفنون والعلوم وأوقفوها على طلبة العلم وقد ساعد ذلك قيام مصنع الورق الذي ساهم في إغناء المكتبة بالورق اللازم بأشكاله المختلفة كالكاغد والطوامير والقراطيس وكان يفوق بجودته الورق السمرقندي[٤٦].

أما الجامع فقد وسعوه وأضافوا إليه الملحقات لاقامة طلاب العلم وأوقفوا له الجريات لمعيشة الطلاب والعلماء، وقد وصفه ناصر خسرو فقال[٤٧]:

«... في وسط المدينة جامع عظيم في وسطه فوارة من النحاس الأصفر...».

ولم يبق من الجامع والمكتبة ودار العلم والمصنع شيء حتى أن مكانهم اندثر بفعل الغزو الصليبي للمدينة والذين أفرغوا ما بقلوبهم من حقد بحرقهم لهذه المعالم الحضارية وأجمل ما قيل بهذا الخصوص قول عمادالدين الأصفهاني الكاتب[٤٨]:

«... **ذهب عَمارُها، وأخرج عُمارُها، وبقي اغمارها**...».

وشجع بنو عمار زراعة السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر أبو علي وفي بساتينها وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوي، وكانت الميناء تمون أوروبا في أواخر العصور الوسطى بهذه المادة كماأن التاجر الأوروبي كان يحمل معه إلى بلاده سلال السكر والحلوى.

وخسارتنا كبيرة في استحالة تحديد مواقع هذه المعالم الأثرية لأنها كما سبق وقلنا اندثرت بفعل الحريق والتخريب الذي أحدثه الصليبيون بدخولهم المدينة ويغلب على الظن أن المكتبة ودار العلم ومصنع الورق كانت متجاورة وكذلك الجامع والقصر، وعزاؤنا أن هذا المستوى الثقافي والحضاري لم يتأثر بزوال معالمه وظل في أذهان الناس طيلة عشرة قرون وحتى يومنا هذا.

طرابلس الصليبية/ المملوكية

دخل الصليبيون إلى طرابلس سنة ١٠٩٩م بقيادة ريموند دي سان جيل فأخذوا ربضها وبنوا قلعتهم الحصينة في موقع برج سفيان (تلة الحجاج) حيث أقام الجند، بينما أقامت الجالية في مدينة الميناء العامرة ومع الوقت استطاع خلفاء سان جيل أن يبنوا الحي اللاتيني تحت القلعة واتخذوه كمدينة جديدة تحتوي على متطلبات وحاجات السكان، لاتينية الشكل والمضمون، امتدت من نهر أبي علي في الشمال

حتى باب الرمل في الجنوب وسنفرد دراسة مفصلة عن هذا الحي لاحقاً.

وبهذ أصبحت مدينة طرابلس قسمين يفصل بينهما مسافة أربعة كيلومترات وحددت معالم المدينة الجديدة (اللاتينية) بأبنية حصينة شكلت حصناً منيعاً لها دون اللجوء إلى تحصينها بسور كالمعتاد، بل تخلل هذه الأبنية فرجات لمداخل حجرية مجهزة بأبواب حديدية ثقيلة تمنع دخول المدينة إلا من خلالها كالباب الأحمر (باب الرمل حالياً) في جنوب المدينة، وباب التبانة في شمال المدينة، والباب الشرقي (المهاترة حالياً) المؤدي إلى القلعة ومن ثم الباب الغربي المطل على الربض والمؤدي إلى الميناء.

وعندما دخل المماليك سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م إلى طرابلس بشقيها الجديد والقديم هدموا بعض معالمها وأشادوا مكان ما تهدم مدينتهم ذات الطابع العربي المملوكي، فوسعوا المدينة المستجدة وزادوا من عدد أبوابها حتى أصبح عددها ستة من الشمال إلى الجنوب، باب التبانة — باب المهاترة — باب الحديد — باب الحدادين — باب الرمل — باب التل، وحرص المماليك على تزويد جدران الأبنية وخصوصاً في المنعطفات بفرجات عمودية عرفت (بمرامي السهام) حاكوا بها مرامي سهام القلعة.

ولم يبق من معالم هذه الأبواب إلا باب المهاترة الذي يشهد بأسلوبه الصليبي الصرف.

أما مدينة الميناء فقد ظلت على حالها في أسلوبها الروماني/ البيزنطي مع إضافة المباني المملوكية الصرفة كالبناء الموجود قرب حمام العضم (الحي الشرقي) المتكون من أقبية وعقود مسقوفة يعلوها جامع (العالي) والجدار الأمامي (الشمالي) لهذا الجامع يتكون من زاوية وعضاضات تزيد سماكتها على الثلاثة أمتار بارتفاع خمسة أمتار ويماثل هذا الشكل من البناء والأقبية المسقوفة بناء مماثل في الحي الغربي تشغله سينما هوليود حالياً ويعلوه منزل فسيح تسكنه بعض العائلات حتى يومنا هذا وتتكرر أشكال هذه الأقبية المسقوفة في جميع أنحاء شارع الخراب بشقيه الشرقي والغربي.

وهناك بناء آخر ما زال قائماً بمعالمه المملوكية، ويمتد من ساحة الجمرك حتى سينما كليوباطرا ويستعمل حالياً كعنابر لتخزين الحبوب، يشغله آل نادر ويعلو بابه الشمالي رسوم ونقوش نباتية مملوكية الصنع وكان هذا البناء متصل ببعضه البعض يتخلل منتصفه زقاق ضيق مسقوف يعلوه دور للسكن شغلته بعض العائلات فترة من الزمن ثم هدمت البلدية هذه الأبنية ووسعت الطريق حتى باب الزقاق شارع بعرض ستة أمتار يصل بين شارع البحر وشارع البلدية، وأصبح البناء مشطوراً إلى قسمين القسم الأول مخازن آل نادر ويعلو سطحه المكشوف مقهى شعبي بسيط، والشطر الثاني يستعمل كمستودع للقمح يخص آل الأروادي وآل الفوال، ويلاصق الشطر الثاني من البناء جدار سينما كليوباترا حالياً والذي يعتقد أنه امتداد للبناء المذكور لما بينهما — من شبه كبير في أسلوب البناء وسماكة الدعامات والعضاضات ويبلغ طول ضلع البناء حوالي الثلاثين متراً بينما عرضه بحدود عشرة أمتار وعلوه بارتفاع سبعة أمتار، أما عضاضاته فتبلغ سماكتها حوالي المترين وسقفه مقبب معقود يرتكز على أربعة عشاشات في عرضه وثمانية في طوله، ويبلغ ارتفاع بواباته الخشبية المعشقة بالحديد المزخرف بحدود الخمسة أمتار طولا وثلاثة أمتار عرضاً، وتعلوها زخرفة حجرية صنعت بأيد أنيقة متقنة الصنع والجودة، ويتخلل البناء من الجهة الجنوبية درج حجري مسقوف يصل بين الطابق الأرضي والطابق العلوي الأول، السطح حالياً.

وللمماليك أسلوب مميز في فن العمارة والتنسيق يتجلى بوضوح في أحياء طرابلس القديمة (بشقيها الميناء والبلدة) وأبرز مظاهر هذا الأسلوب الفسحات السماوية التي تتخلل الدور والمزينة بالأشجار خصوصاً النارنج والتي حاكوا بها الأسلوب الدمشقي/الأندلسي،وتزدان هذه الفسحات المظللة بالأشجار من عرائش وياسمين وغيرها ببركة من رخام أو حجر، صغيرة في وسطها نافورة ماء، وحولها المقاعد والزهور وأرضها مرصوفة بالرخام أو الحجر الأصفي، بحسب المكانة الاجتماعية، لتكون نموذجاً مصغراً عن الجنائن وتقوم بدور الترفيه عن النفوس، ونادراً ما يخلو بيت في هذا الحي

القديم من صهريج لجمع مياه الشتاء عن سطوح منازلهم ومن بئر يقوم بجمع الماء بذاته والسبب في توافر المياه في أرض المدينة قربها من البحر ونوعية تربتها الرملية التي تسمح بتسرب المياه، لذا تأتي مياه البئر مزة بعض الشيء، ويلحق بكل من الصهريج والبئر بركة ملاصقة لهما تملأ بالمياه للاستعمال اليومي لسكانها.

وتتكرر المظاهر المملوكية من رسوم ونقوش نباتية فوق أكثر مداخل بيوت هذه المدينة وهي على اشكال مختلفة تزين عتبات هذه الدور، أما المشربيات (السواتر الخشبية) المزخرفة التي توضع على الشبابيك والشرفات فقد باتت نادرة الوجود حيال الطفرة الحديثة للبناء، وباتت تحفة نادرة للقلة الذين احتفظوا بها حتى اليوم.

إلا أن ما تبقى من هذه المعالم فهو تراث حضاري قديم وغني، جدير بالاحترام والمحافظة عليه والعناية به حتى تأتي المدينة القديمة كمتحف طبيعي حي، يستهوي القادمين إليها ويتعايش فيه الماضي والحاضر بصورة متناسقة●

الهوامش

(١) الاسكلة: كلمة يونانية تعني المرفأ، وقد اطلقت مؤخراً في العهد اليوناني القرن التاسع قبل الميلاد على مدينة الميناء، احد الثغور الفنيقية.

(٢) الدعتور: منطقة ساحلية تقع عندها شركة نفط العراق في شمال طرابلس.

(٣) أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص ٢٠٧، بيروت ١٩٥٦.

(٤) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٧، الاسكندرية ١٩٦٧.

(٥) Histoire de Tripoli (Les Cahiers de L'Oronte) no. 10, p 90. Liban 1971-1972.

(٦) د. فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص ١٨٩، بيروت ١٩٥٩.

(٧) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٢٤.

(٨) يوسف الحوراني: لبنان في قيم تاريخه (العهد الفنيقي)، ص ١٦٦، بيروت ١٩٧٢.

(٩) D. Hassan Sarkis-Histoire de Tripoli, p 87

D. Hassan Sarkis-HWahlia, Machallata, Tripoli, p. 3

(١٠) مارتن اليسوعي: تاريخ لبنان، ص ٥٧.

(١١) امين الريحاني: قلب لبنان، ص ٤٤٩.

(١٢) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٤٣.

(١٣) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ١١٧.

(١٤) D. Sarkis, Histoire de Tripoli, p 86

(١٥) د. محمود امهز: المدن الفنيقية، ص ٣٦.

(١٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٤١٣.

(١٧) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٥٦.

(١٨) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٥٨.

(١٩) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٤٧.

(٢٠) د. محمود امهز: المدن الفينيقية، ص ٤٢.

(٢١) فتوح الشام، ج ١ ص ٧٩.

(٢٢) سفرنامة، ص ٤٧.

(٢٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٧ و ١٨.

(٢٤) السلوك، ج ١ ق ٧٤٨/٣، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٢، د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٤٢٠.

(٢٥) نشر الجمان، ج ٢ ص ٢٣١ ب، و ج ٤ ص ١٥١ ب و ١٥٢ أ.

(٢٦) الأدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٨.

(٢٧) ج ١ ص ٥٦.

(٢٨) ج ١ ص ٩٨.

(٢٩) المخطوط، ج ١٦ ص ٧٦.

(٣٠) مجلة النور، العدد الثاني، السنة ٣٩، ص ٤١ و ٤٧، بيروت ١٩٨٣.

(٣١) ابن عساكر: مخطوط، ج ١٦ ص ٧٦، ود. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٥٩ و ٦٠.

(٣٢) نزهة المشتاق، ص ١٧.

(٣٣) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٦٠.

(٣٤) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ٢ ص ٢٦١.

(٣٥) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ٢ ص ٢٦٩.

(٣٦) تاريخ طرابلس، ج ١ ص ١١٠.

(٣٧) رنسمان، ج ٣ ص ٦٨٧، وتاريخ طرابلس، ج ١ ص ٤٢٠.

(٣٨) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ٢ ص ٢٧٢.

(٣٩) رنسمان: ج ٣ ص ٦٨٧.

(٤٠) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ٢ ص ٢٦٠، الحاشية ٦.

(٤١) تاريخ طرابلس الشام، ص ٢٩١.

(٤٢) المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ٢٣.

(٤٣) Contribution A l'Histoire De Tripoli, p. 46.

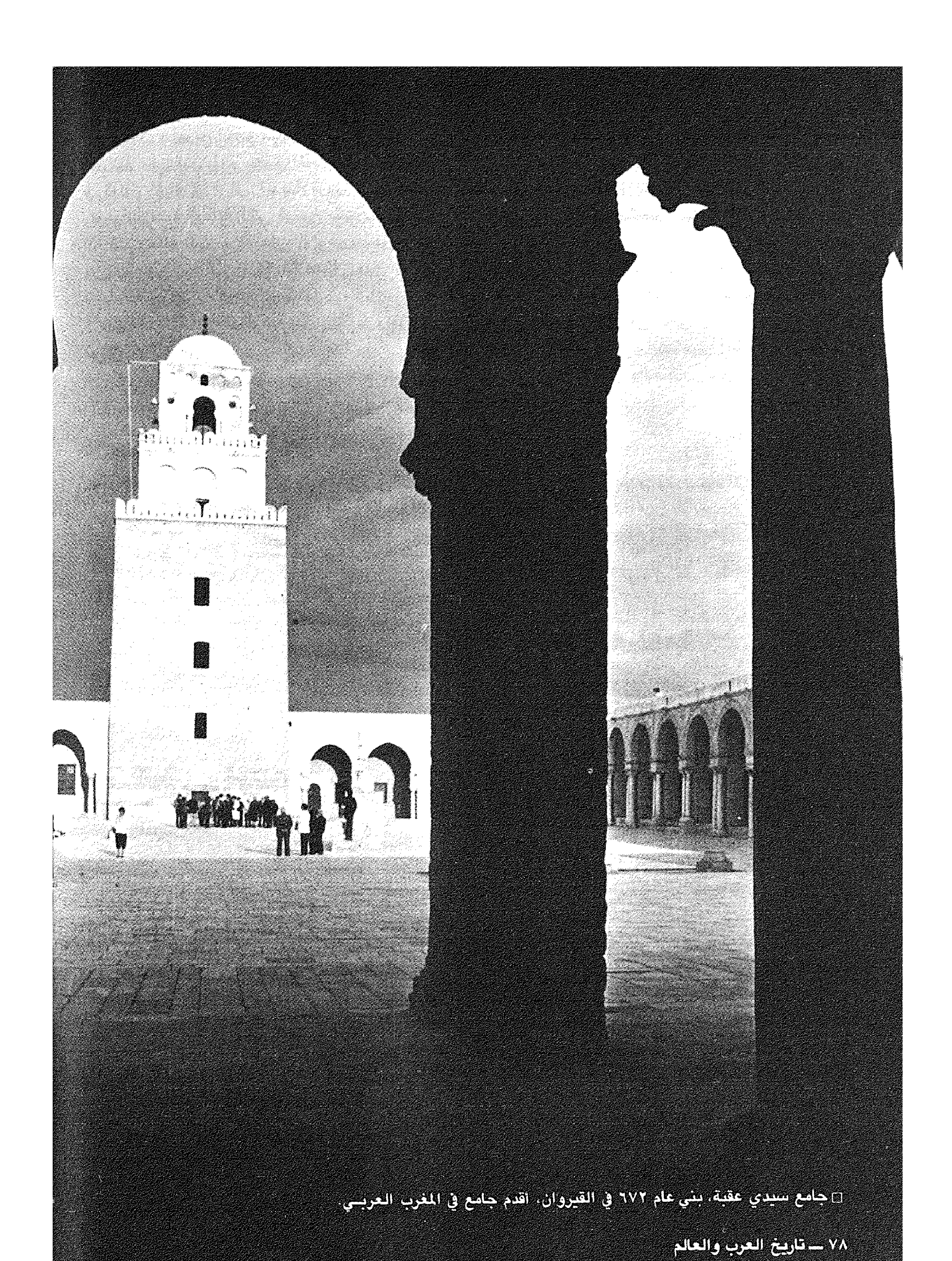
(٤٤) د. تدمري: تاريخ طرابلس، ج ١ ص ٢٤٠.

(٤٥) سفرنامة، ص ٤٨.

(٤٦) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٤٨.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) جريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق محمد بهجة الأثري (القسم العراقي) ج ٢ ص ٧ و ٨ بغداد، سنة ١٩٦٤.



□ جامع سيدي عقبة، بني عام ٦٧٢ في القيروان، أقدم جامع في المغرب العربي.

رموز وفضاء في فن العمارة العربي
السوق - الحمام - الجامع - المزار

منصف الوهايبي



تذهب الباحثة الاجتماعية التونسية تراكي زناد إلى أن المدينة العربية الاسلامية هي الأولى التي جسدت مفهوم المدينة كمكان للقاء والتعارف، وهذا المفهوم ليس غريباً عن بنية المجتمع العربي قبل الاسلام، فقد عرف هذا المجتمع الأسواق الموسمية التي يلتقي فيها أفراد من قبائل مختلفة، ليس لمجرد التبادل التجاري فحسب، وإنما للتبادل بمفهومه الأعمق والأشمل، أي التبادل الثقافي. ويكفي أن نذكر في هذا السياق سوق عكاظ، حيث كان يلتقي شعراء العرب، ويلقون أشعارهم ويتغنون بأمجاد قبائلهم. ولعل هذا ما يفسر أن أصل كلمة «سوق» يعني وظيفة التبادل التجاري ومكان التبادل (دائرة المعارف الاسلامية ص ٥٣١).

وقد حافظ الاسلام على هذه الخصوصية، أي على وظيفة السوق بعد أن وضع لها شروطاً وقوانين، وبينما كان نظام المنافسة الحرة الذي يقضي بألّا تقيد الدولة حرية الصناعة والتجارة، متجلياً في أوروبا من خلال اتحادات الحرفيين والسماسرة، أي من خلال «الحرفية»، تلك النظرية الاقتصادية الاجتماعية التي تقول بإيجاد مؤسسات حرفية نقابية تخول سلطات اقتصادية واجتماعية وسياسية، كان الاسلام في نفس الفترة قد ألغى ذلك من المدن، فمنع الربا وحدّد شروط البيع والشراء.

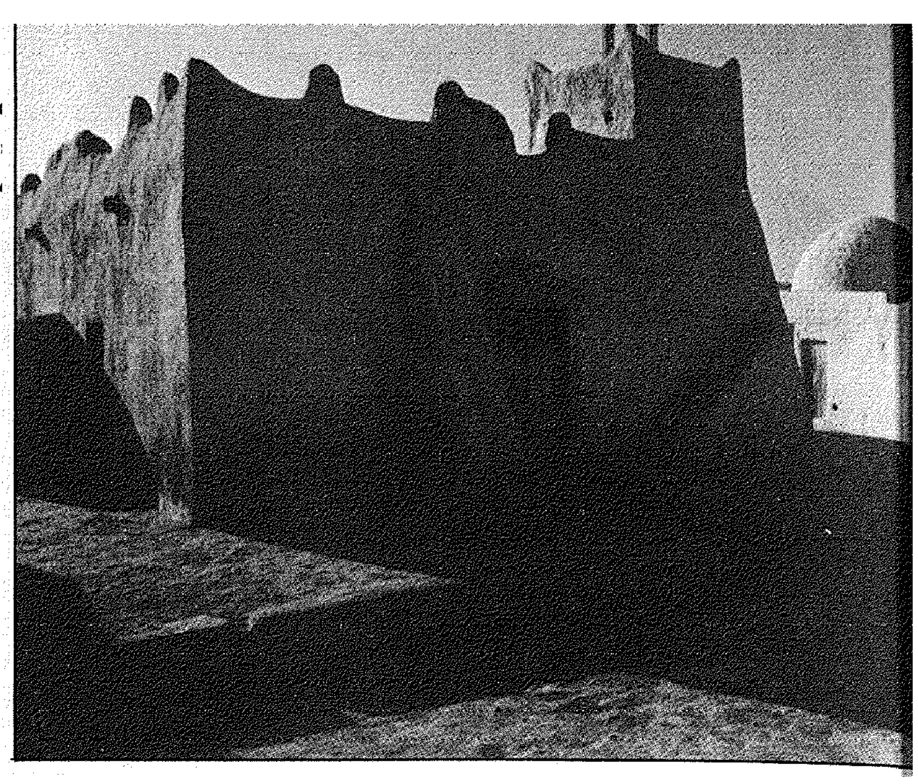
وحدة المكان، كما توضح السيدة تراكي زناد، تفضي إلى وحدة المجموعة وتحقق وحدة العقيدة.

إن المدينة العربية الاسلامية هي بالضرورة مكان لقاء، وهذا ما يفسّر إلى حد كبير غياب الميادين والساحات العمومية في هذا الصنف من المدن، بل إن هذه الكلمة لا وجود لها أصلاً في العربية القديمة. وفيما عرفت المدينة اليونانية ما يسمّى بـ (Lagora) أي مكان الاجتماع حيث يلتقي السكان في هذا الفضاء «الحر» وفيما احتفظت كل البلدان اللاتينية بهذا الفضاء الذي كانت له أسماء مختلفة مثل (La Plaza, La Campo, La Pizza, La Grande Place). فإن المدينة العربية الاسلامية لم تشعر بالحاجة إلى تحديد «فضاء فارغ» في صلبها بغرض التخاطب والتواصل، ذلك أن هذه الوظيفة كانت تقوم بها كل المؤسسات الحضرية في مستوى المكان والموقع.

لكن كانت هناك ساحات تسمّى واحدتها «رحبة»، وهي مخصصة للمبادلات الاقتصادية بين المدينة والريف «مثل رحبة الخيول» و «رحبة الغنم».. وفيما عرفت مدن الغرب التاريخية أماكن محددة خاصة باللعب واللهو، يلتجىء إليها السكان بعد العمل حيث أفضى ذلك إلى أن يكون المشهد المسرحي معبراً عن متعة اللقاءات أو عن حدّة المواجهة بين الأفراد بسبب المجتمع الحضري، وهي ما يعني اقتران المتعة بالعدوانية، ويؤكد أن اللهو والمشهد العموميين كانا تقليداً وعرفاً داخل التقاليد والأعراف، وأن المدينة الغربية بتوفر هذه الأماكن الخصوصية كانت تحدّ من التوترات والمواجهات. إن المدينة العربية الاسلامية بإدانتها لنظام المزاحمة الحرة وبتحكيمها للقرآن والسنّة في القيم الخُلُقية، تكون قد وفرت على الفرد تحمل ومكابدة التناقضات والتوترات التي يمكن أن تفرزها الحياة مع الجماعة، فيستطيع بذلك أن ينكبّ على حياته الخاصة، على سريرته، وعلى عالمه الداخلي، فيضع



□ جدار من الفسيفساء. زاوية سيدي صحب في القيروان.



مزار في جربة. عن مجلد المغرب، دار نشر بروكمان، ميونيخ.

فيه كل طاقاته وأحلامه، وهو مايعني أن الفضاء الخاص يهيمن على الفضاء العام.

وإذا وضعنا في الاعتبار اقتران «الزمني» «بالروحاني»، في الحضارة العربية الاسلامية، فإن المدينة هي الحيز الذي تتجسّد فيه هذه الخصوصية، والفضاء الخاص هو الواصل بين الروحاني والاجتماعي.

من هذا المنطلق نستطيع أن نقول إن المسجد أو الجامع يعني التجميع والضم والاحتواء والانعزال، أي أنه يدلّ على الاحتشاد، ولكن يشير أيضاً إلى الموضع والفضاء، كما يعني الالتصاق بالأرض والخضوع للذات الالهية.

إن هذا التفسير يدل على أفعال ومواقف محددة: التجمع والصلاة في هيئة خاصة وفي موضع معين...

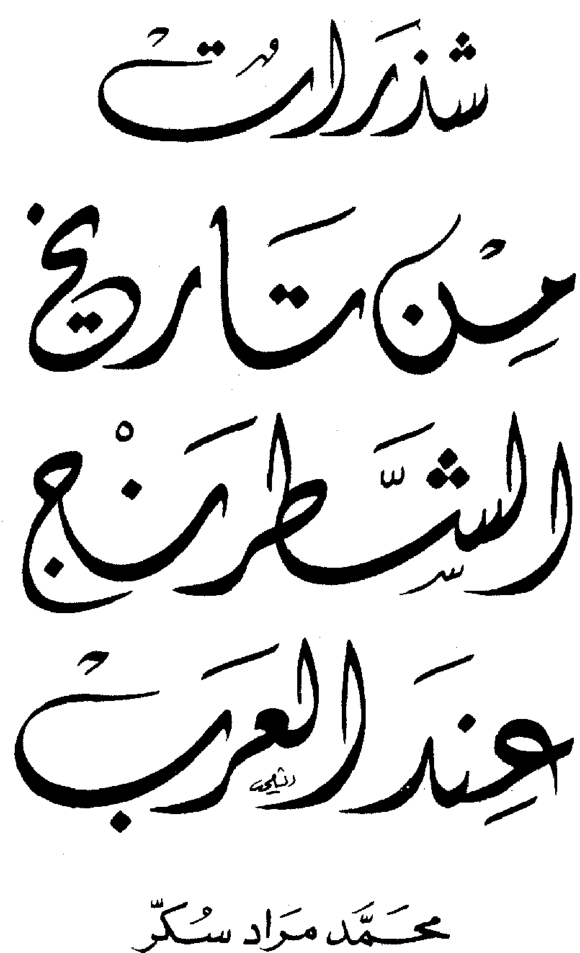
هكذا يقترن الحسي بالديني بالحيزي..

أما المكان العمومي وأما المقام أو الزاوية فيعني المكان المنعزل، ولكن يعني أيضاً مكان التظاهرات الجماعية والاعتقادات التي يمتزج فيها عادة السحري بالروحاني، وتبقى السوق، كما ذكرنا تدل على الوظيفة ومكانها «وظيفة التبادل ومكان التبادل».

وهكذا فإن كل فضاء عام في الحضارة العربية الاسلامية، يبعث من خلال وظيفته ونفعيته نظرية في الهندسة وصناعة الرياش تقول بأن جمال الشكل هو نتيجة لتوافق البناء أو الأثاث، مع ما يؤديه من نفع لمستعمليه (انظر «المنهل» ص ٤٥٣) عن التبادل الذي ينبغي أن يتم في صلب الوحدة العمرانية، أي عن عنصر المشاركة ووحدة الشعور والتقارب من خلال التجهيزات العمرانية المشتركة، كما يبحث في رأي البعض — وهو رأي لا يخلو من طرفة — عن الديمقراطية التي ينبغي أن تتحقق في صلب الجماعة. ويستند هؤلاء في تأويلهم هذا إلى القول بأن ملء الأرض أو شغلها أفقياً يمكن أن يرمز إلى فعل المساواة.

إن ملء الزمن والفضاء بالممارسة، هو بالضرورة نتاج ثقافي، فالحمام مثلاً وهو مرفق أساسي في المدينة العربية الاسلامية يؤكد منزلة الجسد البشري في الاسلام و «يختزل» عبر تلك الجدلية بين الحار والبارد، بين الجاف والبليل، بين العاري والمكسو جدلية أعمق بين الحسي والمقدس بين المادي والروحاني.

وأما الزاوية «مقام الولي» فتجسد القطيعة مع الفضاء الدنيوي، و «تؤسس» زمنها الخاص. وقد كتب «وينبرجر» عن الاحتفالية في المقامات والزوايا، فلاحظ كيف أن الزمن يضيق ويتجدد، يحيا ويموت «مع العلم أن لكل مقام يوماً مخصصاً في الأسبوع تتم فيه الزيارة، ففي تونس مثلاً يزور الرجال مقام الولي الشاذلي يوم الجمعة والسنة يوم الخميس بعد الزوال». •



في قراءتنا المتعددة، كثيراً ما نقع على طرائف وأخبار ليست تاريخاً بالمعنى المعروف ولكن قراءتها اليوم تعطيك دلائل تاريخية، مثلاً عندما نقرأ في مجلة المنار الصادرة سنة ١٩٠٣ أن شخصاً ما يطلب فتوى، هل النرد والشطرنج حرام أو حلال؛ وهل الحضور إلى ناد لسماع محاضرة علمية محرم إذا كان النادي غرفة تلعب فيها هذه الألعاب.

فهذا يدلنا مثلاً على أن الشطرنج في مصر كان منتشراً في ذلك الزمن وإلا لما طلبت هذه الفتوى، وأنّ بمصر في ذلك الوقت نوادي يجتمع بها الناس إما للتسلية وإما لمنفعة علمية.

فالمقال بحد ذاته بحث ديني ولكن له مدلولاته التاريخية، كذلك قصيدة أو أبيات من الشعر يقولها أحدهم في الشطرنج تدل على انتشار الشطرنج في البلد الذي قيلت فيه فالمتعة الأدبية في الأبيات يصاحبها إشارة تاريخية إلى آخر ذلك. ولكن ليس كل ما نقرأ له مثل هذه الدلائل ولكن الخبر أو الطرفة بحد ذاتها وان لم تكن لها هذه القيمة تصبح هي من التاريخ عندما تكون متعلقة بأحد المشاهير. لذا فقد جمعنا بعضاً من هذه الشذرات اليوم حتى إذا أضفناها لما نشرناه قبل اليوم تحت عنوان تاريخ الشطرنج عند العرب استوفى هذا الموضوع أغلب جوانبه.



□ الراجا، وهي إحدى القطع المهداة إلى شارلمان من قبل هرون الرشيد .

نقفور وهرون الرشيد

جاء في تاريخ الطبري القسم الثالث، ص ٦٩٥، طبعة لايدن، سنة ١٨٨٥ ما يلي:

من نقفور ملك الروم إلى هرون الرشيد ملك العرب،

اما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من اموالها ما كنت حقيقاً يحمل امثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرات كتابي، فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يُمكن احداً ان ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول او فعل يكون منهم، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه، فدعا بداوة وكتب على ظهر الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأفاء وخرب وخرق الخ... الرسالة هذه طبعاً دخلت التاريخ ويهمنا نحن القسم الأول الطريف وهو يدل على أن العالم في ذلك الوقت كان يعرف أن هرون الرشيد كان لاعباً للشطرنج. والمعروف أن هرون الرشيد كان أول خليفة عباسي لعب الشطرنج. وقصة جاريته تودد أشهر من أن أسردها.

وقد جاء في مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٢٥.

«كان الرشيد (هرون الرشيد) أول من لعب الشطرنج من خلفاء بني العباس وبالنرد وقدم اللُّعَّاب وأجرى عليهم الرزق».

وكنا قد روينا من مقالاتنا السابقة قصة تودد جارية هرون الرشيد مع إبراهيم بن نسامي، ونورد اليوم طرفة أخرى. استقيناها من نفس المصدر.

ارسل الخليفة هرون الرشيد يستدعي إحدى الجواري، بعد أن سمع أنها تجيد الشطرنج، ولما تأكد من ذلك، دفع عشرة آلاف دينار ثمناً لها، فلاعبها ثلاث جولات، ربحتها الجارية كلها، فطلب منها أن تختار الجائزة التي تحب، فطلبت منه الغفران لصديقها أحمد بن الأمين فكان لها ما طلبت.

أحمد بن المدبر والطفيلي بن دراج

روى المسعودي في الجزء الرابع، ص ١٠١:

«لما افضت الخلافة إلى المهتدي (٢٥٦هـ) قام بتولية أحمد بن المدبر خراج فلسطين. وكان ابن المدبر هذا قليل الجلوس للمنادمة، وكان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم، وقد اصطفاهم لعشرته وأخذهم لمنادمته، كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره، وكان طُفيلي يُعْرف بابن دراج من أكمل الناس أدباً وأخفهم روحاً، وأشدهم في كل مليحة افتناناً، فلم يزل يحتال إلى أن عرف وقت جلوس أحمد بن المدبر للندماء، فتزيا في زي ندمائه ودخل في جملتهم، وظن حاجبه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء، ولم ينكر شيئاً من حاله. وخرج أحمد بن المدبر فنظر إليه بين القوم، فقال لحاجبه: اذهب إلى ذلك الرجل فقل له الك حاجة؟ فسقط في يد الحاجب وعلم أن الحيلة قد تمت عليه، وان المدبر لا يرضى من عقوبته إلا بقتله، فمر وهو يَجُر برجليه فقال له: الأستاذ يقول لك ألك حاجة؟ فقال: قل له لا، فقال له ارجع إليه فقل له ما جلوسك؟ فقال: الساعة جلسنا يا بغيض، فقال: ارجع إليه فقل له أي شيء أنت؟ فقال له: قل طفيلي يرحمك الله، فقال له ابن المدبر: أنت طفيلي؟ قال: نعم أعزك الله، قال: إن الطفيلي يُحتمل على دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخلوة بندمائه والخوض في أسرارهم لخصال، منها أن يكون لاعباً بالشطرنج أو بالنرد، ضارباً بالعود أو الطنبور. فقال: أيدك الله أنا أحسن هذه الأشياء كلها، قال: وفي أي طبقة أنت منها؟ قال في العليا من جميعها، قال لبعض ندمائه: لاعبه بالشطرنج فقال الطفيلي: أصلح الله الأستاذ فإن قُمرت؟ قال أخرجناك من ديارنا. قال فان قَمَرت؟ قال أعطيناك ألف درهم، قال: فإن رأيت أيدك الله أن تحضر الألف درهم فإن في حضورها قوة للنفس والإيقان بالظفر. فأحضرت فغلب الطفيلي ومد يده ليأخذ الدراهم، فقال الحاجب لينفي عن نفسه بعض ما وقع فيه: أعزك الله أنه زعم أنه في الطبقة العليا وابن فلان غلامك يغلبه. فأُحْضِر



□ صفحة من الشهنامة ــ مخطوطة فارسية كتبها الفردوس ويرى واضحاً اسم بزرجمهر الذي حل رموز الشطرنج.

الغلام، فَغُلب الطفيلي، فقال له انصرف، فقال: احضروا النرد فأُحضرت، فلوعب فغلب، فقال الحاجب ولا هذا يا سيدي في الطبقة العليا من النرد، ولكن بوابنا فلان يغلبه فأحضر البواب فغلب الطفيلي فقال له اخرج»، وللقصة تابع إنما نتوقف هنا.

هذه القصة تظهر لنا شيئين أولهما ما للشطرنج من شأن، ثانيهما وهو الأهم أن الشطرنج كان معروفاً بفلسطين في ذلك الوقت أي في سنة ٢٥٦ للهجرة فقد كان ابن المدبر والياً على فلسطين وغلام من عامة الشعب يلعب الشطرنج.

أبو العلاء المعري

حدث الثعالبي في تتمة اليتيمة قال:

وحدثني أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر وهو من لقيته قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال: لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجاب رأيت أعمى ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويُدْخل في كل فن من الجد والهزل، يكنى أبا العلاء وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى كما يحمدُه غيري على البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء.

قال الصفدي في كتابه «نَكْت الهميان في نُكَت العميان» ص ٨٦، وأما أنا فرأيت في الديار المصرية إنساناً يُعرف بعلاءالدين بن قيران أعمى ٧٥٠هـ، وهو عالية في الشطرنج يلعب ويتحدث، وينشد الشعر ويتوجه إلى بيت الخلاء ويعود إلى اللعب، ولا يتغير عليه نقل شيء من القطع وهذا معروف، يعرفه أصحابنا في القاهرة.

دُعي النظام العجمي إلى اللعب مع علاءالدين بن قيران الأعمى فقال: هذا أعمى عالية وأنا بصير (عالية) فإن غلبته ما يشكرني أحد فانهم يقولون غلب أعمى وان غلبني فمصيبة كبرى.

هذه القصص لا تدلنا فقط على أن الشطرنج كان معروفاً في تلك البلاد دمشق والقاهرة فحسب ولكنها تعطينا أسماء كبار اللاعبين أيضاً.

وعن النظام العجمي تحدث الصفدي في الغيث المنسجم.

رأيت غير مرة أيضاً بدمشق سنة إحدى وثلاثين وسبعماية شخصاً يعرف بالنظام العجمي وهو يلعب الشطرنج غائباً في مجلس الصاحب شمس الدين وأول ما رأيته لعب مع الشيخ أمين الدين سليمان رئيس الأطباء وكان طبقة عالية، فغلبه مستدبراً، ولم يشعر به حتى ضربه شاه مات بالفيل، ولم يره حتى التفت إلينا وقال مات، وحُكِي لي أنه كان يلعبُ غائباً على رقعتين، وحكى لي عنه صاحبنا بدرالدين حسن القرى أنه رآه يلعب على رقعتين غائباً وقدامه رقعة يلعب فيها حاضراً، وغلب في الثلاث والعهدة في ذلك عليه، وكان الصاحب شمس الدين يدعه في وسط الدست ويقول له: عدَّ لنا قطعك وقطع غيرك، فيسردها جميعاً كأنه يراها بين يديه كان ذلك حوالي ٧٣٠ للهجرة.

ومن اللاعبين بالاستدبار برز في القرن السابع أبو زريقة المغربي وكان من مجيدي اللعب بالاستدبار وانتقل إلى صقلية ثم إلى ايطاليا فكان اول من لعب باستدبار في أوروبا حيث فعل ذلك بفلورنسا سنة ٦٦٤هـ فأثار دهشة العالم الأوروبي.

وبين اللاعبين بالاستدبار في القرن الهجري الثالث من يدعى أبو القاسم التُّوزي وقد جاء اسمه في ديوان ابن الرومي شرح الشيخ محمد شريف سليم قال في الصفحة ٢١ من الديوان مخاطباً الثُّوري.

تَقْتُل الشاه حيث شئت من الرقعـ — ـة طبا بالقتلة النكراء

غير ناظر بعينيك في الدست — ولا مقبل على الرسلاء

بل تراها وأنت مستدير الظهر — بقلب مصور من ذكاء

ما رأينا سواك قرنا يولى — وهو يُردي فوارس الهيجاء

رُب قوم رأوك ريعوا فقالوا — هل تكون العيون في الأقفاء

إلى أن يقول:

غلط الناس لست تلعب بالشطرنـ — ـج لكن بأنفس اللعباء

ربما هالني وحير عقلي — أخذك اللاعبين بالبساء

ورضاهم هناك بالنصف والربع — وادنى رضاك في الأرباء

واحتراس الدهاة منك واعصا — فُك بالأقوياء والضعفاء

بالاضافة إلى علاءالدين بن قيران الأعمى اشتهر بمصر لاعب يدعى علاءالدين التبريزي المار ذكره، وكان من حاشية تيمورلنك وقد أوجد مع تيمورلنك الشطرنج الكبير ١٠ × ١٠ بزيادة قطعتين الدبابة والجمل غير أن اللعب بطريقتهما الجديدة لم يدم بعدهما كما اشتهر بمصر في القرن العاشر محمد بن الورد والشهابي أحمد اسكندراني وفي القرن الحادي عشر نبغ بالشام شخص يدعى ابن السمان الدمشقي وصل



□ من الشهنامة تمثل غالباً الوزير يحل المسألة الشطرنجية المطروحة في الهند ويبادلها بالنرد.

صيته إلى الاستانة فاستدعاه السلطان محمد ورتبه نديماً له ضمن حاشيته وتُوفي بالاستانة ١٠٨٨هـ.

وفي القرن الثاني عشر حضر إلى مصر الأديب خليل أفندي البغدادي وكان لاعباً ماهراً في الشطرنج وتَعَرَّف بمراد بك من المماليك وتلاعبا (١١٨٠ ـــ ١٢٠٠هـ).



□ مسألة شطرنجية من ايام العرب الأولى.

هذه الأسماء أوردناها فقط لما فيها من دلالة تاريخية بأن الشطرنج لم ينحسر عن الدول العربية بعكس ما جاء في بعض الكتب الأجنبية بل بقي يلعب بتواتر في كل الدول العربية كما نستدل مما سبق. ففي مصر لم ينحسر مطلقاً رغم الأمر بحرق جميع رقع الشطرنج أيَّام الحاكم بأمر الله من الفاطميين فقد جاء في أحد كتب التاريخ الذي نقله جبرائيل نصره بك في كتابه عن الشطرنج «كنانة الشطرنج العصري». قال: وكان الشطرنج يلعب في مصر بتواتر ونذكر لعلاقته به الحاكم بأمر الله من الفاطميين حكم مصر واشتهر بالرعونة والخبث وسفك الدماء والبله بل التهوس والعنة والغرور إلى حد التأله، يُروى عنه أنه حَرم يوماً أكل (الملوخية = الطعام المصري الوطني) وأمر بحرق جميع رقع الشطرنج الموجودة في مملكته حوالي ٣٦٥هـ).

وبالعكس من ذلك جاء في كتاب السلوك للمقريزي أن الظاهر بيبرس أيام المماليك تغيب عن اجتماع وعُرف فيما بعد أن السبب كان اشرافه على تنظيم مباراة في الشطرنج وقد حاولنا الحصول على تفاصيل أكثر عن هذه المباراة ولكننا لم ننجح في ذلك ونأمل ممن يستطيع أن لا يبخل علينا بالتفاصيل.

واكتفى اليوم بما رويت من هذه الشذرات ففي كتب الشطرنج المنشورة باللغة العربية كثير منها وأختمها ببعض الطرف التي حضرتني وانا أكتب هذه الشذرات.

جاء في كتاب مروج الذهب، ص ٢٣٢ في أخبار الراضي بالله المكنى بأبي العباس. ذكر ان الراضي رأى في بعض منتزهاته بالثريا بستاناً مونقاً وزهراً رائقاً، فقال لمن حضر من ندمائه. هل رأيتم أحسن من هذا؟ فكل قال أشياء ذهب فيها إلى مدحه ووصف محاسنه، وانها لا بقي منها شيء من زهرات الدنيا فقال:

لُعْب الصولي بالشطرنج والله أحسن من هذا الزهر ومن كل ما تصفون وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي، وقد كان ذُكر له بجودة لعبه الشطرنج وكان الماوردي اللاعب مقدَّماً عنده، متمكناً من قلبه، مُعْجباً بلعبه، فلعبا جميعاً بحضرة المكتفي، فحمل المكتفي حُسْن رأيه في الماوردي وتقدم الحرمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي من أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته وقصد قصده، غلبه غُلْباً لا يكاد يُرد عليه شيئاً، وتبين حسنُ لعبه للمكتفي، فعدل عن هواه ونصره للماوردي وقال له: صار ماء وردك بولاً.

وجاء في تاريخ المسلمين للشيخ المسكين جرجس بن العميد، ص ١٢٩ طبع سنة ١٦٢٥م كان الخليفة الأمين يلاعب مولاه كوثراً بالشطرنج والقائد طاهر إذ ذاك يحاصر بغداد وقد اشتد القتال، فقال له بعض خواصه، يا أمير المؤمنين، ما هذا وقت اللعب، قم وانظر في أمرك، فقال: دعني فقد لاح لي على كوثر شاه مات.

وجاء في تاريخ الطبري، طبع المطبعة الحسينية (١٣٢٦هـ).

أُتي للخليفة المعتز برأس الخليفة المستعين بينما كان يلعب بالشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال: ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه.

والمعروف أن المأمون كان يلعب الشطرنج ولكن لعبه لم يطرأ عليه تحسن يذكر، فقيل عنه انه قال يوماً اني أحكم بلاداً تمتد من الهند في الشرق إلى الأندلس في الغرب ولا أستطيع التحكم في ٣٢ حجراً في رقعة صغيرة. وقد نسبت إليه هذه الأبيات:



□ فيل عربي.

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها
مطالباً ثم بَعْد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى إذا مات خلاها وما فيها

ويروى أن المأمون كان يلعب الشطرنج مع أحد أعضاء بلاطه، فأخذ الأخير يلعب بشكل يسمح فيه للخليفة بأن يربح، فما كان من المأمون إلا أن قلب الرقعة قائلاً: أتعاملني كطفل، ثم اتجه إلى الحاضرين يشهدهم بأنه لن يلعب الشطرنج ثانية مع هذا الشخص.

والمعروف أن المأمون كان يطلب من اللاعبين أن يرفعوا الكلفة أثناء لعبهم الشطرنج معه.

لأبي نواس أشعار قليلة في الشطرنج واصطلاحاته والمعروف عن أبي نواس أنه كان يلعب الشطرنج ولكن لم يكن يحسنه تماماً.

قال أبو النواس:

الا فاشرب من الراح
على الاعلان والسمعة
ومن لامك في هذا
فقل من أنت في الرقعة

ومنهـا:

لعبت بـالشـطرنـج مـع أهـيف
رشـاقـة الأغـصـان من قـده

أَحُلُّ عقـد البنـد من خصـره
وألثـم الشـامـات في خـده

تلاعبت بالشـطرنج مـع من أحبه
فنادمني حتى سكرت من الوجـد

وأنشـدني مـا لي أراك مـفكـراً
تدور على الشامات وهي على الخد

المعلوم أن ابن الرومي نفسـه كـان يلعب الشطرنج بدون إجادة رغم اجتهاده في تحسين لعبه ولما فشل في هذا التحسين صار يهجو اللعبة بعد مدحه إياها فيقول:

□ لوحة زيتية لجون سارجنت تمثل جولة في الشطرنج.



تفرست في الشطرنج حتى عرفتها
فإن صح رأيـي فهي بالوعة العقل

طرفة من حلب

عندما دخل إبراهيم باشا المصري حلب الشهباء بعد حصاره لها في حربه مع العثمانيين استدعى لاعب الشهباء في ذلك الوقت وكان يدعى (الشيخ السراقبي) ليلاعبه الشطرنج.

ويقول المؤرخ على ذمة السيد محمد النعساني نائب رئيس اللجنة الفنية للشطرنج بحلب سابقاً.

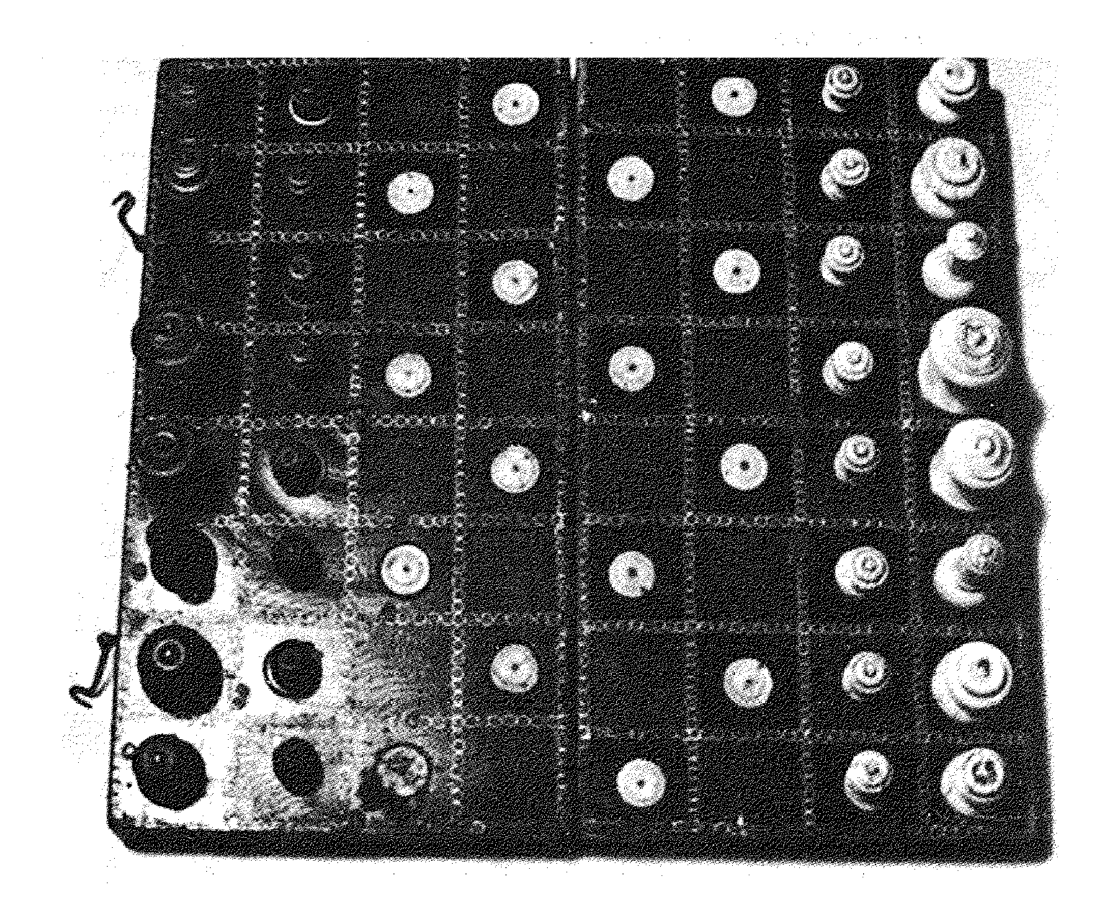
قال المؤرخ في صفحة الخطبة، وصف شاهد عيان هذه المنازلة بقوله بعد نصف ساعة من بدء اللعب خسر الشيخ السراقبي فرساً، وأخذ إبراهيم باشا يتلفت يميناً وشمالاً مزهواً بكسبه، فقال السراقبي أتسمح لي يا باشا بأخذ حريتي من قيود الأدب، فقال له واثقاً: لك كلما يعنيك. قال فتريح في جلسته ونزع عمته وقال: لقد ضمنت الآن الغلب فقال له الباشا: إذا غلبت هذا الدق لك مني ما تريد وتطلب فقال بإذن الله. ولعب وكان رأسه الأصلع يبدو لنا كقدر من النحاس الأحمر يتدفق منه العرق ويتبخر من حر الجهد ونرى من مجالسنا في آخر القاعة تصاعد بخاره، وما انقضت نصف الساعة حتى صاح بصوت عال مات الشاه يا باشا، وقال له الباشا عابثاً أحسنت أطلب ما تشاء فقال تعفو عن أهل هذا البلد الداعي لك بالنصر وطول العمر. وتكشف جيشك عنها، وتدخلها ضيفاً عابراً لا فاتحاً قاهراً. فقال الباشا لرجاله من حوله سبق العهد فأوفوا. وكان ذلك في اليوم الثاني فخرج وجوه القوم مستقبلين وسلمت حلب من استباحة الجيش الفاتح لها.

طرفة من الأندلس

رواها محمد حسني السوسي في كتابه شذرات من الشطرنج ص ٦٧ قال:

يعد الشاعر أبو بكر محمد بن عمار من أشهر الشطرنجيين الأندلسيين، وكان وزيراً لملك أشبيلية المعتمد بن عباد وقد حَكَى عنه عبدالواحد المراكشي في كتابه المعجب الحكاية التالية:

واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الاذفنش (الغونسو) إذا ذكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة، وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها، فخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه، فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع، لم يكن عند ملك مثلها، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل، وحلاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الاتقان، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأذفنش (الفونسو) فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الاذفنش قدومه وبالغ في إكرامه، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه، فأظهر ابن عمار تلك السفرة (أي الرقعة) فرآها بعض خواص الاذفنش، فنقل خبرها إليه، وكان العلج (أعني الأذفنش) مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية، فأخبره بمكانه منه، فقال له: بلغني أن عندك سفرة في غاية الاتقان. قال ابن عمار، نعم فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي. فقال له الأذفنش: هلمها لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلج صلب وقال: ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الأذفنش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو، ولعله شيء لا يمكنني: فقال ابن عمار: لا ألعب إلا على هذا الوجه. وأمر بالسفرة فطويت. فتعلقت نفس العلج بالسفرة، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار، فهوّنوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار ما لا يُمكن فنحن لك برده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار



□ احجار من عاج طراز إسلامي.

فجاء ومعه السفرة، فقال له: قد قبلت ما رسمته، فقال له ابن عمار: فاجعل بيني وبينك شهوداً أسماهم له، فأمر الأذفنشي بهم فحضروا، وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار ــ كما ذكرنا ــ طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار، هل صح أن لي حكمي؟ قال نعم فما هو؟ قال أن ترجع من ههنا إلى بلادك، فاسود وجه العلج وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي، وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك؟ فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار: هذا كله لك، وجاءه بما أراد، فرجع وكف الله بأسه.. ورجع ابن عمار إلى اشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به.

واختم هذه الشذرات بقول لابن ماسويه (طبيب ومترجم من العصر العباسي، عاش أيام هرون الرشيد ولازم الخليفة المأمون، توفي سنة ٨٥٧م).

قال: «يستحب للاعبها أن يكون بعيد الهمة رشيق اللفظ حَسن البيان، قوالاً للصواب سريع الجواب، متجنباً مستحقره، قليل الحلف».

وأتوقف عند هذا الحد من تاريخ الشطرنج عند العرب خوفاً من تكرار ما ذكر من قبل (في هذه المجلة) آملاً في فرصة أخرى أن أكتب عن تاريخ الشطرنج الحديث في كل بلد عربي والذي كانت الامارات العربية السباقة في إثارته في يوم من الأيام ونرجو منها أن تتابعه إذ أن ترسل إلينا ما توفر لها منه لنتابعه، علماً بأن أول مسابقة دولية جرت في القرن العشرين في الدول العربية كانت سنة ١٩١٢ وقد جرت في القاهرة واشترك بها ١٦ لاعباً منهم مصريان فقط..

●

أعلام الطب

علي بن العباس المجوسي الأهوازي

عبد الباقي سشنان



□ رسم لأحد الصيادلة العرب وهو يعد المستحضرات الطبية.



هو أبو الحسن علي بن العباس المجوسي الأهوازي، وهو الذي حرف الأوروبيون اسمه إلى (Hali Abbas)[١]، وهو من عائلة زرد شتيه، إلا أنه اعتنق الدين الاسلامي ولأنه اعتنق الاسلام، يرى بعض الباحثين بعدم جدوى تسميته بالمجوسي، والاكتفاء بتسميته بالأهوازي، نسبة إلى مدينة الأهواز التي ولد فيها. وقد عاش ابن العباس في القرن العاشر الميلادي، ولكن لا أحد يعرف تاريخ ميلاده، إلا انه من معاصري الرازي.

ويجمع المؤرخون على أن الأهوازي تتلمذ على يد الطبيب «**ماهر بن موسى بن سيار**».

الأهوازي طبيباً

عمل الأهوازي طبيبا في المستشفى الكبير في بغداد... وقد اهتم هذا الطبيب بالطب الداخلي والعمليات الجراحية، مثل عمليات استئصال الأورام الخبيثة، وعمليات استئصال اللوزتين، إضافة إلى عمليات تجبير الكسور العظمية، كما اهتم بأمر الدورة الدموية والأوعية الشعرية[٢].

ويعتبر ابن العباس الأهوازي **طبيب السلطان عضد الدولة**، وهو الذي قال للسلطان عضد الدولة «أني لم أجد بين مخطوطات قدامى الأطباء ومحدثيهم كتاباً واحد كاملاً يحوي كل ما هو ضروري لتعلم فن الطب. فأبو قراط يكتب باختصار، وأكثر تعابيره غامضة بحاجة إلى تعليق.. كما وضع جالينوس عدة كتب لا يحوي كل منها إلا قسماً من فن الشفاء، ولكن مؤلفاته طويلة النفس وكثيرة الترديد. ولم أجد كتاباً واحداً، يصلح كل الصلاح للدراسة»[٣].

وطبيبنا الأهوازي الذي عاصر «جربارت فون أورياك»، كان واسع الشهرة في المنطقة العربية، وقد امتاز بكفاحه الشديد ضد الداء والموت بصورة عملية، وكان يمارس عمله الطبي عملياً ونظرياً.

ابن العباس الأهوازي ناقداً لكتب الطب والأطباء

يعتبر علي بن العباس أول منظر عظيم في التشريح والفيزيولوجيا في تاريخ الطب العربي، وهو يملك بعد نظر شامل في كتب الطب. وكم من مرة تناول فيها كتب الأطباء القدماء، وكتب الأطباء الذين عاصروه، ونقحها الواحد تلو الآخر. وقد وضع عليها ملاحظات عديدة وهامة.. فقد نقد كتب «أوريبازيوس» و «بول فون ايجينا وأبو قراط وجالينوس»، وكتب على بعضها معلقاً «بأنها مشروحة بشكل جيد ولكن دون أية طريقة، ولسوف يشق على التلميذ أن يدرس فيها»، كما نقد كتب معاصريه من أمثال أرون وساربيون وماسويه والرازي[٤]، فقد قال عن مؤلفات الرازي وخاصة كتابه «الحاوي»، إن كتاب «الحاوي» كامل كما يجب أن يكون الكتاب: «فكل الكتب، موجودة في الحاوي»[٥] ويكاد أن يكون الكتاب المثالي لولا ان محتوياته مرتبة دون ترابط ودون أية طريقة علمية، وهو لم يقسم مؤلفه إلى أقسام وفصول، كما ينتظر المرء من رجل له من العلم ومن موهبة الكتابة ما له. وما اعتقده بصدد مؤلف هذا الكتاب هو أحد أمرين: أما انه كتب ما كتبه كسند لذاكرته يحفظه لأيامه الأخيرة، لأنه خاف أن يقضي شيء ما على ما كتبه، واما أنه كتب هذه الملاحظات، وهذا أرجح الاحتمالين، لكي تساعده في وضع كتاب كامل واضح التقسيم والمنهج. ولكن حال الموت دونه وتحقيق ذلك[٦].

الأهوازي مؤلفاً وباحثاً في الطب

لم يشتهر ابن العباس كطبيب وناقد لأدب الطب فقط، بل اشتهر كمؤلف وباحث كبير من الأمور الطبية، فله «في الطب عشرون مقالة»[٧]، وهو صاحب الكتاب المشهور «كامل الصناعة الطبية» الذي أسماه «الكتاب الملكي». وقد أهداه للملك عضد الدولة (فناخسرو) بن ركن الدولة أبـي علي حسن بن بويه الديلمي، وقد وصف هذا الكتاب الطبيب المشهور ابن أبـي اصيبعة بقوله: «هو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها»[٨]، كما وصفه الدكتور عمر فروخ فقال فيه: «هو أحسن إيجازاً وتنسيقاً من كتاب الحاوي للرازي»[٩]، أما هو فقد قال عن كتابه حينما كان يستعد لكتابته «وأما أنا فأني سأعالج في كتابـي كل

ما يلزم للحفاظ على الصحة وشفاء الأمراض، المستلزمات التي يجب على كل طبيب قدير مستقيم أن يعرفها»[١٠].

يمتاز «الكتاب الملكي» عن غيره من الكتب الطبية بتنظيمه ودقته وبما جمع من أصول فن الطب ونظرياته، وفيه يتحدث ابن العباس عن وجود شبكة شعرية بين العروق النابضة وغير النابضة، أي بين الشرايين والأوردة. كما كتب في كتابه المذكور، منبهاً إلى صعوبة شفاء السل الرئوي بسبب الحركة الدائمة للرئتين، بقوله: ان السبب الذي من أجله لا يشفى السل الرئوي، هو ان الرئة دائمة الحركة لا تلتئم لكثرة حركتها وهزها وإزعاج السعال لها. لأن العضو المتقرح يحتاج أن يكون هادئاً ساكناً حتى تلتحم قرحته ووصف ابن العباس عملية استخراج البول من المثانة بوضوح تام، وسمي الآلة التي يستخرج بها البول بـ «القاثاطير»[٢١]. وبحث عن معالجة التهاب الغدد اللمفاوية الدرني (الخنازير) في الرقبة بالأساليب الجراحية فقال: انك تشق عنها الجلد شقاً بالطول ولا تبلغ بالشق إلى نفس الورم، ثم خذ شفتي الجلد بسنارتين وغ الجلد وسائر الأجسام التي حولها (العقد) وإخراجها قليلاً قليلاً، وينبغي أن تتوقى [حينما] تقطع شرياناً أو تنخس عصباً ومتى وقع ببعض العروق خرق ينبغي أن نربطه برباط وتقطعه لئلا يمنعك من جودة العمل بخروج الدم، فإذا استخرجت الخنازير فينبغي أن تدخل اصبعك في الموضع وتفتشه جيداً لئلا يكون هناك خنازير صغيرة قد بقيت فان كان هناك شيء منها فانتزعه واخرجه واجهد ان لا يبقى منها شيء، فإذا علمت انك استنظفت الموضع ولم يبق منه شيء فاجمع شفتي الجلد وخيطه، فإذا كان من الجلد فضله مما كان قد تمدد بسبب عظم الخنزير فينبغي أن تقصي تلك الفضلة بالمقراض وتهندم الجلد على قدر الموضع وتخيطه[١٢].

وعن ورم اللوزتين وعملية استئصالها قال ابن العباس: إذا عظم ورم اللوزتين وطالت مدته وعسر على صاحبه البلع ولم تنجح فيه الأدوية والغرغرة... ينبغي أن يستعمل فيها القطع. والسبيل إلى ذلك أن تأمر العليل أن يقعد بين يديك مقابل الشمس وتأمره أن يفتح فاه، وتأمر [الممرض] أن يمسك رأسه إلى الخلف وتأمر [ممرضاً] آخر أن يمسك لسانه ويكبسه إلى أسفل بالآلة التي يكبس بها اللسان، ثم تأخذ سنارة وتغرسها في إحدى اللوزتين وتخرجها إلى الخارج، من غير أن تجذب معها شيئاً من الأغشية والأجسام التي هناك ثم تقطعها من أصلها بالآلة التي لذلك. وبعد أن تقطع احداهما تقطع الأخرى أيضاً وتغرغر العليل بماءورد وخل مبرد فإن عرض من ذلك نزف دم فينبغي أن تغرغر بماء السماق[١٣].

كما ترك لنا ابن العباس وصفاً في علاج الكسور والخلوع وطرق التجبير، وهو من العلماء الذين وضعوا العلامات السريرية وميزوها وكان دقيقاً في وصفه هذه العلامات، وقد كتب عن النبض فقال فيه: إن النبض رسول لا يكذب ومناد أخرس يخبر عن أشياء خفية بحركاته الظاهرة، والقلب والعروق الضوارب تتحرك كلها حركة .واحدة على مثال واحد في زمان واحد فيمكن أن يقاس بواحد منها على جميعها ولذلك صرنا نتعرف حال حركة القلب من حركة الشريان[١٤].

بحوث ودراسات عن الأهوازي

لقد درس العديد من الباحثين العرب والأجانب طبيبنا وعالمنا الكبير ابن العباس وتناولوا أعماله ومؤلفاته ورسائله وبحوثه وقد قدموا عنه دراساتهم وبحوثهم، فقد قدم «جرتشيشف» رسالة دكتوراه في برلين عام ١٩٠٠م تحت عنوان «طب العيون عند ابن العباس» وقدم «ب. رشتر» دراسة عنه تحت عنوان: «من تاريخ الجدري عند العرب» في محفوظات في تاريخ الطب، ودراسة تحت عنوان «علم الأمراض الجلدية الخاصة عند علي بن العباس» في «محفوظات الأمراض الجلدية والزهري»، كما كتب عنه «كامبل» دراسة تحت عنوان: «الطب العربي وتأثيره في العصور الوسطى»، وتناوله «شبرجس» بدراسة تحت عنوان: «تمثل الطب العربي في العصور اللاتينية»[١٥]. كما تناوله عدد آخر من الكتاب



□ بعض ادوات طب الأسنان وردت في كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي.

والباحثين والعلماء عرب وغير عرب في بحوث ودراسات مختلفة.

نصب تذكاري خالد

إن العلماء والأطباء والفلاسفة العرب، هم أعظم من أضاؤا بأفكارهم وعلومهم وبحوثهم طرق ومسالك الانسانية في كل أرجاء المعمورة، وما هم اليوم سوى علامات مضيئة ووهاجة في جبين التاريخ الانساني، ونصب تذكارية خالدة في سور العلم والمعرفة... ويقف علي بن العباس الأهوازي كنصب تذكاري شامخ ومتميز، بين كوكبة من العلماء والباحثين والفلاسفة والأطباء والمبدعين الآخرين، وقد أعطى للطب والعلم المزيد والمزيد وأمام تراث وبحوث هذا الانسان العظيم في العلم والمعرفة، يجب أن تكون للانسان العربي المعاصر وقفة جادة لدراسته والغور في أعماقه التي لم تستكشف بعد، لا سيما وان ذلك يحمي بحوثه وأعماله من الضياع أو التشويه كما ان في ذلك تذكير لانساننا العربي المعاصر الذي أدار ظهره للحضارة العربية العريقة، تلك الحضارة التي استفاد منها الآخرين (الغرب) وبنوا عليها حضارة جديدة عملاقة، في حين نجد انساننا العربي، لا يزال يرزح بقيود الجهل والأمية، تمزقه الخلافات، ويستسلم لتبعية الغير. لقد آن الآون لكي نعيد إلى العلم العربي تجدده للحضارة العربية حيويتها، وللتراث العربي أصالته، وللبحوث العربية دقتها وعمقها. وأن نمسح الغبار من النصب التذكارية العربية لكي يفتح وهجها ووميضها ولمعانها بصائرنا التي لا تزال لا تنظر إلى الأشياء بموضوعية نتيجة العتمة والضبابية المحيطة بها. ●

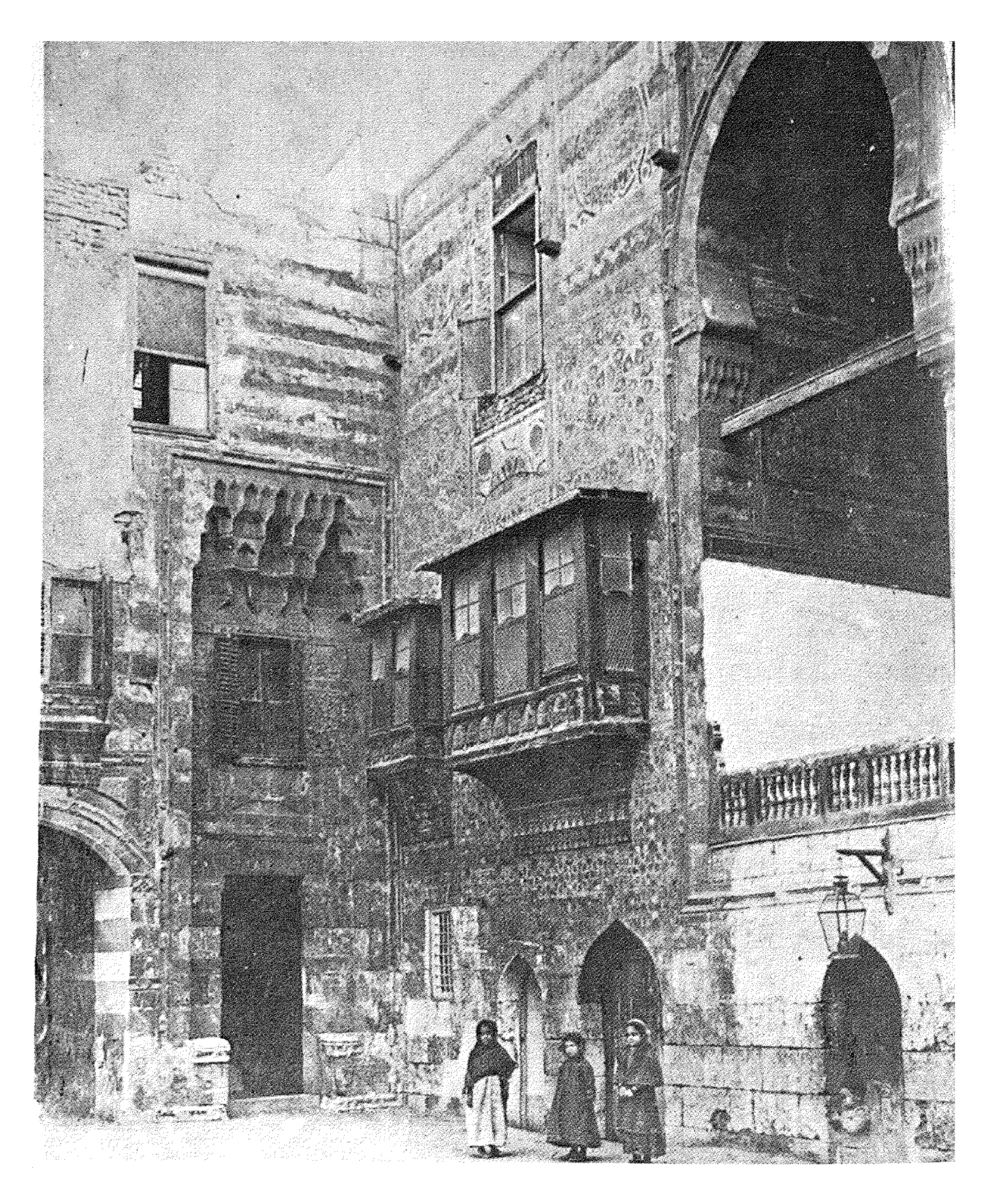
الهوامش

(١) راجع: د. أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وإعلامه، ص ٢٣١.
(٢) راجع: محمد فائز القصري، مظاهر الثقافة الاسلامية وأثرها في الحضارة، ص ٢٢٢.
(٣) راجع: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٨٤، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي.
(٤) راجع: د. أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه واعلامه، ص ٢٣١.
(٥) راجع: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٨٤.
(٦) راجع: المصدر نفسه.
(٧) راجع: ابن أبي اصيبعة، عيون الأبناء في طبقات الأطباء، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.
(٨) راجع: المصدر نفسه.
(٩) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٨٢.
(١٠) راجع: زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٨٥.
(١١) راجع: الأهوازي، كامل الصناعة الطبية، الجزء الثاني، ص ٤٨٣.
(١٢) راجع: المصدر نفسه، ص ٤٦٧.
(١٣) راجع: المصدر نفسه.
(١٤) راجع: المصدر نفسه.
(١٥) راجع: د. عبدالرحمن بدوي، دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، ص ٢٤.



● عاهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه الناس، فقال:

«لكم علي ألا أجتني شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه. ولكن علي إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكن علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم (أحمي حدودكم من العدو)، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك وأجمركم — أي أحسبكم — في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم».



□ منزل قايتباي ــ واجهة الصحن، ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م.